كتاب

خطط الشام

الجزء الثالث

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٤٣ هـ و ١٩٢٥ م

كتاب

خطط الشام

الجزء الثالث

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

طبع في مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٤٣ هـ و ١٩٢٥ م

العهد العثماني

« من سنة ١٢٠٠ الى ١٢٤٧ »

الجند أداة الظلم والتدمير

كان الشام في هذا القرن مهد القلاقل والثورات ، يقع الاعتداء في الاكثر على المسيحيين والاسرائيليين وأهل السكينة من فقراء المسلمين . واكثر الفوضى ناشئة من الجند الجاهل الذي تمادى في اللؤم والدناءة الي درجة الوحوش الضارية . ويقسم هذا الجند الى ثلاثة اقسام الانكشارية والقبوقولي وهما القسمان القويان والقسم الثالث حرس الولاة الخاص وهو يتألف من المغاربة والتكارنة والترك والارناؤد والدالاتية وغيرهم ، والعداوات متأصلة بين هذه الاقسام الثلاثة . ولطالما قامت بسبب ذلك فتن بينهم أُهرقت فيها الدماء ووقعت ويلاتها على الشعب ، فتُنهب أمواله وتغلق حوانيته وتقف الاعمال ، ولا سيما في الحواضر مثل دمشق وحلب . ولا تنفض هذه المشاكل الا بتدخل الولاة او أحد الاعيان ، ويتكرر ذلك ابداً لان العلة الاولى فيها لم تستأصل فلا يعاقب المجرمون ولا يحمل الاوباش على حرمة الشريعة . ولذلك كانت شوارع المدن وأحياؤها كثيرة الابواب الارتجة وتقفل ايام الثورات ، وساعة المخاصمات والمشاغبات .

واكثر رجال الجندية نفوذاً الانكشارية لكثرتهم وشدتهم وصداقتهم للوالي . وكان زعماء الجند يلقبون بالاغاوات . ويرسمون على أيديهم الوشم شعار الفرقة التي ينتمون اليها ، وترسم على أبواب المقاهي اسم الفريق الذي يختلف اليها وليس لهم نظام خاص . والمحلات تخضع للاغا المقيم فيها وهو يخضع لزعيم الفرقة . ولم تكن تكفيهم

إدراراتهم التي يتناولونها من مال الخزينة لكثرة أتباعهم ، فيضطرون للعمل يذهبون اليه وهم مسلحون ليسهل عليهم الانضمام الى فرقتهم متى دعت الحاجة ، ولا شأن للخاملين واهل الفسق الا الاجتماع في المقاهي والحانات ، و إطالة أيدي الأذى على الناس يصادرون أموالهم ويفترسون نساءهم وصبيانهم ، وكثيراً ما يقتلون أحد أبناء السبيل لغير سبب كأن يجربوا بنادقهم او سيوفهم في اول من تقع أعينهم عليه ·

فتمادى الرعاع في فحشهم وفجورهم الى الغاية ، لضعف الحكام وقصورهم عن ردع القوي عن الضعيف ، فنشأت فئة من الناس مسلمين ومسيحيين ، اتكلوا في حفظ أنفسهم وأهلهم على انفسهم وشدة بأسهم في الدفاع · وكان القوم يحترمون هؤلاء الأشداء ويخافونهم ، وكان منهم من عرف بالشهامة والشمم بما يغبطون عليه و يخفف ويلات الشرور اللاحقة بالرعايا من اعتداء الجند أحياناً · و بلغ التعصب الديني أقصى شدته في هذا العصر حتى تجاوز القوم فيه حد الافراط ، فيحسب المرء كل من لم يتدين بدينه ممن يجوز له قتله او الاعتداء عليه ، وابتزاز ماله وانتهاك عرضه ، وانتشر هذا الروح حتى عم السواد الاعظم من الناس · قال مشاقة بعد ايراد ما لخصناه : وكان فريق من العلماء وأهل التقوى يرون معاملة الذمي بالحسنى تبعاً لقواعد الدين الشريفة ولكنهم لم يتوفقوا لردع الرعاع في زمن عمت فيه الفوضى وساد الجهل والهمجية على القوم ·

من أجل هذا ساغ لنا ان نستنتج ان البلاد على اختلاف في الدرجات كان أهلها وحكومتها بين ظالم ومظلوم ، يشتد الوالي في إعنات الرعية لسلب أموالهم و يرسل الى العاصمة بالمقرر عليه ، وكثيراً ما يشاكسونه فلا يدفعون المفروض عليهم ، او ينتقضون عليه بايعاز بعض أهل النفوذ وقد يكون الحق معه ، والرعايا عرضة لاعتداء الجند وأغواتهم والاعيان وأتباعهم ، تساوى في الظلم المدني والقروي ، وربما كان المدني اكثر تعرضاً للمهالك لقربه من هذه العوامل التي أخذت على نفسها التخريب وتمثيله في مسارح الجهل على ضروبه وأشكاله · ظلمات بعضها فوق بعض ، وسلاسل مفرغة من المصائب لا يدرى أين طرفاها · وليت شعري ما يرجى من عناية دولة بامتها وهي تعطي الوزير ثلاثة أطواخ والأطواخ أذناب خيل فالذنب

معلق من أسفله في رأس عصا وطولها نحو ثلاثة اذرع وشعره مسدول عليها ، فاذا سافر الوزير يرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم الى محل نزوله فيستعدون لاستقباله وتهيئة ما يلزمه من المآكل والعلف للدواب وهذا بلا ثمن . واما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير في السفر . ومعنى الاطواخ ان الدولة تحكم البلاد باذناب خيلها — قاله مشاقة ونحن نقول ان الدولة التي تبلغ من غرورها هذا المبلغ لا تنجح في الحكم ويمكن ان يقال للرعية ما قاله علي بن ابي طالب : « والله ان امرأ يمكن عدوه من نفسه ، يعرق لحمه ، ويهشم عظمه ، ويفري جلده ، لعظيم عجزه ، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره » .

وقال جودت في حوادث سنة الف ومائتين : ان وظيفة جابي المال في حلب كانت منذ اربعين سنة مطمح انظار الموظفين في الدولة لانها تأتيهم بثروات اذا جاؤا بها الى الاستانة ينالون بواسطتها رتبة الوزارة ورتبة ميرميران وممن كان منه ذلك احمد باشا فانه أخذ العلم والطوخ واشتهر شهرة عظيمة ، وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشترى بالمزاد ، وكثيراً ما كانت الدولة ترسل بمفتشين يشاركون المرتكبين من هؤلاء الجباة ، وكثيرون ممن يتولون هذه الوظائف يرحلون بالاموال ينفقونها في شهواتهم حتى يهلكوا فقراً وقهراً ، ولذلك كانت أموال الدولة تبدد و يسرف فيها .

☆ ☆ ☆

حوادث الجزار وفتن الانكشارية وغيرها } بدأ القرن وأهم وزير مسموع الكلمة في الاستانة قوي الشكيمة في ظلم الرعايا بالشام ، احمد باشا الجزار ، تولى دمشق بعد ولاية عكا ، وذهب أميراً مع الحج فرفعت الشكاوى عليه من اهل دمشق الى دار الملك فعزل وذهب الى الاستانة فعينته الدولة وزيراً على صيدا ، وأقام في عكا وحصنها وضبط املاك بيت شهاب في بيروت ورفع ايديهم عن حكمها ، وأنشأ للثغر ارتجة وسوراً فسُر المسلمون بذلك ، ونُصب على دمشق ابراهيم دالاتي باشا الكردي سنة احدى ومائتين والف وكان جسوراً مهيباً فحدث بينه وبين الاهالي اختلاف وتعصبوا عليه وحدثت فتنة فأغلق احمد اغا الزعفرنجي شيخ الانكشارية القلعة وقتل من عسكر الوالي ثلاثمائة رجل وأراد ان يضرب الوزير ،

فخرج هذا الى حمص وحماة وجمع عسكراً كثيراً ، وأوعزت الدولة الى الجزار والى الامير يوسف الشهابي ان يعاوناه بعسكرهما ففعلا ، وعاد الوالي الى دمشق فارتاع اهلها وأرسلوا النساء الى الجامع الأموي فكلمه أعيان المدينة فاشترط عليهم انه يلتزم الرحمة اذا خرج الزعفرنجي من القلعة وتسلمها رجاله ، ودخل البلد وقتل بعض الارذياء قيل انهم مئة وخمسون رجلاً من جماعة القلعة ، وكان جاء الوالي في عسكره الى باب الله واجتمع العسكران ووقع قتال فهلك فيه من الفريقين خلق كثير . وملك الوالي الميدان ، واستمر ذلك مدة والعسكر محيطة بالقلعة حتى سُلمت . وأقام هذا الوالي اربع سنين في دمشق ، وذهب امير القلعة الى امير عرب الموالي فاراً من والي دمشق ، فأوعز هذا الى متسلم حماة ان يقتنص من عربه لفسادهم في تلك الارجاء ، فساق عليهم من حلب وحماة جيشاً قتل منهم نحو الف انسان وانهزم الباقون . وكان عرب الموالي ثاروا هذه السنة في ضواحي حمص وحماة فنهبوا القرى وفتكوا باغوات الدنادشة حكام المدينتين منهم وقتلوا كلاً من شيخ بلاد الكابيين وشيخ بلاد النصيرية وعاثوا في تلك الجهات وفتكوا باعيانها .

وفي سنة ١٢٠١ دخل عثمان باشا الى انطاكية ونزل عسكره على الحريم وفعل فيها أفعالاً قبيحة واتى ادلب وصادرها وخرب جميع القرى التي مرَّ عليها وما حول ذلك وخرب الراموسة واشتبك القتال بينه وبين اهل الشيخ سعيد عدة ايام فقتل من عسكره بالطاعون والسلاح عدد كبير ونهب قرى كثيرة في تلك الارجاء ، هذا والطاعون في حلب وارجائها يفتك فتكاً ذريعاً .

وخربت القرى وهلك الفقراء في فتنة الامير جهجاه الحرفوش (١٢٠٢) وكان قوي على ابراهيم باشا والي دمشق ، وسرت شرارة فتنة الزعفرنجي الى جميع اهل دمشق حتى طلب الوالي عسكراً من جبلي نابلس والشوف ودقت طبول الوالي (١٢٠٣) من دومة في غوطة دمشق وفرق العساكر ثلاث فرق فدخل عمر اغا من الزفتية ، وابنه على صفّ الجوز ، والوزير على السلطاني ، وأحرقوا القبيبات وحارة التركمان ، وجرت الدماء من الصباح الى العصر حتى أطاع اهل دمشق السلطان

عبد الحميد الاول وخرب الوالي القلعة وأهلك متوليها بمدافعه بمرذمة قليلة من عسكر الوزير وبقيت الحرب بين الفريقين ستة ايام بلياليها ٠

وفي ايام ابراهيم باشا الكردي (١٢٠٣) انتشبت الحرب في وادي أبي عباد فوق كامد اللوز في البقاع بين عسكر الجزار وعسكر الشهابيين أمراء لبنان ووادي التيم انكسر فيها عسكر الجزار كسرة عظيمة ٠ ووقع بين عسكر الجزار والهوارة والدروز في جب جينين قتال انكسر فيه عسكر الامير وقتل منه مقتلة عظيمة ، ثم جمع الامير يوسف عسكر لبنان وأرسلهم مع سليمان باشا والهوارة الى عين دارة فالتقوا بعسكر الجزار في قب الياس فانكسر ايضاً عسكر الامير يوسف وحدثت عدة وقائع بين عسكر الامير في جزين وعسكر الجزار في جباع كسر فيها عسكر الامير يوسف ٠ وكان عسكر الزعفرنجي يعيث خلال ذلك في مرج الغوطة غوطة دمشق ، فيهلك الفلاحين ولا إهلاك الاوبئة و يرعى رجاله الزروع ولا اكل الجراد ٠

* * *

عهد سليم الثالث وفتن وكوائن — هلك السلطان عبد الحميد الاول سنة ١٢٠٣ وخلفه السلطان سليم الثالث وكانت أيامه كلها غوائل وفتناً : استقلت فيها القريم وأصبحت روسيا بما أخذته من بلاد الدولة على البحر الاسود دولة بحرية مهمة ، وقبل بمعاهدة كوجك قينارجه (١١٨٨) مع روسيا وبها انحط مقام الدولة ، وحارب روسيا مرتين ٠ وقال مترجموه من الترك انه كان عادلاً حليماً تحبه رعيته ٠ وقد ذكر بعض مؤرخي العراق ان الايرانيين استولوا على البصرة وبقيت في أيديهم خمس سنين ولم يبلغه ذلك وموّه وزراؤه عليه ٠ فما أحراهم ان يموهوا في حالة بلاد كالشام لم تخرج عن حكمه الذي دام ست عشرة سنة ٠ و يقول معاصروه من المؤرخين ان السلطان عبد الحميد الاول كان أخرق للغاية وانه كان جاهلاً وليس فيه من جودة الرأي والحزم والمضاء شيء ، ولم يستطع ان يستفيد من الثورة السياسية والدينية التي نشبت في القافقاس ، ولم يحسن الانتفاع من أسباب النجاح التي كانت متوقعة من بحريته وجيشه ٠

وفي سنة ١٢٠٤ وقعت فتنة بين الامير قاسم الحرفوش وابن عمه الامير جهجاه

في سهل أبلح بالبقاع ، فدحر الامير قاسم عسكر الامير بشير الشهابي الكبير فشق عليه فأرسل نجدة أُخرى للامير قاسم ، فلما علم ذلك الامير جهجاه هرَّب سكان بعلبك وأتلف ما فيها ولم ينالوا من جهجاه ، ثم استصرخ الجزار فأمر بان يمد بجيش فأرسل معه عسكر المغاربة والدولة ومشايخ الدروز فانتشبت الحرب بينهم وبين جهجاه فاندحروا وقلق الناس ، ورحل كثير من السكان من تلك الارجاء ، ثم تغلب الامير جهجاه على الامير قاسم . وفي السنة التالية وقعت وقعة بين جهجاه وحاكم بعلبك الحاج اسماعيل فانهزم هذا وقتل من رجاله نحو مائتي رجل ولم يقتل من رجال جهجاه احد . وفي سنة ١٢٠٥ أحرقت عساكر الدولة وقيل عسكر الامير بشير حاصبيا واكثر القرى التي حولها .

* * *

مظالم الجزار واختلال الادارة } تولى احمد باشا الجزار دمشق للمرة الثانية سنة ١٢٠٥ وظل مقيماً في عكا وارسل متسلمين منهم ارفه اميني وكان كما قال مشاقة ظالمًا قاسيًا يشبه استاذه في انشاء المظالم والحوادث الصعبة على المسلمين والنصارى واليهود . وكان الجزار مغتاظاً من اهل دمشق لعرضهم على الدولة مساوئه مما ادى الى تنحيته عن عمله سنة احدى ، فاراد الانتقام من الساعين به هذه المرة . وبالحقيقة ان مدة حكم الجزار في دمشق وهي خمس سنين لم يرتح فيها الناس شهراً واحداً من طلب الاموال ظلماً وطرح المعاملة المتصل التي حدثت بها خسائر عظيمة وطرح بضائع متنوعة ، ينهبها من جهات ويطرحها باسعار زائدة على اخرى ، وليس في البلاد صغير ولا كبير الا ويناله الظلم والقهر ، ونزح كثير من السكان وتركوا اوطانهم وعيالهم . سلسلة من المظالم لاحد لها . وكان كل سنة يقتل في قلعة دمشق بدون تحقيق اناسًا وقد قتل في احدى السنين مئة وستين رجلاً خنقًا وذلك في ثاني سنة من ولايته . وفي السنة الثالثة قتل نحو ستين وكان كلما جاء دمشق مرة في السنة وهو ذاهب ليحج بالناس او آيب منه يعمل هذه الاعمال للارهاب ولم يقف امر المظالم عند حد اوامر الجزار المجنونة ، بل كانت الفتن في جهات أُخرى من الشام على عادتها في القرون الماضية ، من ذلك انه جرت سنة ١٢٠٦ عدة وقائع بين

الجبل وعسكر الدولة الذين كانوا مع الامير بشير كانت الحرب فيها سجالاً ، واحرقت عسكر الدولة غريفة وسبت نساء كثيرة واولاداً . واشتد الخصام بين الاميرين بشير قاسم وحيدر ملحم الشهابيين على الإمارة في لبنان ، وكان الامير بشير تعهد للجزار بخمسة آلاف كيس على مثل ما تعهد به الامير يوسف ، فاخذ يصادر كل من مالأ الامير يوسف ، ومال الناس الى الامير حيدر للتخلص من الضرائب التي سامهم الامير بشير دفعها ، وسادت الفتن في اللبنانين الغربي والشرقي ، وهاجم والي دمشق بعلبك للانتقام من الامير جهجاه لانه لم يخلد الى السكينة ، وقتل عشرات من الناس في بعلبك وسغبين وقتل من العسكر اكثر من ذلك .

واختل الامن سنة ١٢٠٦ في جهات عينتاب للفتن القائمة بين الانكشارية والحكومة والاهالي وأُصيب الانكشارية بنهب اموالهم وخراب بيوتهم وهجمت اهالي حلب على بطال آغا نوري ومحمد اغا وعلى عسكره وحصل بينهما مناوشة ادت الى انهزامه خارج حلب ، وتوجه الى عينتاب وحاصرها خمسة اشهر الى ان قتل وحمل رأْسه ورأْس اربعة وعشرين من العصاة الى الاستانة . قال جودت : وكان هؤلاء الخونة يتقربون الى رجال الاستانة بالامور الدنيئة فينصبونهم حكاماً في بعض المقاطعات فيفسدون في الارض و يتسلطون على عباد الله حتى ترفع الرعية علم العصيان وتقاوم الحكومة ولا تبعة في ذلك الا على رجال الدولة .

وفي سنة ١٢٠٦ (١٧٩١) اخرج الجزار الفرنج من بيروت وبنى السور بحجارة ابنية الشهابية التي دكها ودك كنائسهم وجعلها اصطبلات . وفي هذه السنة قتل رجل من اهل بيروت خارج البلد فاغلقوا الابواب وقبضوا على كل من وجدوه من اهل الجبل وكانوا نحو ستين رجلاً فقتلوهم جميعاً . وحدثني الثقة من اهل بيروت عن ابيه عن جده ان حكام بيروت المسيحيين اشتدت مظالمهم وعتوهم على المسلمين فكان الامير يمر في شهر رمضان في المدينة يحملون امامه الغليون للتدخين فينتصب المسلمون على الاقدام يحيونه فلا يتنازل ان يجيبهم بل يقول الخادم من ورائه : سلَّم الامير . فضاقت الحال بالمسلمين فشكوا امرهم الى قائد الاسطول العثماني وكان يأتي كل سنة ليحمل الاموال المقررة على البلاد فقال لهم : الخطب سهل وهو ان تغلقوا ابواب

المدينة متى رأيتمونا اقلعنا بسفننا وتذبحوا النصارى وبذلك ترتاحون منهم ففعل غوغاء المسلمين وقتل بهذا التدبير الجائر كثير من الابرياء ، وبذلك تبين ان الدولة لم تكن تهتم الا لجبايتها فاذا استوفتها فسواء لديها تقاتل رعاياها ام تصالحوا ، والغالب انها تحبهم ان يكونوا على خصام ابداً حتى يخلولها الجو وقاعدة « فرق تسد » من اهم قواعدها ·

وفي سنة ١٢٠٧ وهب الشهابيون الهرمل للامير جهجاه الحرفوش فلم يذعن له سكانها فحاربهم وقتل منهم نحو اربعين رجلاً واحرق البلدة وفي سنة ١٢٠٨ قامت الفتن بين الاشراف والانكشارية في حلب دامت عشرين يوماً قتل فيها بعض اهل اليسار والشرف ثم انكسر الاشراف وحصرهم الانكشارية في جامع الاطروش وجرى من القبائح الوان واشكال ·

وفي سنة ١٢٠٩ صدر امر الجزار بمصادرة بعض صيارف دمشق من الاسرائيليين فلقوا عنتاً وقتل بعضهم وادخل الرعب على ابناء نحلتهم في حيهم الخاص بهم ، ونال مثل ذلك بعض اغنياء الاهالي على اختلاف مذاهبهم ، وبدأ القتل والصلب وقطع المناخير وحبس خلق كثير وجرم الابرياء وهرب الناس هائمين ، وفي هذه السنة غزا عسكر دمشق بعلبك فهرب الامير جهجاه الى رأس بعلبك فاحرق بعض بيوتها وكان رجال الدولة يحاذرون من شيء يقع على الشام بعد ان اعتصم الظاهر عمر بروسيا فقد ذكر (شاني زاده) ان والي صيدا عبدالله باشا كتب الى الدولة بان كنيستي عكا والناصرة وقلعة حيفا كلها مستحكمة البناء لاتخلو من محذور فاستفتى السلطان فافتي بان تهدم الكنيسة القديمة والجديدة معاً لثبوت مضرتها ونفذ الحكم وكثيراً ما كان الولاة في العهد العثماني يوجسون خيفة من الديارات والبيع اذا كانت مستحكمة البناء فقد اخرج السلطان سليمان النصاري من ديرهم في سفح جبل بالقرب من قرية البعنة في صفد وكان قديماً يعرف بدير الخضر وامر احمد بن اسد البقاعي من الصوفية بالاقامة فيه مع اولاده ·

وفي سنة ١٢١٠ تولى دمشق عبد الله باشا العظم والبلاد في حالة مزعجة وقد دام في ولايته هذه ثلاث سنين وبقي الجزار في عكا وفي هذه السنة وقع القتال بين عسكر اولاد الامير يوسف في جبيل وبين الذين كانوا في قلعتها من عسكر الامير بشير

وكسروهم وفي سنة ١٢١١ ارسل عبدالله باشا العظم عسكراً الى البقاع فارسل الامير بشير والجزار والي عكا عسكراً فالتقاهم الجزار واهل البلاد ، ووقع القتال في مندرة من قرى البقاع ، فانكسر عسكر دمشق كسرة عظيمة وقتل منه جماعة . ولم يزل عسكر لبنان والهوارة مجداً في آثارهم الى وادي الجدل وغنموا خيلهم وسلاحهم وذهب بعض اللبنانيين واحرقوا البترونة قرب الزبداني . وفي سنة ١٢١٢ توجه والي دمشق الى التفتيش كالعادة فلقي الطريق ممسوكة منافذها من عسكر الجزار فساءت حال رجاله ثم توجه الى جينين فطمعت البلاد فيه ولم تعطه مال الدورة ، فالحق به الجزار جنده قاصداً قهره وعسكره . فركب وركب العسكر وتوجه نحو عسكر الجزار فدارت بين الفريقين حرب انتصر فيها والي دمشق على الجزار ، وقتل الاول من عسكر الثاني خلقاً كثيراً ، ورجع لم يعترضه أحد وقد جمع الاموال الاميرية برمتها . وفيها قامت الانكشارية على اعيان حلب وقتلوا كثيراً منهم حتى كانوا يقتلون السيد وهو يصلي في المحراب ، فعرض الحال على الدولة فجاء شريف باشا والياً على حلب فمنعته الانكشارية من دخولها ، فتعهد بان يكون مسعفاً لهم فدخل واتته الاشراف فقوي بأسهم على الانكشارية وبعد ذلك ارسل الى الانكشارية سراً ان يثوروا بالسادات فكبسوهم ليلاً وقتلوا منهم مائتين وخمسين نفساً واخذ منهم شريف باشا خمسمائة الف قرش وقدمها للدولة ، وقويت شوكة الانكشارية في حلب .

وفي سنة ١٢١٣ ضرب الجند الدالاتية جميع قرى دمشق واكلوا مغلها وحرقوا دوابها وصار منهم قتل وسلب — قاله ابن آقبيق : وقال ايضاً في حوادث هذه السنة : انه كثرت الفتن وانحل الحكم حتى بقي اطلاق البارود من القلعة سبعة ايام . وانتشرت الفوضى في الاحياء والبلاد لا حكم فيها لحاكم ولا متسلم وافندية البلد (دمشق) مسجونون عند الباشا في المخيم وبقي ذلك حتى رحل الباشا ، وبقي عسكره في البلاد يومين وليلتين ، نهبوا في خلالها ما في القرى من مأكول ومنظور وعزم غالب اهلها على الرحيل لما اوقع فيهم الجند من الضرر .

✲ ✲ ✲

محاولة نابوليون فتح الشام واستيلاؤه على غزة ويافا

بينا كانت الفتن الاهلية بين العمال على المال والبلاد قد ضعفت فيها كل قوة ، والدولة كلما رأت عاملاً قوياً تكتفي بان تضع في جواره عاملاً آخر تملي له من قوتها حتى يظل في خصام وحرب مع جاره ، والضعف في الادارة ظاهر كل الظهور ، والناس من الجزار في قسم عظيم من بلاد الشام في امر مريج ، والبلاد مفتحة الابواب خالية من اسباب الدفاع الا ما كان من اسوار امهات مدنها اتى القائد نابوليون بونابرت الفرنساوي مصر (١٢١٣) وفتحها « ولما شعر باجتماع الجيوش لمحاربته وانه ان لم يناجي الدولة العلية في بلاد الشام قبل ان تتم استعداداتها الحربية تكون عواقب الامور وخيمة عليه وان من يحتل مصر لا يكون آمناً عليها الا اذا احتل القطر السوري فلهذه الدواعي عزم بونابرت على فتح بلاد الشام وقام من مصر ومعه ثلاثة عشر الف مقاتل قاصداً الشام من طريق العريش » .

ولما بلغ احمد باشا الجزار قدوم الجيش الفرنساوي من مصر الى عكا وتلك الديار أسرع — على رواية نقولا الترك — بتدبر ما يحتاج اليه في الحصار ، وارسل الى يافا العسكر وحصنها بالمدافع والقنابر ، وامتد الى مدينة غزة بعساكره وعشائره ووصلت جيوشه الى قلعة العريش وأقاموا فيها وتنبهت الغز للجهاد . وفي شهر شعبان سنة ١٢١٣ خرجت العساكر الفرنساوية الى مدينة بلبيس والصالحية وكتب الى الجنرال كايبر ان يتوجه من دمياط في البر على طريق قطية ويكون قائد العساكر الفرنساوية .

ثم ان أمير الجيوش بونابرت بعدما سير العساكر أحضر علماء الدين وغيرهم وقال لهم : ان الغز المماليك الهاربين مني قد التجؤا الى احمد باشا الجزار فجمع لهم العساكر وحضر الى العريش وعزموا على الحضور الى الديار المصرية لاجل خراب البلاد ، فلذلك أخذتني الغيرة وعزمت ان أسير اليهم بالعساكر وأخرجهم من قلعة العريش ، ثم جاء الفرنسيس الى هذه القلعة وكان فيها الف وخمسمائة مقاتل فحاصرها ثمانية ايام ، ولما فرغت مؤونتهم وبارودهم أرسلوا يطلبون الامان ، وان يخرجوا من القلعة بغير سلاح وبعد ذلك حضر قاسم بك المسكوبي في عسكر ومهمات فبلغ امير الجيوش وصوله وربطوا عليه الطريق وكبسوه ليلاً وذبحوا عساكره ولم يسلم منهم الا القليل .

وعندئذ امر الجنرال دوكوا قائد مصر ووكيل بونابرت التجار ان تسير بالقوافل الى الشام لينتفع بالمكاسب اصحاب التجارة وينتفع سكان الشام ببضائع مصر حسب العادة السابقة · وسار امير الجيوش بالعساكر من قلعة العريش الى خان يونس واستخلص غزة من الغز عساكر الجزار فوجد في غزة حواصل ذخيرة من بقسماط وشعير واربعمائة قنطار بارود واثني عشر مدفعاً وحاصلاً كبيراً من الخيام وكللاً وقنابر فحاز الجميع · ولما بلغ يافا بنى المتاريس امامها وأرسل يطلب الى حاميتها التسليم وكانت نحو ثمانية آلاف فأبت وقتلت الرسول فأدار عليها المدافع وقوي الصدام فقتل من العسكر ما ينيف على خمسة آلاف ومن أهالي البلد الفان وهجم الفرنساويون على المراكب التي في الميناء وأخذوا منها بضاعة ثمينة · ومن الغد أطلق امير الجيوش الأسارى وأطلق سبيل الشاميين والمصريين وأمر بقتل الهوارة والارناؤد جميعاً لان بعضهم كان في قلعة العريش وحين أطلقهم امرهم ان يذهبوا الى بلادهم فأتوا يافا وحاصروا بها فقتلهم جميعاً الا بعض انفار من الاغاوات الكبار استبقاهم · ووجد الفرنسيس في قلعة يافا ثمانين مدفعاً وغنموا غنائم كثيرة من المراكب وغيرها ·

☆☆☆

وقائع نابوليون على عكا وفي مرج ابن عامر } ثم ان امير الجيوش سار بالعسكر قاصداً مدينة عكا على طريق الجبال ولما وصلوا الى ارض قاقون كانت عساكر الجزار والنابلسيون كافة في الوادي الذي هناك ، وحينما بلغهم قدوم الفرنساويين أخرجوا منهم من فم الوادي خمسمائة مقاتل وبدروا يرمحون تجاه العسكر وكان قصدهم ان يجروهم الى ذلك الوادي ، فلما علم امير الجيوش مقصدهم قسم عساكره اثلاثاً ونشبت الحرب فقتل من عسكر المسلمين وولى الباقون منهزمين ، ومن الغد سار عسكر الفرنسيس الى وادي الملك وكان بلغ الجزار قرب الفرنساويين الى تلك الديار فأرسل الى حيفا فأحضر الذخائر الحربية والعسكر ، وعندما وصل الفرنسيس أمام مدينة حيفا خرج أهالي البلد لمقابلتهم وسلموا أمير الجيوش مفاتيح البلد والقلعة ، ودخل الفرنسيس الى حيفا فوجدوا بها قارباً صغيراً فيه جماعة من مراكب الانكليز فأخذوهم اسرى وبعد ذلك انتقل امير الجيوش بالعساكر الى تجاه مدينة

عكا ونصبوا المضارب والخيام في محل يقال له ابو عتبة ، وبنوا المتاريس الحصينة ووضعوا فوقها المدافع وسار الجنرال كليبر والجنرال منو الى الناصرة ونصب حاكم افرنسي على شفا عمرو وبعد إتمام المتاريس ابتدأت الحرب على عكا خامس يوم من شوال سنة ١٢١٣ ودامت اربعاً وعشرين ساعة والجيش الفرنساوي يضرب المدافع والقنابر والمراكب العثمانية والانكليزية تطلق المدافع من البحر حتى خيل للناظرين والسامعين ان مدينة عكا لم يبق فيها حجر على حجر ، وهمّ الجزار ان يخرج فطمنه الانكليز وقالوا له : اننا اسرنا في عرض البحر ثلاثة مراكب مشحونة ذخيرة فضعف امرهم ، ثم اسر الفرنسيس مركبين كانا قادمين من الاستانة فيهما ذخائر ومدافع وستة وثلاثون الف دينار مرسلة للجزار فسرّي عن الفرنسيس وحضر الى امير الجيوش قرب عكا الشيخ عباس بن ظاهر العمر وعرض له أحواله فرحب به واعطاه السلاح والكسوة وعشرة اكياس وكتب له ان يكون متولياً بلاد ابيه . وحضر ايضاً مشايخ بني متوال فأعطاهم حكم بلادهم وساروا من عند امير الجيوش الى مدينة صور وقدموا له الذخائر من البلاد وتسلموا القلعة التي كانت لآبائهم .

وكان قد اجتمع من دمشق عسكر المسلمين من مغاربة وهوارة وعربان والغز الذين حضروا مع إبراهيم بك وبلغ جمعهم ثلاثين الف مقاتل بين فارس وراجل فخرجت الى مرج ابن عامر فبلغ كليبر قدوم ذلك العسكر فسار اليهم في الف وخمسمائة مقاتل وحينما وصلوا وشاهدتهم تلك الجموع انهزموا أمامهم مكيدة لهم ، ولم يزل الفرنساويون في أثرهم حتى وصلوا الى أطراف المرج ومن هناك أحاطوا بالفرنساويين من كل جانب ولما رآهم القائد كليبر قد أحاطوا بالعسكر قسم رجاله أربعة أقسام مع كل قسمة منهم مدفع ولما شاهد أهالي الناصرة كثرة جيوش دمشق وان الفرنساويين قليلون جداً بادروا حالاً وأخبروا امير الجيوش فأحضر حالاً القائد لترك (Leturc) وأمره بتحضير ثلاثة آلاف عسكري وأخذوا معهم أربعة مدافع ، وأمر الجنرال بونابرت ان يسيروا على وادي عبلين وبعد ثلاث ساعات من مسيرهم ركب أمير الجيوش وسار وراءهم طالباً أثرهم ، ووصل في منتصف الليل بعسكره الى بئر البدوية وعند الصباح سار بالعسكر الى أن نفد الى مرج ابن عامر

وصعد الى تل عالٍ فكشف أرض المرج ونظر الى الجنرال كليبر في وسط البيداء وعساكر المسلمين محيطة به والهجوم من كل ناحيــة وليس لهم عليه سلطان ، ثم شاهد جبلاً بعيداً وعليه المضارب والخيام وكان هــذا جيش الغز ، فنزل أمير الجيوش وعزل خمسمائة مقاتل ، وأمرهم ان يقصدوا الجبل ويكبسوا الجيش وتوجه قسم منه حتى صارت العساكر المحاربة في وسطهم وأحاطوا بهم ، ولما وصل أمير الجيوش اليهم ضرب مدفعاً واحداً ثم ضرب القسم الثـاني ثم الثالث وحينما سمعت العساكر المحاربة المدافع ورأوا قدوم النجدة وعلموا أنهم صاروا في وسطهم ولوا منهزمين ولما أصبح الصباح أرسل خمسمائة جندي الى قرية جينين وأمرهم ان ينهبوها و يحرقوها ثم ان امير الجيوش أخرب قرى جبل نابلس لانهم لم يطلبوا منه الامان ٠

ولما بلغ اميرالجيوش قدوم عسكر دمشق الى صفد امر الجنرال مرات (Murat) ان يسير بخمسمائة راكب واتصل بعسكر دمشق شخوصه فرحل الى جسر بنات يعقوب وعلم الجنرال منو وهو في الناصرة ان في مدينة طبرية عسكر الجزار فنشب القتال بينهم فانكسر عسكر الجزار وانهزم بعد ان قتل منه مائتا جندي وظهر الطاعون في عسكر الفرنسيس فمات منهم خلق كثير ٠ وكانت الحروب قائمة على مدينة عكا الليل والنهار وهم يهجمون على الأسوار والقنابل تنهال عليهم كالمطر ، وقد أهلكوا من العساكر الاسلامية والانكليزية خلقــاً كثيراً وهدموا أبراج عكا وأسوارها ٠ ولما هلك بعض قواد الفرنسيس على أسوار عكا مع جملة صالحة من جندهم بدأ بونابرت يرجع الى بلاده لامر طرأ على مركزه هناك :

وكانت انكلترا هيجت ملوك الفرنج على فرنسا فاضطر الفرنسيس ان يرجعوا عن عكا بعد ان فقدوا على سورها ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى ، ومات في الطاعون وعلى الطريق ما ينيف على الف ٠ وفي ١١ ذي الحجة امر امير الجيوش بالقيام بجميع المضارب والخيام وانتقل الى مدينة حيفا وكان فيها عدة حواصل قطن للجزار فأمر باحراقها ومن هناك ساروا الى مدينة يافا فأخذوا ما كان لهم من الامتعة والمدافع الكبار ودفنوها في الرمال وقد كانوا أخذوا من العساكر العثمانية اربعة آلاف بندقيــة فألقوها في البحر وأحرقوا المراكب التي كانوا غنموها من المسلمين وأخذوا من

فيها اسرى وسخروهم في نقل الجرحى والمرضى من عسكر الفرنسيس يحملونهم على الواح خشب الى مصر ٠

* * *

خطيئات نابوليون في الشام

هذا ما رواه المؤرخ نقولا الترك في دخول نابوليون جنوب ارض الشام وخروجه منها وما وقع له من الوقائع المهمة وكانت مدة مقامه في الشام شهرين لم تستفد منها فرنسا سوى قتل بعض ابنائها ، وكذلك خسرت الشام خسارة الضعيف مع القوي ٠ ونابوليون وان عدوه نابغة القواد في عصره الا انه اخطأ كثيراً في توسعه في فتوحه ٠ وفتحه الشام ومصر من جملة خطيئاته ، ولم تربح بلاده من حملتها على هذين القطرين الا نشر مدنيتها على ايدي من استصحبهم نابوليون معه من كبار العلماء والمهندسين والطبيعيين ، وكانت مصر مباءة علمهم وعبقريتهم ٠

وقد آخذ صاحب تاريخ الدولة العلية القائد بونابرت بانه ارتكب قبل مغادرته يافا امراً شنيعاً لم يسبق في التاريخ وهو امره بقتل جميع الجرحى والمرضى من عساكره حتى لا يعوقوه في سيره ٠ وفي تاريخ فلسطين : ان جنود الجزار في يافا يوم نابوليون كانت مؤلفة من عرب واتراك ومغاربة وارناؤد واكراد وجركس « وبيت الاسكاف فيه من كل جلد رقعة » فانسحبوا لما فتحها نابوليون الى بعض الخانات وابوا التسليم قبل ان يؤمنهم على حياتهم فاجابهم القائد الافرنسي الى طلبهم فاستأمن له اربعة آلاف شخص فساقهم الى المعسكر ولما رآهم نابوليون سأل قائده عن هذه الجموع المحتشدة فاخبره انها حامية المدينة التي سلمت اليه اماناً وقبلهم حقناً للدماء فبهت وحار في امره وقال : ماذا تريدون ان افعل بهذا العدد اعندكم زاد يكفيهم أ لكم مراكب تنقلهم الى مصر او فرنسا ومن يتولى خفارتهم اذا ارسلناهم ، يجب ان تعطوا الامان الى الاطفال والنساء والشيوخ لا للرجال الاشداء المقاتلين ، ثم استشار ضباطه في قتلهم فخالفوه ولكنه اصر على رأيه وامر بهم فقتلوا رمياً بالرصاص في ١٠ آذار سنة ١٧٩٩ اهـ ٠

الاان مشاقة يقول وقبل ان يغادر بونابرت يافا الى عكا امر بقتل الاسرى الذين وقعوا

في قبضته ثلاثاً في العريش وفي غزة وفي يافا ، وكان يطلق سراحهم كل مرة بعد ان يأخذ عليهم العهود ان لا يعودوا الى قتاله ، ولما اسرهم هذه المرة وعددهم يربو على ثلاثة آلاف حنق عليهم وعلم انهم لا يراعون ذمة ولا يحترمون الشرف العسكري ، فامر جنوده باطلاق النار عليهم ولم يواروهم التراب ، وبقيت اجسامهم طعاماً للطيور ، وظلت رفاتهم مكشوفة مدة اهـ . وهـذا السبب معقول وله من القوانين الحربية ما يشفع به بعض الشيء اكثر من الرواية الاولى . وانتقد مسترمان على نابوليون ذبحه حامية يافا وكانت مؤلفة من اربعة آلاف ارناؤدي ووضعه السم لجنوده لدن عودته لانهم اصيبوا بالطاعون . وفي رواية انه وجد فيها الفين من الاسرى الذين اطلقهم وكانوا عاهدوه في العريش ان لا يحاربوه فقتلهم والحرب غشوم .

وقال مشاقة : ان بونابرت بعـد ان فرق جموع الاتراك على الحدود السورية ارسل كتاباً الى الجزار ينصح له ان يجنح معه الى السلم فلم يتنازل الجزار الى اجابته ، فارسل اليه رسولاً ثانياً فقتله الجزار فحنق نابوليون ونقدم برجاله البالغ عددهم عشرة آلاف مقاتل الى غزة ، وهزم من رجال الجزار اربعة آلاف فارس ، واسفرت وقعة يافا عن قتل ثلاثة آلاف من الجنود التركية ، ودخلت رجال نابوليون مدينة يافا ، وتصرفت بما عثرت عليه من مال ومتاع ، وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي سمح بها نابوليون لرجاله بالتصرف والتمتع بمال المغلوب واملاكه . وقال الشهابي : ان العساكر الفرنساوية حاصرت يافا ثلاثة ايام وملكوها بالسيف ، وكان عسكر المسلمين فيها ينيف على اثني عشر الفاً فما سلم منه الا القليل ، وقتل كثير من النساء والاولاد حتى جرى الدم في اسواق يافا ، وارسلت دمشق عشرين الف جندي الى عكا فالتقاها الف جندي من الفرنج وكسروها وقتلوا منها مقتلة عظيمة .

ولما جاءت الاخبار الى دمشق بان عسكر الجزار وعسكر الانكليز قتلوا من جند نابوليون ثلاثة آلاف جندي زينت دمشق وضربت المدافع من قلعتها ، وقد اصيبت البلاد التي وقعت فيها تلك الوقائع وما اليها بالخراب ، ومن اهم خرابها تسلط الجند على ضعاف الرعايا فقد نهبت العساكر التي ذهبت من دمشق لمقاتلة الفرنسيس (١٢١٣) مدينة صفد وعملوا المنكرات اثناء طريقهم . فاصيبت فلسطين هذه المرة بغوائل كانت سواحل

فينيقية واعمالها تصاب بمثلها او اكثر منها في القرنين الماضيين . ولقد اصبحت مثل هذه الوقائع في هذا الجزء من اقاليم الشام اي في اللبنانين الغربي والشرقي وماجاورهما من الامور العادية ، وما ذلك الا لقيام امثال بني حمادة وبني معن وبني الحرفوش وبني شهاب ممن كانوا يحاولون ان يظهروا بمظهر كبار الامراء وهم صغار بمواقعهم ونقص تربيتهم الحربية وضعف اخلاقهم وقلة معارفهم ، فكانوا بمقاومتهم بعض المقاومة لعمال الدولة من الترك يخربون ديارهم ، ويهلكون من اخذوا على انفسهم حمايتهم من ضعاف السكان .

* * *

حال الشام بعد رحيل نابوليون عنه | كان يظن بعد رحيل بونابرت ومعاونة الانكليز للدولة العثمانية على اخراجه من الشام ، ان الدولة تبدل شيئاً من اصول ادارتها وترجع عن استسلامها لعمالها الذين يجبون الجبايات و يرضونها بجزء منها و يحتفظون بالباقي لانفسهم . ولكن الاحوال بقيت بحالها ، وظن الجزار نفسه انه هو الذي دفع جيش نابوليون عن الشام ، فعاد يمثل مظالمه ويحمل على الناس مغارمه ، ومظالمه لاحقة بالمسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء وجنونه فنون ربما كان فيه شيء من المعقول وذروٌ من جودة الادارة ولكن الناس في حكمه كما قيل :

ذلَّ من يغبط الذليل بعيش رب عيش اخف منه الحمام

ولم يكف فلسطين ما حلَّ بها من ظلم الجزار ثم وقائع بونابرت حتى قام محمد باشا ابوالمرق يسومها العسف والخسف ، يجور على اهل بيت المقدس ومدينة الخليل وغزة والرملة ولد مما لم يقع مثله ، حتى اضطر السادات الاشراف الابرياء لكثرة مظالمه ان يبيعوا اولادهم كما تباع العبيد والجواري على ما ذكر ذلك احمد باشا الجزار في كتاب صدر عنه سنة ١٢١٧ الى وكيله في دمشق .

ومن احداث هذا الدور نهب العسكر الدمشقي (١٢١٤) جميع القرى في طريقه الى غزير في لبنان ، وتفرقت عساكر الدولة في ضياع كسروان ونهبوا كل ما وجدوه وذلك للضرب على ايدي الامير بشير الذي كان على ما يظهر يسرُّ حسواً في ارتغاء وتحدثه نفسه ان يأكل الخراج ، ولذلك قاتله جيش الدولة (١٢١٥) مرة أخرى

لماجاء الى نواحي بعبدا في لبنان وقتل من ادركه في المتن ، ورجع الامير بشير الى عاريا وكان عسكر الدولة احرق عدة بيوت من بعبدا والحدث وسبى النساء وقتل العجائز والاولاد فاجتمع معه اربعة وخمسون رأساً من القتلى فارسلوها الى الجزار ونهبوا اموالاً ومواشي واحرقوا عاريا . وذهب والي دمشق سنة ١٢١٧ الى حماة وفتحها بالسيف وبالغ في الظلم حتى فر غالب اهالي حماة عن بلدهم اتقاء شره ، وتفرقوا في دمشق وحلب وطرابلس واصبحت حماة كالقرية لقلة سكانها .

قال ابن آق بيق : وفي سنة ١٢١٧ شغلت دمشق بالظلم واكرامية الباشا من البلاد واشتغل حسن اغا بالظلم في دمشق وارهاق القرى بالطروحة والاكراميات وفرض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق قال : ولما خرج عبد الله باشا العظم من دمشق سنة ١٢١٨ قاصداً الى طرابلس ليحارب اهلها وضرب عسكره بعض القرى ونهبها وظلوا على هذا التخريب حتى بلغوا طرابلس فحاصرها وخرج اهلها هائمين على وجوههم ووقع القتال بين عسكره وعسكر المتسلم وقتل من الفريقين خلق كثير . وكان احمد باشا الجزار يرسل النجدات الى عبد الله باشا العظم .

وقال ايضاً : ان الجزار كان يبعث ويطلب من الاغنياء اموالاً طائلة يأخذها منهم بعد الحبس والضرب واشتغل الدمشقيون بالهواجس والوساوس ، وبقي الطرح على جميع الاصناف واغلقت الدكاكين وبات الناس في كرب والعسكر يحيط بالبلد ، والاكراد والشيخ طه الكردي وجنوده يعذبون الخلق أنواع العذاب حتى يقروا لهم بالاموال ، والطرح على الخلق اشكال وضروب من بن وتنباك والاجه وحرير وشاشات وزنانير وبيوت وخانات وبساتين وعتامنة ووظائف وغير ذلك ، وظهر في دار ابن عقيل وكيل الجزار بدمشق طمائر ذهب قدرت بنحو خمسمائة كيس . ولم يكن يمر يوم دون ان يقبض على اربعة او خمسة من ارباب الوجاهة والثروة يسجنون في سجن القلعة ويعذبهم الاكراد الموفدون من قبل الجزار بالكماشات والحديد والعصي الى ان يشرف المعذبون على الموت ويشتط العمال في طلب المال من المصادرين ويطوفون بهم في المدينة ، فيضطرون الى بيع جميع ما يملكون ليكف عنهم ، ووصلت الحال

يالاغنياء الي التسوّل ، وكان قتل النفوس على الاكثر في سبيل اخذ المال مشروعًا كان او غير مشروع . فقد حدثت فتنة طفيفة بين ملتزم اموال بلادبشارة ، فارسل الجزار على العصاة عسكراً قتلوا منهم ما ينيف على ثلثمائة رجل واسروا عدة ، وارسلوهم الى عكا جعلوا على الاوتاد ثم اخذ الجزار من البلاد اموالاً جزيلة .

ومن الحوادث في أيام عبد الله باشا العظم بدمشق ان القبوقول قصدوا إثارة فتنة (١٢١٤) فأغلق اغا القلعة بابها ، وحاصره الباشا فاضطروا الى التسليم بعد مدة ، فقتل اغا القلعة وهمدت الفتنة ، ثم سار عبد الله باشا لمحاربة مصطفى بربر متسلم طرابلس بنفسه وحاصر قلعتها بشدة ، وطال الامر فالتجأ بربر الى الجزار فسكت ولم يجبه لانه كان يفاوض الاستانة لاخذ ولاية دمشق ، وبينا الحال مشتدة على بربر وعبد الله باشا يحاصره بعسكره أرسل الجزار الى وكيله بدمشق محمد بن عقيل الفي جندي وأمره أن يقبض على عبد الرحمن افندي المرادي وحسن آغا دفتردار المتسلم وابن سبج متسلم حمص ويقتلهم حالاً ونادوا باسم الجزار والياً . فبلغ ذلك عبد الله باشا وعلم ان الدولة متغيرة عليه ، فخاف كثيراً وهام على وجهه في البادية يختبيء عند العرب . أما بربر طرابلس فرضي عنه الجزار وأقره متسلماً على بلده ، ثم لامت الدولة الجزار على ما أتاه من قتل ابن المرادي وقتله له كما يقتل العامة فتخلص الجزار مما أتاه والقى تبعة قتله على وكيله ابن عقيل وقطعه إرباً مع ان الجزار هو الذي أمره خطاً بقتله .

* * *

مساويء احكام الجزار توفي الجزار سنة ١٢١٩ (١٨٠٤) بعد ان ضرب البلاد وأهلها ضربةً لم تصب بمثلها منذ أزمان . أصله بشناقي من جماعة علي بك امير مصر هرب الى الشام لما قُتل مولاه ، وأقام يختلف الى لبنان فاطلع على أحواله وأحوال البلاد التي كانت تحت حكم الظاهر عمر من بلاد الجليل . ثم توجه الى الاستانة فعين وزيراً على صيدا اولاً وحصّن عكا ورفع عن بيروت حكم بيت شهاب وضبط أملاكهم . وكان احمد البشناقي هذا جزاراً سفاكاً لانه لما كان كاشف البحيرة في مصر عهد اليه الانتقام من عربها لقتلهم عبد الله بك من مماليك

مصر فأسرف في القتل فلقب بالجزار . ولا غرو فالدم البشري في نظر احمد باشا الجزار ، كدم الخرفان في نظر القصاب والجزار . هاج المماليك على الجزار مرة يريدون قتله فيما يقال ولولا حذره الشديد لقتل ، وتحصنوا في برج داخل عكا فطلبوا الامان ، ولما علم ان خيانتهم كانت بالاتفاق مع بعض سراريه غضب عليهم جميعاً وخنقهم بالماء الحار . حج الجزار مرة بالناس فلما عاد ترامى الى سمعه اتهام مماليكه بحريمه فسخط عليهن ، ولم يلبث ان أرسل المماليك في حملة على لبنان واوقد ناراً كبيرة في داره ، فكان خصيانه يأتونه بنسوته واحدة بعد أُخرى فيقبض بنفسه على عنق الواحدة ويطرحها في النار على وجهها ، ويدوس على ظهرها ويضغط على رأسها ، حتى يتم شيُّها في النار وتهلك فيرفعها ويحضر غيرها ، وعلى هذه الصورة الشنعاء أَهلك الجزار سبعاً وثلاثين امرأَة ولم تنجُ غير فتاة في الثامنة من عمرها .

كان الجزار يقتل الكبير والصغير من وزراء وافندية وعلماء واغوات ، ويرضي السلطان بالمال ويداريه فيتغاضى عنه ، وكان اذا عامل احد المغضوب عليهم بالرفق وعزف عن قتله يجذم انفه ، ثم يصلم اذنه اليمنى ثم يقلع عينه اليمنى ولو كان من خواص خدامه . وكم من بيت خربه بسلب ماله ظلماً ، وكم من رجل قتله بعد ان صادره ، وكان لا ذمة له ولا زمام ، خدمه رجال من بيوت معروفة فلما بدا له قتلهم وصادرهم واختلق لهم ذنوباً والقاهم في البحر . ولقد اكرمه كل الاكرام الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان لما كان الجزار صعلوكاً متشرداً لاول امره في بر الشام وعاونه لما اصبح والياً ، فكانت النتيجة ان شنقه والقاه ثلاثة ايام معلقاً ، ولطالما اخذ النوتية والركاب في مراكب كانت قادمة من مصر قبل مجيء الفرنسيس اليها ، وقتل جميع من فيها من ابناء مصر او الشام وصادر جميع ما يحملون من البضائع .

* * *

تفنن الجزار في إهراق الدماء وحكم المؤرخين عليه } وكان من عادة الجزار بعد ان يصادر المصادرين ان يقتلهم كما فعل سنة ١٢٠٥ فقبض في دمشق على اولاد السيد عبيد وأولاده ووضعهم في السجن واخذ منهم ستين

الف قرش ففروا الى حلب حالاً ثم قبض على ثلاثين من اتباعه وسجنهم في القلعة ففدوا انفسهم بمائتين وخمسين الف قرش ثم قتلهم ليلاً ، وقبض على خازن امواله واسبابه ونفاه الى مصر ، وقبض على مفتي عكا وامامها وعلى رئيس مينائها فقتلهم صبراً . وظلم جميع اكابر دمشق وسلب اموالهم .

وخرج ذات يوم في عكا قبل الشمس الى باب السراي وامر باغلاق ابواب المدينة وقبض على كثيرين من العمال والكتاب والاهالي فسجنهم ، وكانوا مائتين وثلاثين انساناً وقبض على النواب وسجنهم ، وكان كلما تقدم اليه انسان يكشف رأسه وينظر في وجهه فالذي يقول فيه نيشان يرجعونه الى السجن ، والذي يقول ما فيه نيشان يطلق ، ثم انه أحضر الفعلة ايضاً وصنع بهم كذلك وقبض منهم جملة وأحضر التجار وأرباب الصنائع والحمالين وعلى هذا المنوال عامل الجميع فامتلأت السجون ، ومن الغد أحضر المغاربة وأمر ان يخرجوا السجناء كلهم خارج البلد ويقتلوا الجميع ففعلوا ما أمرهم به قال مدّون وقائعه : وكان يوماً عصيباً لم تكن تسمع فيه الا صراخ المقتولين ظلماً وعويلهم وأنينهم ، وبقي القتلى كالغنم مطروحين خارج البلد ، ثم أمر ان ينادي المنادي في شوارع عكا ليخرج أهل القتلى لدفن موتاهم ، وأشار الى ان كل امرأة ترفع صوتها تُقتل حالاً ، فخرج الناس ودفنوا القتلى وأصبح الناس في كرب عظيم وخوف زائد . ثم ابتدأ يرسل جنوده يقبضون على الفلاحين ومشايخ البلاد وأصحاب المقاطعات فمنهم من يقتله ومنهم من يصلم أذنه ويجدع انفه ويطلقهم .

ولم يذكر المؤرخون علة استرسال الجزار في قتل الناس على هذه الصورة من غير سبب ولعله أصيب بمسٍ من الجنون او ان جنونه أطبق هذه المرة فأزهق الارواح ، وان امتاز في جميع أدوار حياته بالسفك والفتك . وذكر المؤرخون ان الجزار قبيل وفاته أمر أن يغرقوا من كان في سجنه في البحر فنفذ أمره . وفي التاريخ العام ان الجزار أوقد جذوة التعصب بين المسلمين في بيروت وأغراهم بقتل الموارنة حتى يضمن حكمه على بيروت . ولم يكن يُعرف فيما اذا كان الجزار خادماً مخلصاً للسلطان او عاصياً

وقحاً . وكان كثيراً ما تجيئه رسل جاويشية (١) من الاستانة تحمل اليه بعض الاوامر فيجز رأس القادم و يبعث به الى ديوان الاستانة ، وهناك يغدق الذهب على الوزراء والخصيان ونساء الحرم السلطاني . وكثيراً ما كان يقول وهو في حال السكر للمسيو دي توليس : السلطان كالبنات يعطي نفسه لمن يعطيه اكثر ، فاذا حاول ان يقاومني فأنا ارده الى الصواب بان أهيج عليه مصر والشام وآسيا الصغرى ، وازحف على الاستانة في جيش « القابسز » واكون قادراً مثل لويس الكبير امبراطور فرنسا .

وقد وصف مشاقة الجزار وصفاً معقولاً قال فيه : انه كان داهيةذابأس وحنكة واسعة ، سلمت اليه الدولة ادارة شؤون اياالتها وعولت عليه في اخضاع الشام وضمه تحت جناحها ، على طريقة الغدر والخداع والقاء الفتن والحروب الاهلية بين امراء البلاد والمشايخ الذين كانوا يحكمون الرعية بالجور والعسف و يسومونهم الذل انواعاً والظلم اشكالاً ، وشريعة الرجل منهم ارادته السخيفة ، والحاكم يشنق و يقتل و يشوه اخلاق الشعب ، وكأن الحال قيضت لهم رجلاً كالجزار ينتقم منهم ، وكان هؤلاء العتاة لاهين بالمنازعات العائلية والحروب الاهلية يكرهون العدل و يعشقون الظلم ، لا يرحمون ضعيفاً ولا قريباً ، ولم تكن معاملة الجزار للامير يوسف اقسى من معاملة هذا الامير لاخوانه وانسبائه وان مالحقه من الجزار هو مما يستحقه . وقس على الامير بقية المشايخ والامراء الذين كانوا يستبيحون اموال الرعية واعراضهم في سبيل اهوائهم .

قال : ان الجزار ظلم ولكنه خدم الدولة والشعب ، وعادت خدماته على الدولة بالنفع فاخضع البلاد لشوكتها فاصبحت لها طائعة ، وردعنها بثباته امام نابوليون خطراً كان يهددها يوم حصار عكا ، وافاد الرعية بان ازال عنهم ضغط المشايخ والامراء المستبدين فكان جوره بالنسبة لجور الامراء والمشايخ قبله اقل وطأة . ولما جاءهم وضع حداً لظلمهم وزعزع سلطتهم وارغم انوفهم واطلق الفلاح من عقالهم . وعلى الجملة فانه

(١) الجاويشية في دولة آل عثمان عبارة عن رجل يركب امام السلطان وفي يده الدبوس ورتبته عظيمة لانه يخرج من الجاويشية الى ان يكون سنجقاً صاحب طبل وعلم ولواء (البوربني) .

عمل بما يوافق عصره و ينطبق على ابنائه ، فبموته سري عمن كان غضبه يهددهم و يوشك ان يوقع بهم . وقال : ان الجزار على قبح اعماله حفظ المساواة بين الرعية مع تفرق مذاهبها ، فيحبس علماء المسلمين وقسوس النصارى وحاخامي اليهود وعقال الدروز سوية ، وهكذا في اجراء العذابات الجهنمية عليهم لا يفرق بينهم ، واكبر ما يحصى عليهم من الذنوب التوقف عن اداء الاموال التي يطلبها منهم وربما نشأ تلكوءهم من عجزهم .

وقال : ان الجزار كان يتأخر عن دفع الاموال الواجب عليه اداؤها للسلطنة ويعتذر عن الدفع بانه محتاج لتعيين العساكر لادخال لبنان في الطاعة ، فسئمت الدولة من تعللاته الطويلة وكتبوا له ان المدة طالت و يظهر انك غير قادر على تمهيده ، فلذلك صممت الدولة على ارسال وزير مقتدر بعساكر كافية لاخضاع لبنان لسطوتها فكان جوابه انني بعد ايام قليلة ان شاء الله ابشركم بفتحه لانه ظهر عليهم الضعف عن المقاومة ، وقد منعنا وصول الذخائر اليهم من البقاع والسواحل وهم لا يقدرون على العيش بدونها ، لان اراضي الجبل قليلة بالنسبة لسكانه . وبعد مدة وجيزة كتب للدولة بشارة كاذبة مع الساعي بانه فتح الجبل فوجد فيه من السكان النصارى مائة وعشرين الف رجل ومن الدروز ستين الفًا وثلاثين الفًا من الشيعة ومثلهم من السنة فاتحفته الدولة بسيف مجوهر ومدحته على همته ، وأرسلت اليه بعد مدة أوراق جزية النصارى المعتادة وزادوا عليها مائة وعشرين الف ورقة برسم نصارى لبنان ، فسقط في يد الجزار واستدعى المعلم حاييم فارحي مدير خزانته واستطلعه طلع رأيه في هذه القضية فاجابه يجب الآن دفع هذه القيمة من خزانتك لما عرضته للدولة عن فتح الجبل وعن عدد النصارى فيه . ثم ننظر في هذه الزيادة فدفع ثمن هذه الاوراق . وبعد اشهر أرسل بشارة للدولة بان نصارى الجبل دخلوا في الاسلام . ولما دخلت السنة الثانية أرسلت الدولة للجزار اوراق جزية لبنان كالسنة الماضية فارجع الزيادة بقوله : ان نصارى لبنان نقدم العرض عن دخولهم في الاسلام وارتفعت عنهم الجرية شرعًا . قال : وهكذا كانت امور الدولة في ذاك العهد تجري بلا تحقيق في صحة ما يعرضه عليها مأموروها .

ولما هلك الجزار ارسلت الدولة راغب افندي الذي صار واليًا على حلب بعد

بعدذلك لضبط متروكاته ، وكانت قوانين الدولة يومئذ تقضي بان يؤخذ كل ما يخلفه مستخدموها من املاك واموال وامتعة ، فحررت التركة مع سندات الاموال التي كان يحررها على امراء البلاد ومشايخها عدا الاموال الاميرية ، وذلك حين توليتهم وعزلهم قبل استحقاقها ، فحسبت هذه الديون الظالمة من حقوق الدولة ، ولما رأوا انها وافرة وانه من المتعذر تحصيلها جعلوها مقسطة على رعايا بلاد اولئك الامراء والمشايخ على عدة سنين ، فكان لبنان يدفع المال مضاعفاً ، فالمال الواحد يبلغ اربعمائة كيس وكان يجبى من لبنان مال الجوالي على النصارى ومال فريضة على الدروز ، فكان القسط الواجب على اللبنانيين اداؤه من مطلوبات الجزار يبلغ مقدار ستة اموال اميرية وصار الاهالي يدفعون كل سنة مالين ٠

ولم يعلم ما خلف الجزار من الاموال بعد حكم تسع وعشرين سنة ولكن الذي قاله المؤرخون ان احد رجاله الشيخ طه الكردي اخذ الف كيس وارسلت الدولة رجلين من الاستانة للبحث عن موجوده ، فما رأوا شيئاً مهماً غير ما كان ارسله اسمعيل باشا للدولة مع القبطان باشي في اول الامر من مال وتحف ، يقال انها بلغت ثمانية آلاف كيس بيد ان اسمعيل باشا صرف اموالاً كثيرة على العساكر والاغوات ، وعلى كل فهي قليلة بالنسبة لطول عهده ، والغالب انه كان معتدلاً في اخذ المال غير اعتداله في سفك دماء الرجال ، او انه ادخر كميات من الذهب غير ما عثر عليه منها فضاعت عند وكلائه وخواصه ٠

تناولت قاعدة المبالغة في الثروة والفقر ، والظلم والعدل ، والعلم والجهل ، والقبح والجمال ، اعمال الجزار ايضاً ، ولو كان في قلبه بعض رحمة وعزوف عن سفك الدم الحرام الا بما تقضي به شريعة العقل والنقل ، لعد مصلحاً لعصره قياساً مع الصفات التي اوردها مشاقة ٠ لاجرم ان التبعة في بعض اعماله تعود على عماله ورجاله ، واكثرهم من ابناء البلاد الذين افسدتهم تلك العصور وباؤا بالنقص والقصور

✲ ✲ ✲

المتغلبة على الاحكام بعد الجزار } خرج الشام بعد هلاك الجزار مقلم الاظفار ، معروق العظام بل مقطع الاوصال ، سيئ الحال ، واحدث

موته فراغاً ففقدت به الدولة اعظم قوة تمثلها في هذه الديار ونفس بهلاكه خناق ارباب المقاطعات المتغلبين من الاعيان وكان في سجن الجزار في عكا رجل يقال له اسماعيل باشا ارناؤطي الاصل ، واصله من جملة عساكر الوزير الاعظم حين حضر الى مصر لاستخلاص مصر من الفرنساويين . ولما قام الفرنج على المسلمين واخرجوهم من مصر وتشتت العساكر في تلك الاقطار قصد اسماعيل باشا احمد باشا الجزار ، فدعاه الى فتح يافا فظهرت منه خيانة مع محمد باشا ابو المرق فقبض عليه الجزار وسجنه وعذبه ، كما كان يفعل بمن يقبض عليه وبقي في سجن الجزار الى ان هلك هذا ، فخرج اسماعيل باشا من محبسه وجعل مكان الجزار فاستولى على متروكاته حتى اضطرت الدولة الى قتاله لعصيانه في قلعة عكا وارسلت عليه حملة ودام الحصار اربعة اشهر حتى أُخذ وقتل فاستراحت الامة من احمد الجزار ومن خلفه

ان السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع

وكان اهل وادي التيم عصوا فارسل عليهم اسمعيل باشا جنداً كبس القرى وقتلوا زهاء مائتي قتيل واخذوا مائتي اسير وكبس الامير بشير جنبلاط بعساكر الدروز بعض قرى عكا وقتل من عسكر ابراهيم باشا جماعة ، وابراهيم باشا هو ابراهيم باشا الحلبي الذي نصبته الدولة مرة ثانية على دمشق وكان والياً على حلب . وكان حدث بموت الجزار اضطراب وخلت دمشق من الاحكام ، فمهد الامور وعهدت اليه الدولة مع ولاية دمشق بصيدا وطرابلس واوعزت الى الامير بشير الشهابي حاكم الجبل ان يكون في طاعة ابراهيم باشا وعوناً له على اصلاح حال صيدا والساحل ، فصدع والي الجبل بالامر لانه كان داهية يراعي الدولة ولا يتأخر عن قضاء لباناتها ، ولا سيما الخراج والجزية يؤديهما في اوقاتها .

حاولت الدولة غير مرة القبض على مصطفى بربر متسلم طرابلس ولكنه ظلَّ في منصبه يسوم الناس مظالمه ، وما لبث خصمه اللدود عبد الله باشا العظم ان تولى دمشق للمرة الثالثة بعد ان كانت الدولة غضبت عليه بوشايات الجزار وشردته في البادية ولكنه دعاها الى الرضى عنه وداواها بما تداوى به في العادة باكياس من الذهب . وخرج عبد الله باشا من دمشق بالمحمل (١٢٢٠) فحدثت بينه وبين الوهابيين امور

عظيمة ، وكانوا قد استولوا على الحجاز وتقدموا الى ارض الشام فهلك غالب عسكره وانتهب الحاج .

عين سليمان باشا الكرجي من مماليك الجزار واليًا على عكا فاقام حاكماً على يافا وعلى غزة محمد اغا ابو نبوت احد مماليك الجزار ، وبقي حاكمها الى ان طمع بالاستقلال فيها ، وعندما تحقق سليمان باشا ذلك ركب عليه بالعسكر فهرب الى مصر ثم الى الاستانة وشفع فيه الشافعون فنال رتبة الوزارة . وسليمان باشا هو الذي اراد ان يرفع بعض المظالم عن الرعايا ويحملها على الاجانب كأن يبيع الغلات والقطن والزيت من الاجانب فقط ، وفي نفس عكا خاصة تبتاع الحكومة ما يفضل عن عوز الاهلين وتخزنه في مخازن لها تبيعه من التجار الاجانب القادمين في مراكبهم بالاسعار التي تريدها .

ومن الاحداث في سنة ١٢٢١ ما حدث من فتنة بين عسكر الوطنيين (اليرلية) و (القبوقول) في دمشق ، فحاصرت القلعة وأُغلقت المدينة كلها ، ووضعت المتاريس داخل المدينة ، وجرت بين العسكرين حرب المتاريس في الأَزقة والشوارع والسطوح والاسواق والمآذن فغلب اليرلية القبوقول وكسروهم وهزموهم الى مأذنة الشحم ثم ارتدوا عليهم واخذوا طالع الفضة ، ونهب الخلق تلك الجهة كلها ، وراح القبوقول مكسورين ثم عادوا وكسروا اليرلية عند الشيخ عمود فنال الفريقان احدهما من الآخر على غير طائل . ولم يقف شقاء دمشق عند حد التقاتل بين الجند بل أسرف الوالي كنج يوسف باشا (١٢٢٢) في ظلم الناس وأراد ستر ذنوبه فأَرسل الى الدولة الف كيس من المال لانعامها عليه بإِمارة الحج وإِيالة طرابلس مع ولاية دمشق وذهب الى بلاد نابلس وقهر أهلها وجبى منهم أموالاً عظيمة ثم ذهب الى بلاد النصير بين وقاتلهم وانتصر عليهم وسبي نساءهم وأولادهم ، وكان خيرهم بين الدخول في الاسلام والخروج من بلادهم فامتنعوا وحاربوا وخذلوا ، وبيعت نساؤهم وأولادهم ، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الاسلام فعفا عنهم وتركهم في بلادهم بعد ان حار بهم شهرين ونهب قراهم ، ثم رحل الى طرابلس ليقبض على مصطفى بربر متسلمها ، فتحصن هذا في القلعة فوقع القتال ، وكان الحصار احد عشر شهراً وطرابلس خلال هذه المدة خالية من سكانها وقد جمعوا في الخانات سلعهم ومتاعهم وماعونهم ، ثم دخل يوسف باشا البلد

وأطلق لعسكره الاكراد والارناؤد وغيرهم النهب فلم يبقوا على شيء فيها وأنزل عسكره في الدور فخربوها باخذ خشبها للدفء والوقود . وتوسط سليمان باشا والي صيدا عند الدولة فعفت عن مصطفى بربر وتسلم يوسف باشا القلعة وأصل مصطفى بربر من قرية القلمون من عمل طرابلس وكان لاول امره من خدام الامير حسن اخي الامير بشير فتوصل بذكائه وشجاعته الى المناصب العالية وحاز اعتبار الوزراء وخشية الرعية .

لولا زمان خؤن في تصرفه ودولة ظلمت ما كنت انسانا

* * *

قتل سليم الثالث ومصطفى الرابع وتولي محمود الثاني } وخلع في غضون سنة ١٢٢١ السلطان سليم الثالث بيد الانكشارية وقتل لانه أراد ان ينفذ خطة في إصلاح الإدارة على الرغم من حروبه مع روسيا والنمسا وغيرهما من دول الغرب ، وينشيء عسكراً جديداً يستعيض به عن الانكشارية ، وكان هذا السلطان واسع النظر لكن الدهر خانه فلم يقدر ان يطبق اصلاحه ، وكان أراد ان يخفق علم التمدن الاوربي فوق بلاده « فاستدعى اليه من فرنسا ضباطاً ومهندسين ورجالاً لهم اضطلاع عظيم في فن الصناعة فبعث اليه العدد الكثير من ذلك » وتولى مكانه السلطان مصطفى الرابع فألغى جميع خطط الاصلاح ، ولكنه قتل كما قتل سلفه السلطان سليم ولم يطل عهده اكثر من اربعة عشر شهراً ، وخلفه السلطان محمود الثاني (١٢٢٣) متشبعاً بروح إصلاح السلطان سليم الثالث ، يريد اخراج الدولة من سباتها ، ومعتقداً انه لا سبيل الى نجاتها الا بايجاد قوة لها من غير عسكر الانكشارية الذين عراهم الانحلال منذ مئة سنة ، وأصبحوا يقتلون الملوك والوزراء ويخونون الدولة في ساحات الوغى ، و يعبثون بشغبهم ومؤامراتهم بكيان الدولة ، وذاهباً الى ان من جملة الاسباب في بقاء الدولة ان يقلد الفرنج في مناحيهم وعاداتهم . وهو الذي لبس الطربوش والالبسة الغربية . واخذ يقيم الحفلات والمراقص وحفلات السماع على الطريقة الاوربية .

وفي سنة ١٢٢٣ مرَّ ببلاد النصيرية طبيب انكليزي فقتله الرعاع هناك ،

فصدرت الاوامر بالقبض على القتلة فأرسل سليمان باشا والي صيدا عسكراً بزعامة مصطفى بربر فاكتسح بلادهم وقتل سبعين رجلاً من كبارهم ، وحشى رؤوسهم تبناً وبعث بها الى الباشا ، ثم امتنع النصيرية عن اداء المال فأرسل عليهم مصطفى بربر فنكل بهم وقتل خمسة واربعين من رجالاتهم فأخلدوا الى الطاعة . وكان من مقتل الطبيب وسيلة الى الغارة على ضعاف الرعايا في زمن اصبح فيه شن الغارات صناعة يحترفها أناس مخصوصون في خدمة متغلب من المتغلبين . واذا ظلمت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك .

وفي سنة ١٢٢٤ قوي الاختلاف بين والي دمشق وابن الشهابي وابن جنبلاط وكانا استوليا بالقوة على املاك عظيمة من الفلاحين في البقاع فلم يزرع احد في تلك الارجاء . وكان الوهابيون جماعة ابن سعود قد استولوا خلال هذه المدة على الحجاز واخذوا يجاذبون عمال الدولة حبل السلطة في الجهات التي بين الحجاز والشام . وذكر بعض المؤرخين واظنه بالغ في روايته انهم ارتكبوا في بلاد حوران سنة ١٢٢٥ أفعالاً بربرية من سبي النساء وقتل الاطفال ونهب الاموال واحراق المنازل والغلال حتى قيل انهم أتلفوا في تلك البلاد نحو ثلاثة آلاف الف درهم . وساق والي دمشق يوسف باشا حملة على مصطفى بربر متسلم طرابلس واستنجد بالامير بشير الشهابي حاكم لبنان فلم ينجده معتذراً بفتن النصيرية والاسماعيلية وان الجند اللبناني مضطر الى ان يرابط في الجبل فنال والي دمشق من متغلب طرابلس بالاجاعة وطول الحصار .

* * *

فتنة كنج يوسف باشا

صدر الامر السلطاني في سنة ١٢٢٥ الى سليمان باشا والي صيدا ان يقتل والي دمشق كنج يوسف باشا ويصادر امواله . لان يوسف باشا عجز عن سوق قوة لقتال ابن سعود ورأى كما قال جودت ، اشتغال الدولة بشؤونها كلها الداخلية والخارجية فرصة لادخار المال ، واكثر من الاعتداء على الاهلين وظلمهم ، واختلس زيادة على هذا اموالاً كثيرة من مرتبات الحج . ومما قاله السلطان لوالي صيدا في امره الصادر بهذا الشأن : اني آمل منك صداقة وحسن خدمة لانك تربية الغازي الجزار احمد باشا حتى لا يقال

ان هذا راح ولم يخلف انساناً ! . ومعنى ذلك ان الدولة كانت راضية عن الجزار اذا ذكرته تذكره بانه مثال رجالها الأُمناء ، وما ذلك الا لانه كان يؤدي لها الخراج في الجملة ويقاتل اعداءها و يرشي جماعة الاستانة بالمال على الدوام . اما سوء سيرته في الرعية وظلمهم وتقتيلهم فهذا لا ينقص بزعمها قدر الرجل ، بل يجب على العمال ان يتقيلوا مثاله .

ولما جاء سليمان باشا في جند من الدروز وغيرهم لاخذ دمشق من كنج يوسف باشا تعصب الدمشقيون لواليهم القديم ، ووقع القتال في ارض الجديدة وداريا من ادنى قرى وادي العجم ، فانهزم الدمشقيون وظفر العسكر اللبناني والعكاوي وقتل كثير من الدمشقيين . وفي هذه الوقعة يقول المعلم نقولا الترك في مدح الامير بشير :

وخاض غمار الحرب تحمل خلفه ثلاثة آلاف تصول وتخطر
فلاقته فرسان المنايا مغيرة تنادي على الباغين الله اكبر
وثار الوغى والسيف قد قارع القنا وغطى الفريقين الغبار المكدر
فولى على اعقابه كل ظالم وفي سهل داريا الاعادي تقهقروا
وكم من سراياهم ترامت جماجم كاوراق اشجار على الارض تنثر

وكان والي دمشق القديم قد جمع امواله فبلغت كما قيل اثني عشر صندوقاً من الذهب وعشرة احمال من الفضة ، فتعرض بعض الجند لجماعته اثناء خروجهم ليلاً من باب الهواء في السراي ، فأفلت هو ووقع المال في ايدي الجند والعامة ، فتقاسموه واغتنى أُناس من هذه الغارة على أموال الوالي التي سببت نكبته ، وجمعها من أموال الدولة ودماء الامة ، وتوجه يوسف باشا كنج الى مصر فتوسط له محمد علي الكبير بالعفو ثم بعثت الدولة بعض رجالها فضبطوا ما خلفه الوالي السابق من الاموال في دمشق بعد ان نهب ما نهب ، فكانت نحو ثمانية آلاف كيس من صافي الصابون وبعض اشياء كان يتجر بها . من يزرع الشوك لا يحصد به عنباً .

✲ ✲ ✲

سليمان باشا وامراء راشيا وكوائن حلب — وعدَّ مشاقة من حسنات سليمان باشا ضمه اقليم البلان الى ولاية دمشق بعد ان كان مستقلاً

تحت لواء امراء راشيا الشهابيين قال: وذلك لان حكام ذلك الاقليم مستبدون وكانت الاهالي تقاسي عذاباً وجوراً لا يطاقان ، والامراء يدفعون عن الاقليم مالاً معلوماً لحفظ استقلالهم به و براشيا معاً ، والحكومة مشطورة مع الاهالي الى شطرين حزب يناصر الامير فندي وآخر الامير منصوراً ، وكان كل واحد منهما يراقب الآخر ويترصد الفرص ليفتك به ، فيحتاج كل منهما بالطبع الى عصابة ومال وحاشية . وقد أثنى مشاقة على سليمان باشا وقال : انه خدم الدولة والرعية خمسة عشر عاماً بالعدل والامانة ، وكان الاسف عليه عاماً حتى شعرت الدولة بفقده (١٨١٩ م) وقال : لما سلبت بلاد بشارة من ايدي مشايخها كثرت التعديات واضطرت حكومة صيدا الى وضع عساكر كثيرة ، فلما جاء سليمان باشا الكرجي والياً على عكا اقتصر على مائتي جندي من المشاة وخمسمائة فارس واربعمائة خيال من الهوارة يتبعهم مشاة ضبطية في باب السراي وجماعة المدفعين على اسوار المدينة وأقام في كل بلدة من المدفعين والضابطة كفايتها .

وسليمان باشا من مماليك الجزار اشترك مع سليم باشا في حرب الجزار ولما افسد هذا العسكر على باب عكا هرب سليم باشا وسليمان باشا ، الا ان هذا عاد الى مولاه تائباً فوجه عليه متسلمية صيدا . وكان سليمان باشا هذا لا يسمع وشاية و يحمي من يعينهم من جماعته ولا يسمع فيهم كلاماً ، واذا عين احدهم لا يرفعه مهما وقعت عليه من الشكاوي ، واذا توفي احد خدامه مسلماً كان او مسيحياً يضع ولده مكانه ان كان له ولد و يجري عليه رزقه وان كان لا ولد له يدرّ راتباً على عياله ، وكان يعطي كل واحد من خدام بابه على حسب حاله من القرش الى العشرة قروش كل يوم ، وهذا لأكبر ما يكون من ارباب الوظائف . قال العورا مدون وقائعه : وكان عنده لما مات ٢٢ «دعبولة» في كل دعبولة الف كيس ريال فرنسا (كل ريال باربعة قروش) عدا ما كان تحت يد صرافه حاييم واخيه موسى وهو يربو على اثني عشر الف كيس وعدا الديون التي للخزينة على تجار عكا وبيروت وما عند حريمه من الجواهر والتحف وخلا ما عنده من الغلات والكراع .

هذا الرجل الذي خلف هذه الثروة وما ذلك بالامر المستنكر على ولاة عصره ،

كان يتبجح بكلام العادلين والمصلحين مع افراد من حاشيته ومن يغشون مجلسه ، ليدل على حبه لاحقاق الحق وزهده في حطام الدنيا . شنشنة معروفة في بعض من يتولون امور الناس في هذه الديار يبرؤن انفسهم من حب الدنيا وهم سراق منظمون ، و يستحلون في السر كل كبيرة وفي جهرهم اعفة انقياء . هذا الرجل قال لوكيله وصرافه حاييم وكاتبه حنا العورا يوم استولى على دمشق وخلصها من يوسف كنج باشا : انا قضيت حياة رأيت فيها الحلو والمر ، فاذا اردتم ان تخدموني بالصداقة فانا اشترط عليكم ان لا تظلموا احداً ، فلا أريد الظلم ولا اذية أحد ولا خراب بيت احد . ولا عيني بمال احد ، واريد ما امكن سد باب الظلم ، وليس لي حاجة في غير لقمة خبز طيبة وحصان مليح و« جوبق » دخان والكسوة الاعتيادية وامرأة واحدة ولست آذن ولا ارخص لاحد منكم ان يجمع لي مال عباد الله بالظلم ولا بالخطف ولا بالحيلة ولا بوجه من الوجوه ، ولا اريد الا اخذ الاموال المرتبة بامر السلطان فقط ولا اشكر من يسعى لي بجلب الاموال من غير حلها بل اغضب عليه ، وها انذا اشهد الله وملائكته ورسوله عليّ وعليكم بهذا جميعه ، وانا بريء الذمة من كل ما تفعلونه في هذه الدنيا وفي الآخرة ، فهل تقبلون بشرطي هذا كي اسلمكم زمام اموري واريح فكري ، فاجابوه : نعم قبلنا وسمعنا واطعنا فحينئذ قال لهم : وانا سلمتكم مصلحتي بتمامها تصرفوا بها بحسب صداقتكم ، وقد توكلت على الله وهو نعم الوكيل . كلام اشبه بكلام عمر بن عبد العزيز لاناس من حاشيته من زهاد التابعين وتابعي التابعين !

وفي سنة ١٢٢٦ حدثت فتنة بين الدروز القاطنين في الجبل الاعلى من عمل حلب وبين اهالي تلك البلاد وجرت بينهم وقائع كثيرة فاتفق جميع اهل تلك الاطراف فارسلوا يستشفعون بالامير بشير فكتب الى حكام حلب ، وارسل مباشرين لاحضار الدروز من هناك وكانوا اربعمائة بيت واعطاهم مئة الف درهم لمعاشهم ، وفيها زاد ظلم محمد سعيد متولي جبل ريحا من عمل حلب ، والطبل علي ضابط جسر الشغر ، وافسدا النظام فارسلت عليهما الدولة جيشاً نقاتلهما فانهزما .

وكثيراً ما كان يجرى الخلاف في دمشق بين اغا القلعة والوالي فيعتصم الاغا وجماعته في القلعة و يشرع باطلاق الرصاص والبارود والمدافع على جماعة الوالي ويصيب

الاهالي من ذلك خطوب جسيمة كما وقع سنة ١٢٢٧ فاخذ عسكر الوالي يحيط بالقلعة و يطلق من المآذن المجاورة النار عليها والجنود يطلقون النيران ، ودام ضرب المدافع والحصار الشديد ليلاً ونهاراً بلا فتور ، وقتل اناس خارج القلعة واحترقت بعض الاماكن ، ثم وضع عسكر الوالي سلالم ودخلوا القلعة من سورها وجرت المذبحة بين المحاصرين والمحصورين ونهب عسكر الوالي القلعة ، وكان من يذهب قتلاً من الجند على نسبة من يقتل من الرعية · والقلاع آية البلاء على الرعية ولا ينتفع بها عند الاقتضاء الا الوالي او المتغلب انتفاعاً موقتاً ·

ومن الولاة الذين ملأوا حلب وارجاءها ظلماً جبار زاده جلال الدين باشا (١٢٢٧) كان مثلاً في المصادرات وقتل من يأبى اعطاء المال ولا يكاد يمضي يوم الا و يقتل انساناً وقد احتال على ثمانية عشر شخصاً من رؤساء الانكشارية في حلب وأهلكهم فسكنت الفتن قليلاً وقطع من اوصال الانكشارية وقبض على القياد بشدته وقلة ذمته في اهراق الدماء · وروى في اعلام النبلاء ان ابن جبار او (جبان) هذا عين اثنين يتجسسان اخبار الناس الذين تجب مصادرتهم فكان يرسل من طرفه اثنين حاملين بلطة يأتيان بمن يجب مصادرته ، فيزج في الحبس و يوضع في رقبته سلسلة لها شوك ، ثم يطالب بما قرر عليه وهو جرم او جرمان ، والجرم اربعون كيساً والكيس خمسمائة قرش ، فمن لم يدفع الجرم في ثلاثة ايام يخنق و يرمى تجاه باب القلعة ، وكلما خنقوا واحداً أطلقوا مدفعاً فكان يعلم عدد المخنوقين في الليلة من عدد المدافع ، وكان الوالي اذا أراد النزول الى السوق امر فزينت له الاسواق نهاراً فينزل ومعه «البلطجية» والعساكر عن يمينه وشماله فيدور في الأسواق ، ومتى ادار وجهه الى رجل فان البلطجية يأتون و يضربون رقبة صاحب ذلك الحانوت ، يفعل ذلك بثلاثة او اربعة اشخاص ثم يعود ، ولما تكرر منه هذا العمل الفظيع سأله وجوه البلد عن سبب قتل هؤلاء وما ذنبهم فكان يقول : لا ذنب لهم غير اني اقصد إرهاب الناس · وتعذيبه الناس واخذهم بالتهم الباطلة من المأثور عنه المشهور به ·

وجاء بعده خورشيد باشا وكان يصلي و يصوم لكن اتباعه يفعلون كل كبيرة وهو

عنهم ساكت ، وحدث ان الاهالي هجموا على دار رئيس دائرته سليمان بك ، وقتلوه وحملوا سائر اتباعه بما عندهم من ادوات الفحش والخمر الى القاضي فعد الوالي ذلك نشوزاً على السلطنة من اهل حلب فاستدعى عسكراً فجاءته جملة مستكثرة منهم ، فوقعت وقعة بين العسكر والعصاة في محلة قسطل الحرامي (١٢٣٥) فانكسر العصاة وهاجم العسكر البلدة واخذوا يطلقون المدافع على اسوارها فخربوا جانباً منه ودام الحصار ١١١ يوماً وجرى القتال داخل البلد في الشوارع والاسواق ، وكان القتال سجالاً بينهم الى ان فر العصاة من الاهالي ودخل الولاة مع مامعهم من العسكر واحتلوا البلدة وقتلوا سبعة من كبار العصاة وارسلوا برؤوسهم الى الاستانة . وقد قال الاهالي : انهم ثاروا لشدة ما كانوا يلقونه من العنف وما كانوا ينوؤن تحته من ضريبة الدور التي ضربت عليهم في سنة قحط وغلاء ، وقد قتل بالطبع من الثائرين والاهالي والجند مئات . والشاة المذبوحة لا تألم السلخ .

تولى دمشق سنه ١٢٣٢ صالح الكوسا باشا « وكان عادلاً حليماً فهماً » وراقت البلاد في ايامه ولم يحدث فيها الا نشوز عرب فليحان فارسل عليهم جنداً فتحصنوا في اللجاة فقتلهم العرب ولم يسلم من الجند الا القليل ، وبعد سنتين تولى دمشق سليمان باشا وكان عادلاً الا انه محب للمال . وذكر جودت ان جماعة من الحشاشين والاشقياء (١٢٣٥) اخلوا بالامن في مدينة حلب حتى كان الولاة يضطرون ان ينزلوا خارج البلد في مكان اسمه الشيخ بكير وانه لم يمض على الثمانية عشر شقياً الذين كان قتلهم بالخدعة جلال الدين باشا جبار واليها ، حتى عاد الاشقياء فكثروا واارادوا القيام بثورة ، فتدارك الوالي الامر باستدعاء الجنود الكثيرة ، وحسم هذه النازلة قال بعد ان ذكر اربعة ابرياء قتلوا في حلب بدلاً من اربعة مجرمين بواسطة احد الاعيان : كان على ذلك العهد بين اعيان البلاد ووجوهها كثير من الارذياء الاشرار ، وهذه الحالة لم تكن خاصة بالاستانة ولا بالولايات ، وكان قتل الانسان في سهولته كتقطيع لحم الدجاج ، حتى حدث مرة ان الاراجيف كثرت في الاستانة وبينا كان مجلس الوكلاء ينظر في طريقة لحسم مادتها قال حالت افندي على ما اشتهر : ان احسن طريقة ان يقطع رأس الحلاق المقيم في « اوقجيلر باشي » وبذلك يحدث للناس خوف ودهشة

وتنقطع مادة الاراجيف فقال له احد الحضور : عفواً ان هذا حلاقي فقال حالت افندي : ليس هذا الذي اردت ان اضرب عنقه بل الحلاق الذي يسكن في الطرف الآخر وبذلك يحصل المقصود · قال و بالجملة فقد كثر في تلك الايام في الاستانة وخارجها من اسودت قلوبهم وقست افئدتهم من الناس ، وكانت الادارة من كل وجه مختلة بحيث لا يتيسر وصفها ولم يبق من وسيلة الا تجديد الاصول واصلاح امور الدولة وتنظيمها ، وقد نال هذا الشرف والي مصر محمد علي باشا والفضل للمتقدم اهـ · وهذا كلام مؤرخ رسمي يكتب للسلطنة والحقيقة ان حالة البلاد كانت اسوأ مما وصفها به ·

✲ ✲ ✲

وقعة المزة واستسلام الدولة لوالي عكا } تولى دمشق سنة ١٢٣٥ درويش باشا ، وفي ايامه اعتدى جماعته على مزارع ابن شهاب وابن جنبلاط في البقاع فاضطر والي الجبل الى ارسال جند لمحاربته ، وارسل والي عكا جنداً لمعاونته على والي دمشق ، وجمع هذا عسكره ووقع القتال فانتصر والي الجبل على والي دمشق ، وبعثت الدولة والي حلب للنظر في هذه الفتنة بين الولاة ، فرأى ان السبب في ذلك عبد الله باشا والي عكا ، فحاصره والي حلب في عكا على غير طائل ، ثم عزل درويش باشا عن ايالتي دمشق وصيدا وعفي عن عبد الله باشا ، وهلك جمهور من الجند والناس في هذه الفتن التي كان منشأوها فيما قيل دسيسة من بعض الاسرائيليين هلك احد انسبائهم وتقربوا من درويش باشا فأثروا فيه · وذكر الشهابي في هذه الوقعة المعروفة بوقعة المزة لان هذه القرية حرقت فيها ، ان عبد الله باشا استمال بعض مشايخ جبل نابلس ووقعت الفتنة بين اهالي تلك البلاد فانقسموا فئتين ووقع القتال بينهم ، وقالوا ان سبب هذه الفتنة ان درويش باشا كان يريد استلام عكا من عبد الله باشا واليها بامر الدولة فتشيع الامير بشير الشهابي لوالي عكا ، وسار في عسكره من المشاة والفرسان من اهل الشوف والمناصف والمتن ، وعسكر عبد الله باشا في الدالاتية والهوارة ، وجعلوا مصافهم من كوكب الى المعظمية من ادنى قرى وادي العجم ، وخرج درويش باشا الى المزة فاقبل الامير بشير ، فلما علم عسكر درويش باشا بقدومه تحصنوا للحصار ،

وانتشب القتال بين الطرفين واطلقت عساكر دمشق المدافع والزنبركات اي المدافع الصغيرة ، فهجم الامير بعسكره هجمة واحدة وهدم اسوار البلدة ، وكانت مبنية باللبن وامتلكها ، ففرت عساكر دمشق وقد قتل منهم نحو مائتين وخمسين رجلاً واخذوا منهم خمسمائة اسير ، وغنم عسكر الامير خياماً وذخائر وخيلاً وسلاحا ، ورجع الى المعظمية وبلغت اسرى عسكر دمشق من اهلها ٣٧٤ رجلاً عدا من قطعوا رؤوسهم . ومضت عدة ايام وفي نهر بردى تطفو الزرقى من عسكر درويش باشا حتى بلغ عددهم الف رجل ومائتي رجل بين قتيل وجريح ، وقتل من عسكر عكا نحو سبعين رجلاً . وانتشب القتال بين الامير خليل بن الامير بشير وبين فيزو باشا احد اتباع والي دمشق وهو قادم من نابلس في قرية مرجانة فقبض عسكر عبد الله باشا على مائة وخمسين اسيراً وقطعوا خمسة وعشرين رأساً وانهزم فيزو باشا الى دمشق .

وأرادت الدولة ان تضرب على يد عبد الله باشا (١٢٣٧) والي عكا فأمدت والي دمشق بوالي حلب واذنة ليتعاونوا على ضرب والي عكا وقد تحصن فيها بالفي جندي ، فحاصره الولاة المذكورون تسعة أشهر فلم يستطيعوا الاستيلاء على عكا مع انهم كانوا في ستة عشر الف جندي . ولما عجزت الدولة عن أخذ عكا من عبد الله باشا واصبح في يده معظم القطر الشامي حقيقة رتبت عليه خمسة وعشرين الف كيس وهي تساوي نحو نصف مليون ليرة ، وذلك بدل نفقات عسكرها في حصار عكا ، وكان عبد الله باشا يوقع كتاباته هكذا « امير الحاج السيد عبدالله والي الشام وصيدا وطرابلس ومتصرف الوية غزة و يافا ونابلس وسنجاق القدس الشريف حالا» .

* * *

سياسة الامير بشير معار باب الكتابة في لبنان وتقاتل الولاة وارتباك الدولة

تولى دمشق مصطفى باشا (١٢٣٧) وفي أيامه حدثت فتنة بين الامير بشير وابن جنبلاط وعلي العماد وكتبت النصرة فيها للامير ، وهرب المشايخ المذكورون الى حوران فأمسكوا وقتلوا ، واضطر الامير بشير الشهابي بعد ذلك الى التغيب في دمشق وحوران ، ثم عاد بعد مدة الى لبنان

واستلم زمام الامر وطلب الاموال المتأخرة من اللبنانيين فثاروا عليه في اثني عشر الف فارس وقيل في ثلاثة عشر الف مقاتل وليس معه فيما قيل سوى ثلاثمائة ، فقتل منهم على قلة عديده وأخضعهم لسلطانه ، وعاونه الشيخ بشير جنبلاط على كبح جماحهم وكذلك والي عكا ارسل اليه عساكر الارناؤد والهوارة والمغاربة والاكراد فنشب القتال بين الفريقين فقتل من جماعة الامير بشير ١٥ رجلاً وأحضروا ٢٩ رأساً من رؤوس محاربيهم . ثم قلب الامير بشير الشهابي ظهر المجن للشيخ بشير جنبلاط وسعى بقتله ، كما قتل أناساً من اهله وحاشيته وسمل عيونهم ليأمن شرهم بزعمه ، وذلك لان ابن جنبلاط قويت شوكته واثرى وكثر مشايعوه ، فما كان من امير الجبل الا ان سعى باهلاكه والقى الفتنة بين الحزب اليزبكي والجنبلاطي ليخلو له الجوّ وسلم معظم لبنان لأُناس من مشايخ الموارنة يحكمونه و يأتونه بالجزية والخراج ليدفع هو المقرر عليه لوالي صيدا او عكا ، و يأمن جانب الدولة فتصفو الولاية له . وكان من سياسته ان يظاهر صاحب الظهور والقوة شأن الامراء اللبنانيين في معظم أدوار تاريخهم .

وكثر الخلاف بين والي طرابلس ووالي دمشق ووالي صيدا ووالي عكا والناس يقتلون بسبب هذا الاختلاف بينهم وحاكم دمشق يحاصر حاكم عكا ، والدولة ترضى عن هذا وتغضب على ذاك ، وتسلب ولاية زيد لتعطيها لعمرو ، تلاحظ في ذلك التوازن بين القوات ، وتحاشى رجوع الذين يعصون أمرها من الولاة . وأعقل الولاة وأدهاهم من كانت تدوم ولايته سنتين وكانت الوظائف الحسابية في هذا الدور على الاكثر بيد الاسرائيليين والكتابية بيد المسيحيين في كل إيالات الشام ، وكان الولاة يصادرون بعض الاسرائيليين ويحبسونهم وربما يقتلونهم لاستحصال المال فيحتال هؤلاء لتمشية امورهم ؛ وحدث ان معظم الحامية والموظفين في دمشق كانوا مرة من اهل بغداد والموصل وكركوك فغضب الوالي عليهم فأمر بترحيلهم فهلك بعضهم في الطرق .

كانت الشام تتخبط بايدي الولاة وارباب الاقطاعات ، والدولة غير مستريحة في داخليتها وخارجيتها ، فاستقلت اليونان (١٨٣٠ م) بعد حرب هائلة فقدت فيها الدولة اسطولها وذهب قسم من الاسطول المصري ، وكان الاسطول اليوناني ضرب

بيروت (١٢٤١—١٨٢٥) ، وتوسعت اختصاصات إمارتي الافلاق والبغدان (رومانيا) حتى بلغتا الاستقلال او كادتا ، وفتحت بروسيا لها طريق البحر الاسود ، وما زالت حال الدولة على ذلك حتى نشأت ثورة الانكشارية في الاستانة (١٢٤٢) وكانت الدولة أخذت تنظم جنداً جديداً على الاصول الحديثة ، فاستراحت الدولة بعض الشيء بعد إهلاك الانكشارية وكذلك حال الامة المسكينة التي قاست الاهوال من اعتداءاتهم ، وكان الفضل الاكبر في ذلك لمصلح الدولة السلطان محمود الثاني الذي أظهر من الثبات وقوة الارادة في هذا الشأن ما لم يعرف به اجداده الذين قتلوا بايدي الانكشارية ، واستناموا لما يأمرون به مخافة ان تزهق أرواحهم . وقضى ايضاً على اهل الطريقة البكداشية في الاستانة وما اليها مما ذكره له التاريخ بالاعجاب ، وعاب بعضهم عليه شدته واعجب باعماله معاصروه من الاعاظم . فقد قال سفير روسيا في الاستانة بعد سنتين من قرض جيش الانكشارية : ان السلطان محموداً بقضائه على هذا الجند المختل الذي تصعب ادارته قد ظفر بنور من النبوغ بمثله تنجو الممالك من المهالك . وقال دي لاجونكير : اذا كان السلطان محمود أقل سعادة من بطرس الاكبر — امبراطور روسيا الذي أصلح بلاده على الطريقة الاوربية — في ارادة التجدد فان منشأ ذلك بان بطرس الاكبر قد وجد امة لا تزال في حالة الهمجية اي جديدة ، وكان من الاسهل ان تنظم وتصاغ ، وعلى العكس في محمود فانه صادفته عقبات من الاوضاع القديمة ، اوضاع نشأت و كبرت مع المملكة وكان منها فيما مضى قوتها وقدرتها ، أوضاع وضعها السيف وأيدها الظفر وقدسها الدين .

ما كل من طلب المعالي نافذاً فيها ولا كل الرجال فحولا

تولى دمشق صالح باشا ثلاث سنين وثلاث مرات كل مرة سنة وأظهر شدة زائدة ثم تولاها ولي الدين باشا (١٢٤٢) وكان أحمق مغفلاً مهملاً ثم عزل ونصب عبد الرؤف باشا (١٢٤٣) وكان عادلاً لطيفاً وطمعت الشام به لعدله وفي سنة ١٢٤٣ أحدث وزير دمشق مظلمة على سبع عشرة قرية من البقاع فأمر الامير أهل تلك القرى اللبنانيين ان يرجعوا بمالهم الى بلادهم فرجعوا فخرب البقاع فارتضى وزير دمشق

حينئذ باخذ عشرين الف قرش من تلك القرى وكتب الى الامير انه رتب العشرين الف قرش عوضاً عن المال الميري والقسم اي الثلث ٠

* * *

محاولة الدولة قتل النصارى وفتنة بلاد نابلس

وأرادت الدولة ان تنتقم من مسيحيي الشام بل من المسيحيين في انحاء المملكة لثورة اليونان عليها ومطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة (١٢٤٤) وجزائر البحر الابيض ، فأمرت والي دمشق ان يقتل المفسدين من كبراء طائفة الروم ، فعقد مجلساً من أعيان دمشق وتلا امر الاستانة على مسامعهم ، فكان جوابهم انه لا يوجد من النصارى عندنا المفسدون وجميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا تجوز اذيتهم بل لهم ما لنا وعليهم ما علينا وان الرسول عليه السلام اوصى بالذميين وقال : من آذى ذمياً كنت خصيمه يوم القيامة ٠ ونحن لا نقدر ان نتحمل هذه التبعة وكتبوا محضراً للدولة بحسن سلوك نصارى الإيالة وطاعتهم ودفعهم المرتبات الاميرية وانهم يستحقون حسن الرعاية والمرحمة من السلطنة السنية ٠ ولعمري اي علاقة للثائرين في جزائر البحر والمورة مع الآمنين من الرعايا في الشام ، فقد ابان عقلاء دمشق اذ ذاك عن رأي سديد ، ولكن لا ندري اذا كان رأيهم راق لدى ولاة الامر في الاستانة ٠ واي امر جائر اكثر من هذا كأن النزاع الى الاستقلال من اليونان كانوا يصدرون عن آراء مسيحيي الشام او آسيا الصغرى ، او ان هؤلاء يحثونهم على نزع ايديهم من ايدي الدولة ، ولو استطاع المسلمون انفسهم في ذلك الوقت ان يستقلوا عن الدولة لينجوا من خلل ادارتها لما تأخروا عن ذلك ساعة ٠

وفي سنة ١٢٤٦ (١٨٢٩) طلب والي عكا من الامير بشير الشهابي ان يفتح قلعة صانور بين جينين نابلس وكان اهل نابلس عصوا عليه وتحصنوا في قلعة صفد واعجزوه فلم يقدر عليهم لان معظم اهالي البلاد انضموا الى الثائرين ، وكانت صانور منذ القرن الماضي تشغل بال رجال الدولة في عكا وصيدا والقدس ، فنشبت بينه وبينهم عدة وقائع وبعد حصار ثلاثة اشهر وتخريب عدة قرى ، امر الوزير بهدم القلعة ودكها الى الاساس ودك مغائرها وهدم آبارها ، وسبب هذه الثورة الضريبة التي فرضها

والي دمشق على الثائرين ولما عجز عن جمعها أُحيلت الى عبد الله باشا فتعهد للدولة بدفع الف كيس وامر بجمعها من اهل نابلس وكان من زعماء النابلسيين اذ ذاك اسعد بك طوقان والشيخ القاسم الاحمد ، وفشل النابلسيون ولم يبق في القلعة عند تسليمها كما قال معلوف سوى ٣٦٧ وكان فيها اكثر من الف ومائتي نسمة قتل بعضهم وضرب الآخرون وقتل من عسكر الامير بشير ٣٧ وجرح ١١ وذكر مشاقة ان سبب عصيان بلاد نابلس سلخ عبد الله باشا لها بامر الدولة عن ايالة الشام ، لان والي الشام ادعى ان المطلوب منها ستمائة كيس لاتتحصل الا بسوق حملة تستغرق المبلغ المتحصل منهم ، فتعهد عبد الله باشا بان تضم اليه و يدفع الفي كيس عنها ، وان عسكر امير الجبل الذي جاء نجدة لعبدالله باشا كان نحو خمسة آلاف رجل ، وان النابلسيين نزلوا على حكم الامير بشير الشهابي فعفا عنهم جميعاً وهدم القلعة وحصل الاموال الاميرية بعد مناوشات طفيفة .

* * *

مقتل سليم باشا والي دمشق

انقضى النصف الاول من هذا القرن او كاد والقطر نهب ايدي الطامعين من الولاة والمتسلمين ، يسيئون في الرعية الاستعمال ، ويعبثون بما خولتهم دار الملك من السلطة فيمثلون اعظم مظهر من مظاهر الحكم الاستبدادي الفردي الجاهل ولم يكن يخطر في بال الدولة ان رعاياها يقوون على الانتقام من اعظم عمالها وهم الموصوفون في معظم ادوارهم بالطاعة للملوك والزعماء ، والرضى بماتقضي به الاقدار، ولو صحت عزيمة المظلومين مرةاومرات ان يهلكوا من يحاول اهلاكهم وخراب ارضهم وديارهم ، لما ساءت الحال وبلغت البلاد ما بلغته من الاختلال والاعتلال ، نريد ان نقول ان الرعايا طالت ايديهم فقتلوا والياً عظيماً من ولاة السلطنة ونعني به سليم باشا الصدر السابق مبيد جيش الانكشارية .

نصبت الدولة هذا الشيخ والياً على حلب ثم على دمشق سنة ١٢٤٧ ، وكان ظاهره شجاعاً مهيباً و باطنه جباناً ، فهم ان يغتال بعض اعيان المدينة فبدأ بذلك من حماة ، وقتل بعضهم فايقن القوم ان هذا القاتل لا يصعب عليه ان يهلك اناساً في دمشق ليصفو للدولة الحال بزعمه ، فلما جاء عاصمة الشام اراد ان يضع على كل سكرة

اي عقار في دمشق « مصريتين » كما هو الحال في الاستانة فثارت باشارة الاعيان وكانوا عند المصائب الشديدة تحمد على الاغلب كأنهم اتقاء شر عظيم يقعون فيه او تقع البلاد ، وكثيراً ما كانوا يدخلون الاوهام على الولاة لئلا يسترسل هؤلاء و يشتطوا في مطالبهم وتكون المغانم مناصفة بين الاعيان المتلغبة والحاكم المنصوب — فضرب الوالي العامة من ابراج القلعة بالقنابل حتى اذا ضاق عليه الخناق جاء في بعض رجاله الى دار قرب باب البريد فتأثره العامة وهدموا على رأسه سقف المخدع واحرقوه ·

وذكر بعضهم ان هذا الوالي تحصن برجاله في جامع المعلق اولاً والسكمان بالقلعة فبدأ الحريق من باب الهواء واخذ يمتد ، فلما رأى ذلك داخله الوهم لقلة رجاله وكثرة الدماشقة فتحصن بالقلعة ، واخذ يحرق دار الحكومة ليشغل الناس ويفوز بنفسه وكان الحريق هائلاً خرب كثيراً ، ثم اعتمدوا على حصار القلعة واخذ الوالي يطلق المدافع على البلد ، واقام الناس متاريس حول القلعة ثم في الحارات وحاصروا العسكر المرابط في جامع المعلق ، وقتل في هذه المناوشات اناس كثيرون من الاهالي وجماعة الوالي ، وطال المطال وتألب الناس على الوالي حتى ان والي عكا اخذ يقوي اهل دمشق عليه ولما ضاق به الحصار خرج الى بيت القاضي بجانب دار المشورة فجاء سبعة رجال كسروا الباب والنافذة عليه والقوا النار بعد ان اخرجوا من عنده ابن اخيه والكيخية ثم قطعوا اعناقهما افتراء وعدوانا كما قال مدون هذه الوقعة اذ ليس لهما ذنب يوجب القتل حتى ان الباشا نفسه افتروا عليه لانه لم يظهر منه ادنى اذى اليهم غير تمسكه باتمام الاوامر التي بيده من الاستانة ، وربما كان يضمر للاعيان شراً لا نعلمه واما في الظاهر فليس لهم عذر سوى انهم افتروا عليه وعلى جماعته على نوع مستغرب مناف للشرائع كلها ثم اخذوه عرياناً الى القلعة ، مع الاثنين خاصة بعد ان داروا برؤوسهم اغلب البلاد ودفنوهم داخل القلعة وتولى الشربجي الداراني ورشيد نسيب الشوملي امر البلد ، و بات الناس يتوجسون خيفة من رجال الاستانة ، ولو كان ما اتوه في حالة راحة الدولة لارسلت عليهم جنودها يفعلون بالابرياء والجناة الافاعيل المنكرة ، ولكن الدولة كانت تتوجس خيفة من محمد علي والي مصر وما بلغه من القوة بجنده و بحريته

واستعداده ، ولها مشاكل في اوربا تخاف ان تتجزأ قوتها اذا ارادت تأديب الدمشقيين ولذلك لم تحب ان تناقش الاهالي الحساب ولم تسوءها فجيعتها بشيخ همّ قاتل ، والقاتل مبشر بالقتل ، ومن عادة الدول على الاغلب ان تفتك بعد حين فيمن استعملته آلة للفتك ولذلك نرى مؤرخي الترك قد نطقوا بلسان الحكومة ولم يحركوا ساكناً كأنهم رأوا لعمل الدمشقيين مبرراً من حسن نيتهم ٠

وقال مشاقة : لما قتل الدمشقيون سليم باشا اجتمع اعيانهم ورتبوا حكومة موقتة واخذوا يترقبون ورود عسكر الدولة للانتقام منهم ، فورد الخبر بخروج عساكر مصر لتأتي الشام فسكن روعهم بعض الشيء ولما خرجت عساكر مصر صرفت الدولة النظر عما عمله اهالي دمشق وارسلت والياً عليهم اسمه علي باشا ٠ واخذت الدولة تؤول عمل اهل دمشق واصبحت كالمحامية عنهم تختلق لهم الاعذار عما بدر منهم لان السياسة اضطرتها الى ذلك ٠ فقد جاء في تاريخ لطفي نقلاً عن جريدة تقويم الوقائع الرسمية ان سليم باشا لم يعمل بحسب الوقت لما جاء دمشق ، وقد عين الحاج علي باشا والي قرمان لاستئصال الفتنة التي كان شبوبها يترامى الى المسامع ، بيد ان سليم باشا قتل قبل وصول خلفه ، وتبين ان للغرباء يداً في هذه الفتنة وان تأديب المشاغبين بسوق قوة على دمشق يضر باهاليها ٠

وقال المؤرخ : ان سبب عصيان الدمشقيين ان سليم باشا مر بحماة عند شخوصه الى دمشق وقتل بضعة رجال من عرب عنزة وقيد البرازي في القيود واتى به معه الى دمشق فدهش اهلها وكان اقتراحه وضع ضريبة مما اوقد جذوة الفتنة ٠ وذكر ان الاهالي هجموا على السراي اولاً واغلقوا دكاكينهم واصبح الامر فوضى ٠ وقد كتب السلطان على محضر قدمه بهذا الشأن عاطف بك ابن خليل شقيق سليم باشا قال فيه ما تعريبه : قد يتبادر الى الذهن ان لبعض الاطراف يداً في حادثة دمشق ومن الجائز ان يكون ذلك بصنع والي صيدا لان هؤلاء ليسوا على ثقة تامة من دولتنا العلية وهم ينفرون منها على الدوام ، وعلى هذا فان امور ايالة الشام اذا دخلت في النظام على ما يجب يحدث ذلك ضرراً لهم وقد عرفوا هذا حق المعرفة فيجوز ان يكونوا سبب هذه الفتنة لايصال الحالة الى تلك الصورة ٠

وقد ظهر من الاوراق الرسمية الاخرى التي نشرها لطفي في تاريخه ان السلطان ذهب مذهبين في هذه الفتنة فكان يقول في بعض اوامره قبل مقتل سليم باشا القائم بتطبيق قانون رسوم الاحتساب سداً لنفقة الجند ان اهالي دمشق وحواليها وان كانت ارضهم مباركة ، لا يستنكف اكثرهم عن عار ولا يعرفون الحياء ، وظاهر انهم اشرار وسيرون بحول الله وقوته من اسباب التأديب ما يقفون به عند حدهم . وقال في كتاب آخر : ان وقوع هذه الحادثة في دمشق ليست منبعثة من جسارة الاهالي فقط ، بل نشأت بلا ريب من اغواء الاطراف وتحريكها . وذكر المؤرخ ان السبب في فتنة سليم باشا تحريك محمد علي والي مصر ليجعل مقدمة لدخوله الشام وفي رواية أخرى ان والي عكا عبد الله باشا كان هو السبب في ذلك .

وقصارى القول ان سليم باشا مبيد جيش الانكشارية الذي عجنت طينته بالدماء فقتله أعيان دمشق مخافة ان يبطش بهم كما بطش في حماة خافوه ووجدوا فرصة للنيل منه لما جاء يطبق قانون الاحتساب ، فأثاروا الرأي العام عليه ففعلوا وربما كانوا يريدون الاكتفاء بتهديده ليحملوه على الهرب ولكن الامر خرج من ايديهم الى أيدي العامة فقتلوه غير حاسبين للعاقبة حساباً فكان قتله على غير رضى العقلاء من الاعيان بيد ان قتله كان مخيفاً لمن يأتي بعده من الولاة .

✲ ✲ ✲

الحكم على موقف البلاد في نصف قرن ويجوز لنا بعد نقل حوادث نصف قرن ان نلخصها ونستنتج منها على الصورة التالية (١) كان الظلم يقع على المسلمين والمسيحيين والاسرائيليين على السواء ولما كان المسلمون هم السواد الاعظم من السكان كان تأثير الظلم في مجموعهم أقل من تأثيره في مجموع الاسرائيليين مثلاً . (٢) أوغل ارباب الإقطاعات في الظلم فقلّم الجزار من أظافرهم ليستأثر وحده بالظلم والقتل ، فخالفه التوفيق بطول المدة الى الضرب على أيديهم بعض الشيء ، فلما هلك عادت الحالة الاولى الى سابق تعاستها من ظلم المستضعفين والفلاحين . (٣) مرّت حملة نابوليون بونابرت على جنوبي الشام كالسحابة ، وكان من الجزار ان ضمّ قوى البلاد برأي انكلترا التي تولت حربه بحراً باسطولها وساعد ان حكومة

الديركتوار في باريز استدعت نابوليون فعاد أدراجه مسرعاً لا يلوي على شيء كما رجع ريشاردس قلب الاسد ملك انكلترا في الحروب الصليبية بعد ان عقد مع صلاح الدين يوسف ميثاقاً أنقذ به الصليبيين ومحاربيهم من اهل البلاد من القتل والقتال . (٤) الظلم الواقع على النصيرية وارادتهم على تغيير معتقداتهم واتخاذ مقتل رجل غريب يمتّ بنسبه الى دولة اجنبية قوية ذريعةً الى تخريب بلادهم وقتل زعمائهم بدون تحقيق ، على حين كان زعماء الارجاء الاخرى من القطر يفعلون فعلهم وزيادة ، ولا من يرد عنهم او يقوى على نزع سلطانهم وتخفيف وطأتهم ، مثل محمد باشا ابو مرق الذي عجت الارض الى السماء في فلسطين من مظالمه حتى اخذ الناس يبيعون أولادهم كما تباع الجواري والاماء فراراً من ظلمه وقياماً بما يفرضه عليهم من المغارم . (٥) قيام مصطفى اغا بربر متسلم طرابلس واستعانته بكافل عكا على كافل دمشق وظلمه الرعية ومحاولة الدولة غير مرة ان تستريح من تسلطه فلم تستطع ذلك الى ان هلك حتف انفه . (٦) انقضاء دولة بني العظم بهلاك عبد الله باشا آخر من ولي منهم سنة ١٢٢٣ ولم يقم بعده أحد من ذريتهم لتولي الاحكام . (٧) اشتغال الدولة بالغوائل التي أصابتها ولا سيما استقلال اليونان ومحاولتها لما نال اليونان ما أرادوا ان تنتقم ممن يدينون بدينهم في الشام ، فرد حزم الحازمين إرادة المختلين من ولاة الامر الظالمين بحجة دينية ايضاً . (٨) عدم توفيق السلطان سليم الثالث في تطبيق خطط الاصلاح وكذلك مصطفى الرابع حتى تولى السلطنة محمود الثاني فبدأ في انفاذ اصلاحه بمقياس واسع كان اوله مقتل جيش الانكشارية في العاصمة والولايات ، فعدّ مصلح عصره الذي ادخل دولته في المدنية الغربية طوعاً وكرهاً ، وجعل لها مقاماً بين الدول لم يكن لها من قبل على اتساع أقاليمها ، وخروج اكثر القاصية من حكمها فتبين لها ان عظمة الممالك بحسن إدارتها وكثرة مدنيتها لا بعظم رقعتها وخصب بقعتها ، وان دولة غناماها في عنفوانها وبذخها كما هي في ضعفها وشيخوختها ، تولي رقاب الامة ولو بالصورة الظاهرة ، وجبوة خراجها ولو بالتغاضي عن بعضه للجباة لا للرعية لا تصلح وبصلح أهلها .

وان الجرح ينفر بعد حين   اذا كان البناء على فساد

دور الحكومة المصرية

« من سنة ١٢٤٧ الى سنة ١٢٥٦ »

حالة الدولة العثمانية عند اذلال جيش محمد علي الكبير لها

كانت الدوله العثمانية الى اواخر منتصف القرن الثالث عشر جسماً كبيراً تعروه نوبات عصبية من حين الى آخر فيردها بقوته ، او يطول زمنها عليه حتى تنتهي بطبيعتها . وصاحب المرض اذا طالت عليه معاودة النوبات قد يألفهـا و يظن انه بريء من كل خطر ، على حين كثرت آلامه ، والادوار العصبية أشد ظهوراً في أَلم الجسم ، واذا تكررت على المصاب يصير الى العجز فلا يستطيع ان يدفع ضراً ولا يجلب خيراً . فكانت الدولة العثمانية اذا نظر الى ظواهرها يظن معهـا قوة ، وفي الحقيقة هي الى الضعف لكثرة ما استحكم فيها من أمراض عضالة، وساورها من أوجاع، غفلت الدولة عن تعهد قوتها الحقيقية منذ وضع مؤسسوها بنيانها ، فكانت تعلو وتسفل وتطفو وترسب ، بحسب مقدرة القائمين عليها من الصدور والسلاطين ، تقوم بالفرد ولا شأن للجماعة في معالجة ما يصلحها من تقنين وأُصول إدارة ، واهم ما امتـاز به جندها الطاعة للرؤساء فأَصبحت في حروبها تستهلك اكثر مما تستحصل ، لان جيش الانكشـارية وهم مستندها في قوتها عراه الانحلال فغدت الوقعة التي كان يكتفى فيهـا بعشرة آلاف مقاتل تسوق اليها ثلاثين الفاً ثم يشغب ولا يعمل عملاً . ولا عبرة بالعدد اذا كان المجموع أقرب الى التفسخ ، ومعنويات المقاتلين الى الضعف .

ان بعض الغوائل التي أُصيبت بها المملكة والشام من جملتها في هذا القرن والذي

قبله كانت بصنع جيش الانكشارية وتمرده على رؤسائه ، وبضعف الزعماء واختلافاتهم المتصلة مع الولاة في الخارج ، والوزراء والملوك في دار الملك ، فكان وضع السيف فيهم على عهد محمود الثاني وصدور الامر بقتلهم في الولايات مما نفس خناق الامة من عربدتهم . وان كانت العقوبة التي نزلت بهم بالشام أخف ، لان بعضهم وفيهم الرؤساء كانوا من أبناء البلاد فاعتصموا بهم وغيروا القابهم وبدلوا طرازهم وثيابهم ، وبعد ان تخلصت الدولة والامة منهم صعب على العثمانية في بضع سنين ان تصلح مافسد في عشرات بل في مئات ، وهل من سبيل الى ارتجال جيش منظم الا اذا ساد السلام اعواماً طوالاً ، وانتشر العلم وتعلم القواد على الاقل ، وكيف يتأتى ذلك وطالع الدولة الحرب على الدوام لا تفتأ متنقلة من أزمة الى أزمة ، وكانت في هذه الحقبة خرجت من حرب الوهابية في الحجاز ودخلت في حرب اليونان .

ولم يخطر ببال الدولة يوم قام محمد علي في مصر — ومصر لعمري أم كل عجيبة — ان يتدرج بعد قتل المماليك في مراتب القوة والسيادة ، حتى يقبض على زمام الامر (١٨٠٤ م) وينظم قوتيه البرية والبحرية ، وينشط الزراعة والتجارة وتسمو به الهمة ، ان لا يكتفي بما يملك بل ينزع الى التوسع في فتوحه ، اذ أيقن ان الدولة وان كانت في صدد ادخال الاصلاح على اوضاعها بفضل محمود الثاني سلطانها العاقل ، لا تستطيع ان تلحق غبار مصر التي جرت على الاصول في تنظيم جيشها وإدارتها ، ونشر المعارف بين افرادها ، وسلطان العثمانيين على اتساع مملكته وكثرة خيراتها ، يتعذر عليه ان يقوم في بلاده بما قام به محمد علي في ولايته ، لان الاصلاح في الجسم الثقيل المختلف الامراض ، أصعب من مداواة جسم له مرض واحد ، اذا عولج كان أقرب الى الصحة والاستمتاع بالسلامة .

كان الغرب في هذا القرن يسير الى الارتقاء بخطى واسعة سريعة ، والدولة العثمانية تنظر الى هذه المظاهر باهتة ، وقلما يبدو لرجالها ان يتحدثوا في سر هذا الارتقاء وعواقبه عليهم وعلى جيرانهم ، ان لم يجاروهم في هذا المضمار . فأصبحت دولة ابن عثمان لا تكفي عادية دولة من دول الغرب الا اذا استعانت باخرى عليها ، واستفادت من تخالفهم وتباين أغراضهم ، بعد ان كانت أيام شبابها تنال من دولها مجتمعات

ومنفردات بعُددها وعَددها . ولكن الجيش الذي يصل الى أسوار فينا على عجلات البقر ، ويقاتل المحاربين والمسالمين بالسيف والنشاب ، غدا يحتاج الى أسباب في النقل أسرع ، وسلاح في الفتك أقطع ، غدا يحتاج الى علم وعُدد ، اكثر من احتياجه الى اسماء ضخمة وعَدَد ، وأصبحت السياسة والادارة والحرب علوماً عملية ، والدربة والتنظيم رأس كل أمر ، والجيوش بنظامها وقيادتها وعددها وذخيرتها وبالفكرة المتشبع بها أفرادها ، فكيف تنجح بعد الآن دولة تعد الجهل من مظاهر القوة وكيف لا تتجلى الفروق بين دولة جمدت ولم تعمل ، ودول تحركت ونمت وربت ، وبين أُمة فتحت بلاداً واسعة منذ قرون وبقيت طول حياتها الطويلة تصارع عناصرها ويصارعونها ، وهي عنهم غريبة وهم عنها غرباء لم تتمثلهم ولم تتمثل فيهم كما فعل محمد علي فتمثل في مصر والمصريين .

* * *

لماذا تراجعت الدولة العثمانية } نسب ميشو إنحطاط الدولة العثمانية وإخفاقها في حكم البلاد التي افتتحتها الى عدة أسباب أهمها الجهل والجمود والغرور قال : « ومن حسن طالع النصرانية انه لما فترت الهمة في الحروب الصليبية التي يراد بها حماية اوربا ، أخذ الاتراك يضيعون شيئاً من قوتهم العسكرية التي أخضعوا لسلطانها الشعوب النصرانية ، فكان العثمانيون باديء بدءٍ الامة الوحيدة التي كان لها تحت السلاح جيش دائم منظم ، وبه أحرزت الدولة التفوق على الامم التي تريد إخضاعها لسطوتها . وغدت اوربا في القرن السادس عشر ، ولمعظم ممالكها جيوش يقاومون بها اعداءهم ، وانتشر النظام والتربية العسكرية بسرعة بين شعوب النصرانية . وأخذت المدفعية والبحرية تزيد كل يوم نظاماً ورقياً في الغرب ، على حين كان الاتراك يزهدون في التجارب التي وصلت اليها الجيوش البرية والبحرية ، ولا يستفيدون بتاتاً من العلوم التي انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم ، ويزاد على ذلك ما عبث بكيان الاتراك من الخرافات وقلة التسامح ، فحال ذلك دون فتوحهم . فكانوا اذا استولوا على ولاية يحاولون ان يحكموها بنظاماتهم ، ويغرسوا فيها عاداتهم وعباداتهم ، فاقتضى لهم من ثم ان يبدلوا وجه كل شيءٍ ويقضوا على حياة كل شيءٍ في البلاد التي ينزلونها ،

وان يقضوا على اهلها او يضعوهم بحيث لا يستطيعون ان يناجزوهم الشر ، و يرفعوا رؤوسهم فيهم ، ولذلك يلاحظ ان الاتراك استولوا مراراً على بلاد المجر ، فكانوا يرحلون عنها بعد كل حملة يحملونها عليها ، ولم يستطيعوا بحال ان يؤسسوا فيها مستعمرة او موطناً ثابتاً . وهم في انتصار يتلوه انتصار . والشعب العثماني الذي كفى لاحتلال ولايات مملكة الروم واستعبادها لم يكف لسكنى اقطار ابعد والاحتفاظ بها ، و بهذا نجت المانيا وايطاليا من غارات الاتراك ، وربما استطاع العثمانيون ان يفتحوا العالم لو قدر لهم ان يخلقوا البلاد التي ينزلونها باخلاقهم و يُنزلوا فيها كثيراً من ابنائهم .

قال : « من الاسباب الرئيسة التي اضعفت القوة الجندية في الاتراك ، الحروب التي كانوا اعلنوها على اوربا وفارس . فقد صدهم جهادهم الفرس عن حملاتهم على النصارى وجهادهم في النصارى أضر بنجاحهم في حروبهم في آسيا . وكانت طريقة الاتراك في حربهم الفرس والشعوب المسيحية مختلفة متباينة ، فبعد ان قاتلوا زمناً مقاتلة ماوراء النهر وقفقاسيا ، اصبحوا عاجزين عن قتال اوربا فضعفوا عن قتال الفرس وعن قتال النصارى من امم الغرب . وظلوا بعدئذ بين عدوين نقربهما يهمهما زوالهم و يتحمسان بالحماسة الدينية . حمل الاتراك معهم مثل جميع البرابرة الذين اتوا من شمال آسيا نظام حكومة الاقطاعات ، وكان اول عمل يأتيه اولئك الشعوب الرحالة تقسيم الاراضي بوضع بعض القيود والشروط لمقتطعيها ، ومن هذا التقسيم نشأ نظام الاقطاعات . والفرق بين الاتراك وسائر البرابرة الذين فتحوا المغرب هو ان استبداد السلاطين المبني على الحسد والغيرة لم يترك مجالاً قط للاقطاعات ان تكون وراثية ليكون بجانبهم طبقة من الاشراف كما هو الحال في الحكومات الاوربية المطلقة ، وهكذا لم تكن تشهد في المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق الى جانبها ديمقراطية عسكرية .

« شبهوا الاتراك بالرومان . وكانت بداءة هذين الشعبين واحدة ، وما اشبه اشياع رومولوس باتباع عثمان . و يتفاوت الشعبان في نظر التاريخ . وذلك لان العثمانيين ظلوا كما كانوا في الاصل ، اما الرومان ايام فتوحهم فلم يزهدوا في معارف من فتحوا بلادهم . ولم يستنكفوا من الاخذ بعاداتهم ومعبوداتهم ولم يقتبس الاتراك من الامم المغلوبة شيئاً ، وتشددوا في ان يظلوا على بربريتهم . ولم تتأصل الارستقراطية

الوراثية في جانب الاستبداد المطلق ، وربما كان ذلك احد الاسباب التي قضي بها على الامة العثمانية ان تبقى في حالة الهمجية . وكل من درسوا سير المجتمعات يدركون ان بالارستوقراطية تتهذب الاخلاق وتتثقف عادات الشعوب ، وبواسطة الطبقة المتوسطة تنتشر المعارف وتبدأ المدنية .

« إن فقدان الطبقة الارستوقراطية في الحكومات الشرقية لم يبين لنا سرعة انحلال هذه الحكومات فقط ، بل إنه حلّ لنا معنى جمود الفكر الانساني في هذا الضرب من الحكومات ، وكيف لم يتقدم قيد غلوة . وما كان في المساواة المطلقة ، ومن حكومة تغار من كل ما لا تكون هي منشأه ومصدره شيءٌ من المنافسة والقدوة وحب المجد ، وبدون هذه الاسباب يقضى على كل مجتمع ان يبقى في الجهل الاعمى الذي كان عليه لاول امره ، وان يفقد معظم مزاياه ومصالحه . وبالنظر لزهد الاتراك في العلوم والآداب ظلت اعمال الصناعة والزراعة والملاحة في ايدي مواليهم وكانوا في الحقيقة اعداءهم ، وذلك لانهم كانوا يشمئزون من كل جديد ، ومن كل ما لم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا ان يلجأوا الى الاجانب في كل ما اخترع ونظم في اوربا ، وهكذا لم يكن لهم نقض ولا إبرام في مصادر سعادتهم وقوتهم ، وفي متانة جيوشهم واساطيلهم . ولا يخفى ما اضاعه الاتراك بونائهم عن السير في معارج الرقي العسكري الذي اصاب منه الاوروبيون قسطاً موفوراً ، ولما كان الشأن في حروبهم بجيوش متحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، فلما جاء دور العلوم البشرية وما ابرزته عقول الناس من المخترعات والمكتشفات ، كان العقل المساعد هو المخيف للشجاعة .

شبه بعضهم جيش الانكشارية العثمانية بطوائف البرتوريان من الرومان ، في حين كان هؤلاء منتخبين وما جرى قط على خاطر الاتراك ان يختاروا اميرهم سواءٌ في ذلك شعوبهم وجيوشهم . وكانت مصلحة الانكشارية تقضي ان يلقوا الاضطراب في المملكة لئلا يخلو لها الجو فتستفيد شيئاً من الجديد . اما الاتراك الذين توطنوا في يونان فكانوا يحترمون العادات القديمة اكثر من غيرهم ، كما يحترمون الاوهام وحب البلاد التي ينزلونها . ولما استولوا على مدينة الاستانة كانوا يوجهون انظارهم على الدوام الى البلاد التي انشأتهم وتناسلوا فيها ، فكانوا اشبه بسياح وفاتحين عابري سبيل في

اوربا : من ورائهم قبور اجدادهم ، ومهاد عباداتهم وكل ما يقدسونه ويحترمونه ، وامامهم شعوب يكرهونها ، واديان يريدون القضاء عليها ، وبلاد يتراءى لهم ان الباري تعالى يلعنها · واهمّ ما اخر الاتراك وقادهم الى انحطاطهم ، ذكرى مجد سالف ، واعجاب وطني لا تناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم ، فكانوا يستهينون ، ولهم القوة ، بالاخطار التي تهددهم فاذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرابين واذا غلبوا حملوا على رؤسائهم ·

هذا رأي المؤرخ الافرنسي في العثمانيين وعلة انحطاطهم وقال غيره واغرق : ان شأن الاتراك العثمانيين في البلاد التي يفتحونها اذا رحلوا عنها شأن جماعة من البدو نزلوا منزلاً موقتاً ضربوا خيامهم فيه ، اذا ترحلوا عنه من الغد لا تشاهد بعدهم في الارض التي نزلوها سوى آثار اطنابهم ، وعمد خيامهم فقط ·

☆ ☆ ☆

حملة محمد علي على الشام وهزيمة الاتراك } اظهر محمد علي الكبير للدولة العثمانية وهو بعض عمالها مثالاً مجسماً من التجدد في الممالك ، وبدت امارات قوته بعد ان قرض المماليك من مصر ، فلم يسع الباب العالي الا الاعتراف بسلطته ومراعاته ومحاسنته ، شأنه مع كل عامل احرزه قوة ، على شرط ان يؤدي الجباية في أوقاتها ، ويعرف كيف يصانع رجال الدولة وسلطانهم · وكان محمد علي أسعد طالعاً من سلطانه ، لانه لم يصطدم يوم قام باصلاحه بما اصطدم به السلطان محمود في تطبيق الاصلاحات ، ورأى من المصريين قبولاً لدعوته ، واستعداداً للمدنية ، وهو لم يقاوم الطبيعة كما قاومها الترك العثمانيون في السياسة التي استخدموها للقضاء على العناصر ، بل استعرب وتمصر وألف بطانته من كل من يخدم مصر بدون تعصب لقومية ولا عصبية شعوبية ·

فقام بما أراد في مملكته الصغيرة أحسن قيام ، وفتح صدره لكل جديد ، بل فتحت مصر بفضله صدرها لذلك · بيد ان محمد علي لم يقف عند الحد الذي بلغه من الاستئثار بوادي النيل ، وطمح الى التوسع في الملك ، شأن عظماء الفاتحين المدوخين للممالك الطامعين في بسطة السلطان ، ولكن اي البلاد يفتح ؟ هل يتوسع في افريقية ؟

في صحراء ليبيا وصحراء النوبة وهي أصقاع لا توازي العناء · وربما صدمته دول الاستعمار عن التوغل في شمالي افريقية او في أواسطها ، ام يقصد الشام وهي مفتاح كل فتح ، وفيها من العمران ما يوازي العناء في استصفائها ، وبينها وبين سكان مصر من وجه الشبه ما لا ينكر محله ، ثم لا يصعب عليه اذا خفقت عليها أعلامه ، ان يتقدم الى الامام ، ويملك من بلاد العرب والترك ما طاب له ، ولا يعلم ما تحدثه الايام ·

بحث محمد علي عن وسيلة لذلك فلم يلبث طالعه السعيد ان خلق له سبباً معقولاً لفتح الشام ، وذلك ان بعض فلاحي الشرقية بمصر ضاقت نفوسهم من إعنات عماله بالجندية والضرائب ، فلم يسعهم الا ان يهاجروا الى جهات غزة ملتجئين الى والي عكا ، وكان عددهم ستة آلاف ، فطلب منه محمد علي إرجاعهم خوفاً من كثرة عدد من يتبعهم الى الشام ، فامتنع الوالي من ذلك بدعوى ان الاقليمين تابعان لسلطان واحد ، فاستشاط محمد علي غضباً خصوصاً وهو الذي استرضى خاطر الدولة على والي عكا وكانت غضبت عليه ، ودفع عنه ستين الف كيس غرامة اقتضتها منه لترضى عنه ، فاتخذ عزيز مصر من ذلك حجة لفتح الشام فأمر سنة ١٢٤٧ ه باعداد جيش للسفر اليها عن طريق العريش وطريق البحر في آن واحد ، وذلك لمحاصرة عكا من جهتين ، وعين ولده ابراهيم باشا قائداً عاماً للجيوش ، وسليمان بك الفرنساوي قائم مقام له ، وجند ستة الايات من المشاة واربعة من الفرسان ، ومعهم اربعون مدفعاً وكثير من مدافع الحصار الضخمة ، وما يلزم ذلك من الأعتاد والمؤن · فوصل ابراهيم باشا مع الاسطول الى حيفا وفتحت له غزة ويافا والقدس ونابلس ، وكان أهل حيفا يبلغون اذ ذاك ثلاثة آلاف نسمة ، وعكا اشهر مدن الشام بحصانتها وفيها خمسة آلاف مقاتل ، فدام حصارها سبعة أشهر تحاصرها من البحر بوارج حربية مسلحة بالمدافع الكبيرة ، ومن البر ثلاثون الف جندي ، وبريطانيا سلطانة البحار متغاضية عنه طوعاً او كرهاً ، اذ كان لمحمد علي من فرنسا نصيرة وظهيرة ، وليست بريطانيا حرة مطلقة في البحر المتوسط لتضرب اسطول محمد علي منذ أقلع من الموانئ المصرية الى السواحل الشامية ·

وبعد فترة قليلة تمكنت الدولة من تجنيد عشرين الف مقاتل بقيادة عثمان باشا والي حلب ، فترك ابراهيم باشا قسماً من الجيش على عكا ، والتقى في ضواحي حمص مع القسم الآخر بالجيش العثماني الذي كان كأخلاط الزمر لا نظام له ولا دربة ، فأبلي المصريون بلاءً حسناً حتى أوصلوا العثمانيين الى العاصي وغرق كثير منهم فيه ، واختفى عثمان باشا في حماة ، ثم احتل ابراهيم باشا بعلبك وعاد الى عكا وشدد الحصار عليها ففتحها بمعاونة العرب والدروز والموارنة الذين أتوه بانفسهم طوعاً بعد ان ظهر على الاتراك في أرض حمص ، وأتاه الامير بشير الشهابي الى المعسكر يريد الدخول في طاعته . فتحت عكا بضرب المدافع ثلاث ثغرات من سورها واستمر القتال بالسلاح الابيض فاستسلمت الحامية ، وأُخذ عبد الله باشا واليها اسيراً وحمل الى مصر مكرماً ، ثم فتح الاسطول المصري سواحل الشام كاللاذقية وطرابلس وبيروت وصيدا وصور . وبعد ان فتح ابراهيم باشا عكا قصد دمشق ومعه الامير بشير وأُمراء حاصبيا وراشيا فجمع علي باشا والي المدينة عسكراً من الاكراد وأحداث البلد قدر بعشرة آلاف ، وكشف ابراهيم باشا بمنظاره خيول الاكراد ومقاتلة الدماشقة فوجه خيل الهنادي لمقاتلة الاكراد ، ونبه على العسكر النظامي ان يقاتلوا الدمشقيين ولا يؤذوهم ، بل يطلقون البنادق في الفضاء ، فلما سمع الدمشقيون أصوات النار تهاربوا وقاتل الاكراد جهدهم حتى غُلبوا ، وفي أثرهم خيل الهنادي تقتل من تلحقه منهم .

* * *

تقدير مؤرخين وشاعر لغلبة محمد علي

يؤخذ مما قاله البيطار ان ابراهيم باشا قد ساعده الامير بشير الشهابي ورؤساء جبل نابلس ، لان عبد الله والي عكا كان حاصر قلعة صانور وهدمها ، وحصل منه ضرر لاهل نابلس وكان ذلك من اسباب الغلاء الذي وقع في الديار الشامية ، وان ابراهيم باشا بينا كان جيشه على عكا يقاسي الأهوال ويتجندل منه الرجال اثر الرجال ، جاء عباس باشا بن محمد علي باشا الى البقاع وحصن بعض القلاع هناك ليقطع الطريق على العساكر العثمانية الآتية لقتالهم ، وافترق اهل جبل لبنان وتلك النواحي فرقتين ، فتابع النصارى

منهم الامير بشيراً المتفق مع ابراهيم باشا ، وخالفهم الدروز وأظهروا الطاعة للسلطان ، ثم قصد ابراهيم باشا الى طرابلس وحمص ودخلها بلا قتال .

قال وتوجه إبراهيم باشا الى بعلبك وجاءه المدد من العساكر والذخائر ، وعاونه اهل الجبل من المسيحيين والدروز ، وكان قبل ذلك وقعت بين هاتين الطائفتين فتن فرجع اليهم إبراهيم باشا وكسر شوكتهم فأطاعوه ، ثم دخل عسكر إبراهيم باشا عكا من الابراج على السلالم . وذكر بعضهم ان من جملة من قتل من عسكر إبراهيم باشا اثنا عشر الفاً ومن عساكر عكا نحو خمسة آلاف قال : وفي ثالث المحرم ١٢٤٨ أرسل ابراهيم باشا الى دمشق يطلب منهم ان يمكنوه من الدخول اليها فلم يرسلوا اليه جواباً ثم طلب ثانياً فأرسلوا اليه انا لا نمكنك من الدخول اصلاً ، وفي رابع عشر المحرم وصل بعض جيوشه الى قرب قرية داريا فخرج الى اقائهم خلق كثير من اهل دمشق فقاتلوهم قتالاً يسيراً ولم يقصد كل من الفريقين إضرار الآخر وقتل من كل فريق رجل او رجلان ، ثم دخل ابراهيم باشا دمشق وقد فر منها واليها علي باشا وعسكره والقاضي والمفتي والنقيب ومحمد شور بجي الداراني وجميع أبناء الترك الموظفين وغالب أعيان دمشق ، ثم عزم على قتال حمص فحصل بينه وبين العسكر السلطاني قتال قتل منهم نحو خمسة آلاف وأسر نحو اربعة آلاف وفر باقي العسكر والباشوات وكانوا نحو ثلاثين الفاً وغنم أموالهم وعتادهم وسار بعد ذلك الى حماة فحلب فملكهما بلا قتال ، ثم جاء انطاكية وعينتاب واللاذقية واستولى على حصن الاسكندرونة وعلى حصن بانياس وبيلان وكان فيه حسين باشا فحدثت بينهما مقتلة عظيمة .

وفي البهجة التوفيقية ان الدولة جيشت جيشاً آخر بلغ عدده ستين الف مقاتل بقيادة حسين باشا فالتقى الجيشان أمام حمص وانهزم الجيش التركي وبلغ عدد القتلى من الترك ٢٠٠٠ والاسرى ٣٠٠٠ وتقهقر الجيش التركي الى حلب ، وحاول حسين باشا الدخول الى حلب فمنعه اهلها خوفاً من انتقام ابراهيم باشا فتقهقر الى بيلان فتقدم الجيش المصري ودخل حلب وتأثر الجيش التركي فهزمه وغنم منه خمسة وعشرين مدفعاً وكان غنم منه اولاً اثني عشر مدفعاً ثم غنم اربعة عشر مدفعاً آخر وقتل من العثمانيين اربعة آلاف وقتل من المصريين خمسمائة وخمسون ووقع في يد ابراهيم باشا

الفان من العساكر النظامية اسرى من الارناؤد والهوارة فأعطاهم الامان وأدخلهم في جملة جنده ، واختفى حسين باشا ولم يعرف له اثر ، واجتاز ابراهيم جبال طوروس وكان السلطان في هذه المدة جيش ستين الف مقاتل آخر — وفي رواية أُخرى مئة وخمسين الف عسكري بالمدافع والمهمات — ولم يكن مع ابراهيم باشا سوى ثلاثين الفاً فالتقى الجيشان في سهول قونية ووقع القائد رشيد باشا اسيراً في ايدي المصريين وانهزم الاتراك وغنم المصريون منهم في هذه الوقعة نيفاً ومائة مدفع وكثيراً من الذخائر واسروا عشرة آلاف عسكري بينهم كثير من الضباط والقواد وقتل منهم ثلاثون الفاً .

ويقول مشاقة : ان جيش حسين باشا لم يكن سوى اربعين الفاً من الترك ، على حين لم يكن مع ابراهيم باشا سوى اثني عشر الفاً وكان ابقى من عسكره جانباً للمحافظة في البلاد المفتتحة وهلك الآخر في الحرب اوالوباء فغلب وهذا اقرب الى المعقول . وقد استغرب كامل باشا لِمَ لم تستطع الدولة ان تجيش في الحال نحو عشرين الى ثلاثين الف جندي من حلب ودمشق وترسل اسطولاً الى عكا يصد عنها اسطول محمد علي او يقيم العثرات في سبيله ، كما انه استغرب كيف ان العثمانيين لم يحفظوا خط رجعتهم ولم يقفوا موقفاً يردون به عادية اعدائهم وانهزموا تحت نيرانهم الى الاسكندرونة تاركين خمسة وعشرين مدفعاً والفي اسير على حين لم يفقد من المصريين سوى عشرين جندياً .

وقد وصف الشيخ امين الجندي الشاعر صاحب الديوان فعال الاتراك وهنأ عزيز مصر وولديه ابراهيم وعباس بفتح الشام فقال من قصيدة :

والله غيَّر ما بهم من نعمة ... لما تغير حالهم وتبدلا
وقداستباحواالمنكرات فلا تسل ... عما توقع منهم وتحصلا
وقضاتهم للسحت قدا كلوا فهل ... أبصرت حياً من مضرتهم خلا
نبذواالشريعة من وراءظهورهم ... وطغوا وزادوا في الضلال توغلا
وتمسكوا بالبدعة السوداء لا ... بالسنة الغراء فارتدوا على
ومشايخ الاسلام اصبح علمهم ... جهلاً فلم ترِ قط منهم اجهلا

وقال في وصف وقائع المصر بين مع الترك :

فترى الكماة مبددين على الثرى واخيل من وقع القنابر جفلا
أضحت طعاماً للطيور لحومهم ودماؤهم للمشرفية منهلا
واختل عقد نظامهم رعباً وقد غطوا الرؤوس ولم يغطوا الاسفلا

وقال : واتى بهم للرستن المشهور اذ بين المقابر قد تستر واختلا
حيث الجهاديون حل وزيرهم في باب حمص وقد ابى ان يدخلا
قامت بخدمته وطاعة امره حمص اذ امتثلت ولم تبدِ القلا
لما رأى سيف الاله أحدَّ من كل السيوف مدى الزمان واطولا
القى السلاح تأدباً وتواضعاً عند المزار وللضريح استقبلا
حتى اذا نفدت ذخائره وما الفى بحمص للعساكر مأكلا
امضى الى ارض القصير ركابه يبغي العساكر ان تقوم وترحلا
وهناك حاربهم وفرّق جمعهم في صولة والبر بالقتلى امتلا

وقال : هل يغلب الاسد المجرب ثعلب مهما استعان بمكره وتحيلا
والى حماة الشام سار وبعدها لمعرة النعمان يخترق الفلا
حتى اذا اقتحم المضيق ببأسه وعلى الجبال سما واشرف واعتلى
تركوا الذخائر والخيام وكلها يخشون منه لدى الفرار تثقلا
من يخبر الاتراك ان جيوشهم كسرت وان حسينهم ولّى الى
والعز بالعرب استنار مناره ببزوغ شمس مراحم لن تأفلا
يا حبذا جرثومة الفضل الذي طابت فروعاً حسبما قد اصلا

✲ ✲ ✲

سقوط الاناضول وتضاؤل السلطان العثماني امام الجيش المصري

وما زال الجيش المصري يتقدم في الاناضول حتى وصل الى كوتاهية واراد ان ينزل بورصة بحجة ان ليس له في اواسط الاناضول حطب ومؤنة في الشتاء ، وكانت الطريق الى الاستانة امامه مهيعاً لا يقف فيها ما يوقف سيره ، واهل الاناضول والاستانة راضون عنه واشاع ابراهيم باشا ان مقصده من غزوته هذه

توطيد دعائم السلطنة · وكانت حاشيته من الاوربيين تحثه كل الحث على ان يواصل السير ويفتح الاستانة ، وان لا يقتصر على فتح الشام وعلى ما اخذه من آسيا الصغرى ولو استمع اليهم لقامت الدولة المصرية في القسطنطينية بدلاً من دولة الاتراك ، فاعاد محمد علي بذلك الدولة العربية · قال دي لاجونكيير : ولم يكن لمحمد علي هذا النظر البعيد ، وهذا الطموح ، بل لم يكن يطلب غير الاستقلال والتوسع في الملك · وبقيت هذه المشكلة التي كان يتأتى ان يكون منها عراك بين قوميتين العربية والتركية ، مقصورة في دائرة معينة من الحرب ، لم تتعد حد القتال بين ملك واحد عماله الناشزين عليه ·

ولما رأى السلطان محمود ما آلت اليه حاله ، عرته الدهشة وداخله الفزع ، فطلب معاونة الدول العظمى علناً لتعينه على محمدعلي ، وحرص خصوصاً على معاونة روسيا التي اصبحت بعد معاهدة ادرنة ترى نفسها حامية الدولة العثمانية ، وليس من مصلحتها ان تكون هذه الدولة قوية مقاومة ، فاخرجت روسيا الى الاستانة اثني عشر الف جندي ، واستدعي فيلق البغدان وهو مؤلف من اربعة وعشرين الف مقاتل ليأتي الى الاستانة ، وعقدت معاهدة في كوتاهية على ان تبقى الشام واذنة وجزيرة كريت لمحمدعلي و يرحل عن الاناضول على مال معلوم يدفعه كل سنة قيل انه ستون الف كيس وذلك لمدة خمس سنين والسلطان لا يسأل محمدعلي غير ذلك ، والخطبة تلقى في المساجد باسم السلطان · وعقدت روسيا معاهدة سرية مع الدولة العثمانية مدتها ثماني سنين ، دعيت معاهدة « خنكار اسكله سي » وهي دفاعية هجومية كان القصد منها جعل المضايق في قبضتها فهلعت قلوب اوربا لذلك واخذت انكلترا تحسب لهذه المعاهدة الف حساب ·

ولما انتهت شؤون الفتح جعل ابراهيم باشا مقره في انطاكية ، فكان يحضر احياناً الى حلب ودمشق وعكا ثم يرجع حتى يرقب عن أمم حالة بلاد الاكراد ، وكانت منتقضة على الدولة العثمانية اذذاك · وكان ابراهيم باشا يوقع على كتاباته الرسمية (الحاج ابراهيم والي جدة والحبشة وسرعسكر حالاً) وبعد فتوح عكا صار توقيعه هكذا (سر عسكر عربستان) اي قائد جيوش بلاد العرب وفوض محمدعلي ولاية دمشق الى شريف باشا نسيب ابراهيم باشا وماليتها الى حنا بك البحري وكان هذا من المقربين جداً من محمد

علي ، ثم رأت الحكومة المصرية فصل حلب عن ولاية دمشق (١٨٣٨م) واقامت والياً عليها اسمعيل بك ابن عم ابراهيم باشا حاكماً مستقلاً ، ورجح مشاقة ان السبب في ذلك الثورات التي حدثت في البلاد والقلاقل التي ذهبت براحة الاهالي والتعدي والحروب التي افنت معظم الرجال لانها كانت كلها محصورة بادارة واحدة وهي دمشق ، ولذلك حصل للحاكم العام عثرات جمة في تنفيذ اوامره في انحاء البلاد للبعد . وعهد تنظيم مالية حلب لجرمانوس البحري شقيق حنا البحري ، وقيل ان حكومة محمد علي كانت الى الرفق بدمشق اكثر منها في حلب ، لان الحلبيين قاوموا ابراهيم باشا بعض المقاومة ، ولم ينزلوا عن القلعة حالاً ، وقال مشاقة : بل دخل بدون معارض فوضع عليهم غرامات حربية وغرمهم مالاً لاحتكار بعض الاصناف حتى يستفيد من ذلك اعوانه .

* * *

اعمال ابراهيم باشا في اصلاح الشام

وكان من اول اعمال ابراهيم باشا الجليلة في بلاد الشام ترتيب المجالس الملكية والعسكرية ، واقامة مجلس الشورى وغيرها من النُظُم الحديثة ، وترتيب المالية ، فجعل نظاماً لجباية الخراج ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل لا تفاوت في طبقاتهم ومذاهبهم ، ولذلك لم يلبث الامراء والمشايخ وارباب النفوذ ان استثقلوا ظل الدولة المصرية ، وتمنوا رجوع العثمانيين ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وينالهم من ذلك مصة الوشل ، مع ان البلاد رأت في ايام ابراهيم باشا ابطال المصادرات وتقرير حق التملك وتوطد الامن في ربوعها ، وأُحييت الزراعة والتجارة والصناعة ، وعممت تربية دود الحرير ودود القز واستخرجت بعض المعادن ولا سيما معدن الفحم الحجري في قرنايل (لبنان) وفرض على لبنان ٦٧٨٢ كيساً يتقاضى الامير ضعفيها ويدخر في خزانته الخاصة المال الزائد على المفروض .

واكد كثيرون ان بعمله هذا استعادت اكثر قرى حوران وعجلون وحماة وحمص وغيرها من اعمال الشام عمرانها القديم . واخرب بعض القلاع التي كان يعتصم فيها الثائرون احياناً مثل قلاع جبل اللكام وقلعة القدموس ، وقرب العلماء والشعراء ، ورخص للاجانب في ارسال معتمديهم الى دمشق وكانوا يمنعون من دخولها قبله فينزل

وكلاؤهم السواحل مثل صيدا وعكا وبيروت وطرابلس . ويقال على الجملة ان الناس حمدوا دولة محمد علي في الشام ولم يتبرموا بها لو لم يقم ابنه ابراهيم عملاً بايعاز ابيه لتجنيد الشبان ولو لم يثقل كاهل الاهلين بالضرائب — واقل الضرائب الشخصية ١٥ قرشاً واعظمها خمسمائة قرش — فان هذا مما نفرت منه بعض القلوب ولا سيما من كان يقع عليهم عبء معظمها مثل اهل حلب واهل دمشق .

* * *

فتوق وفتن وحصار الفلسطينيين لابراهيم } لم تقع حوادث مهمة في السنين الاولى التي قضاها ابراهيم باشا في الشام اللهم الا ما وقع في القدس سنة ١٢٤٩ من فتنة بين المسيحيين قتل فيها خلق كثير وما كان من عصيان النصيرية فانتدب الامير بشير الشهابي لتأديبهم فأرسل عليهم عسكراً خيم في البهلولية فهرب النصيرية بقضهم وقضيضهم وتركوا مواشيهم وغلالهم وامتعتهم ففتحها العسكر واحرق لهم خمس عشرة قرية وقطع اشجارها ثم احرق لهم ثلاثين قرية أُخرى ثم خمسين اخرى من مطل حمد ودارت مناوشات بين عسكر الامير والنصيرية . وعلل مشاقة هذه الوقائع بان المصريين لما شرعوا بتغيير عوائد العشائر ، وطلب اموال اميرية زيادة على ما اعتادوا دفعه ، نفرت قلوب الاهالي منهم وصاروا يتمنون رجوع حكم الاتراك وابتدأ الناس ينتقضون عليهم ، واضطر المصريون الى الاستكثار من الجند لحفظ مركزهم الجديد فعصت عليهم طائفة النصيرية في جبال اللاذقية فأرسل الحاكم عسكراً لقتالهم من لبنان وحاصبيا وراشيا فتوغلوا في تلك الجبال وامتلكوا عدة محال ولعدم العناية واستخفافهم بالخصم آلت الحال الى تراجعهم وقتل كثير من رجالهم وآبوا الى اللاذقية يتعثرون بأذيال الخجل الى ان جردت الحكومة على الجبال المذكورة عسكراً كثيراً وقهرت اهلها .

واوعز ابراهيم باشا الى الامير بشير ان يرسل ولده بالفي مقاتل الى طرابلس سنة ١٨٣٣ م ١٢٤٩ يجتمع هناك بسليم بك احد قواد المصريين لتأديب العكار بين والحصنيين والصافيتين فذهب وقبض على كثير من العصاة في طرابلس وعكار وكثير من الاعيان وجرت بينهم عدة وقائع . والغالب ان وقائع جبال النصيرية امتدت منها الى

صافيتا وعكار والحصن او امتدت من هذه الى تلك . وفي سنة ١٢٥٠ حدث هياج في حلب ثم في بيروت وانطاكية ، واشتغل ابراهيم باشا بادخال من وقع في يديه من الرجال في سلك الجندية ، فهرب الناس وتشتتوا وتوقفت الاعمال ، وطلب من نابلس انفاذ قانون الجندية فخرج اهلها عن الطاعة وحاصروا ابراهيم باشا في القدس نحو شهرين وكان لبيت ابي غوش بين القدس ويافا يد طولى في هذه الفتنة ورئيسها الشيخ قاسم الاحمد حاكم نابلس فلما ضاق الحصار بابراهيم باشا حتى اضطر محمد علي ان يجيء بالذات الى يافا ارسل الى قاسم الاحمد كتاباً يتلطف فيه مصحوباً بمال جسيم ويقول انه لا يأخذ منه عسكراً ولا مالاً فرضي قاسم الاحمد وفك الحصار وخرج ابراهيم باشا حتى وصل الى يافا فوجد العساكر قد وصلت لنجدته فرجع على عقبيه في الحال واشتغل بالقتل والنهب والسلب فهرب قاسم الاحمد الى الخليل فلحقه ابراهيم باشا بعسكره واشتغل بالنهب والقتل حتى لم يبق ولم يذر ثم دار على الساحل فأدب العصاة من اهله ولم يزل يتتبع آثار قاسم الاحمد حتى قبض عليه وقتله في دمشق وقتل اربعة من اولاده بالسيف وامر بجمع السلاح من جميع البلدان .

وفي تاريخ فلسطين ان ابراهيم باشا لما قضى باخذ اموال ورجال من فلسطين ندم اصحاب الاقطاعات على سكوتهم واجتمعوا في قرية بيت وزن (غربي نابلس) واتفقوا على محاربته فنكث جماعة منهم مالوا معه ودلوه على الطريق والمياه فعاجل المخالفين قبل ان ينظموا حركتهم وفتح طريق طول كرم ثم نابلس وعطف على القدس فاحتلها وقد تهافت الاهالي على قتاله من كل جانب فهاجمهم وكسر جمهور القبائل الشمالية عند شعفاط ولكن اهالي الخليل هزموه عند مبرك سليمان وحصروه في القدس فاستعاد نشاطه وقارعهم ثانية وظفر بهم .

***

خطأ اداري لابراهيم باشا ووقائعه في اللجاة ووادي التيم مع الدروز	لا جرم ان ابراهيم باشا أخطأ في تطبيق قانون التجنيد في الشام على نحو ما فعل ابوه في مصر وكان عليه ان يقنع والده بالعدول عنه الى حين ،

لان صاحب البلاد الاصلي لم يقطع آماله من استرجاعها وهو يسعى بكل ممكن الى

استخلاصها من غاصبها ، وكل ما تنفر منه قلوب الرعية يفرح به لانه يخدم مصلحته . فمسألة التجنيد قللت من انصار الحكومة المصرية في البلاد لقلة اعتياد الناس الجندية في ذاك العصر ، اذ أصبح الناس يعدون التجند من باب القاء النفس في التهلكة ، وزال من الافكار معنى الدفاع عن الوطن والذب عن مقصد شريف ، وهذا الروح كان قد ضعف في الامة بعد ان حكمها الغرباء قروناً بالعنف والقهر . قال في المعلمة الاسلامية : ان تجنيد الشعب في الشام ادى الى هجرة عدد عظيم من اهلها الى آسيا الصغرى والعراق . ووضع اليد على الحيوانات للاعمال العسكرية ، نتج منه انحطاط الزراعة والتجارة ، ولئن كان الامن قد استتب في أنحاء البلاد فان الغضب العام لم يكن اقل منه : وجاء في تاريخ حماة ان ابراهيم باشا كان يحشر الناس لبناء الثكنة العسكرية في حماة ويقبض على كل من يجده في البلد فكانوا يفرون منه الى رؤوس الجبال وتارة يختبئون في الانهار وربما قلع الانسان عين نفسه او قطع إصبعه ليعفى من الخدمة العسكرية .

ولقد اتفق دروز وادي التيم مع دروز حوران وعرب تلك الجهات وابوا تجنيد اولادهم ، فأرسل والي دمشق (١٢٥١) عليهم جنداً فالتقوا به في جنوبي اللجاة في وعرة هناك كتبت فيها الهزيمة على المصريين ، ثم أرسل عليهم قائداً اسمه محمد باشا فقاتلوه وقتلوه وقتلوا خلقاً كثيراً ، ثم أنفذ ابراهيم باشا احد رجاله شريف باشا الى قريه ام الزيتون في وادي اللوى في اربعمائة فارس فقتلهم الشيخ حمدان الدرزي عن آخرهم ولم يبق الا على مقدمهم . وذكروا ان سبب هذه الوقائع ان ابراهيم باشا طلب ١٨٠ نفراً للجندية من جبل الدروز الشرقي كما طلب ١٢٠٠ من دروز لبنان وأرسلهم الى عكا ، فطلب المشايخ ابدال ذلك بالمال وأوهموه الطاعة فلما عادوا الى بلادهم قلبوا له ظهر المجن ، فتوجه اليهم الجند بقيادة علي اغا البصيلي كبير طائفة الهوارة والصعايدة ومعه عبد القادر اغا ابو جيب فعقدوا هناك مع كبراء الدروز مجلساً للمشاورة في هذا الامر فامتنع الدروز من تسليم الانفار وأرادوا الاستعاضة عن الاشخاص بالبدلات العسكرية . فقال البصيلي : اني أرسل مراسلة استشير بها افندينا . وعلى ذلك قرّ القرار . وفي تلك الليلة كبست الدروز العساكر وأذاقتهم كؤوس المنية ،

وقتل ابو جيب وكان المتسلم في حوران وجبل الدروز، ولم يسلم من القتل سوى البصيلي وخمسة عشر نفراً ثم جمع الدروز أمتعتهم ودخلوا اللجاة فجاءهم عسكر ابراهيم باشا وقتلوه وهذه هي الوقعة التي قتل فيها الفريق محمد باشا . وقد بلغ عدد المقاتلة من الدروز والعرب عشرة آلاف . وفي مدونات مشايخ الدروز أنفسهم ان المقاتلة منهم لم يتجاوزوا الثمانمائة مقاتل ومعهم مائتان من عرب السلوط أحلافهم . وكانوا يربطون الطرق و ينهبون القوافل بين بيروت ودمشق و يقتلون كل من وجدوه منفرداً من العسكر النظامي .

وروى مشاقة ان العسكر المصري الذي أُرسل لاول مرة على دروز حوران كانوا ٤٥٠ مقاتلاً من الهوارة قتلوا الا قليلاً ، فأرسل إبراهيم باشا عليهم نحو ستة آلاف من العسكر النظامي مجهزين بالمدافع مع ان الدروز يومئذ لم يكونوا اكثر من ١٦٠٠ مقاتل . ولما عجز شريف باشا والي دمشق عن كبح جماح الدروز جاء ابراهيم باشا من شمالي الشام وكان هناك يرقب حركة الاتراك فساق قوة أُخرى ، فرأى الرعب قد دبَّ في قلوب عسكره من رهبة الدروز فعمد الى ضربهم من جهة صرخد بفرسان الاكراد . ودارت رحى الحرب بينهم وتهارب الدروز من وجه ابراهيم باشا ورجاله الى ان قادوهم الى سهل دامة ، وهناك رجعوا عليهم واعملوا السيف فيهم وفتكوا بجموعهم ، ولما عرف ابراهيم باشا ان عسكره ذُعر من شجاعة الدروز عمد الى تسميم الماء الذي كانوا يستقون منه فأرسل الى الدكتور كلوت بك يستحضر منه محلولاً قاتلاً فرفض هذا إجابة طلبه وحاول ان يمنعه من استعمال تلك الواسطة لما فيها من القسوة التي تشمل الحريم والاطفال معًا ، اما ابراهيم باشا فكان يرى مصلحة الدولة اولاً والرعية ثانيًا ، ولما عجز عن اخضاع العصاة الزم علماء الكيمياء بصنع محلول سليماني القاه في المياه وأعلم الدروز بذلك ، فاضطر الدروز الى ترك المكان بعد ان مات منهم عدد كبير عطشًا وأتوا الى اقليم البلان .

وكان دروز وادي التيم واقليم البلان ينجدون دروز حوران بقيادة شبلي العريان ولما ضاق بهم ذرع ابراهيم باشا استدعى من مصر عسكراً من الارناؤد فأمده ابوه باربعة آلاف جندي بقيادة مصطفى باشا وهم الذين حارب الدروز بهم في الوعرة

ايضاً فلم يظفروا بهم · وكانت دروز البلاد تنجد دروز حوران سراً اولاً ثم أخذت تنجدهم علناً · اما نصارى لبنان فتجندوا اولاً مع العساكر المصرية وحضروا الوقائع التي حدثت بين المصريين والدروز في حوران ووادي التيم · وتجمع العصاة في قرية حينة من اقليم البلان ، فأطلق الامير مجيد شهاب الغارة عليهم فانهزموا وقتل منهم ١٥٠ رجلاً وبلغ شبلي العريان ذلك فحضر بعسكره من الوعرة وحاصر العسكر المصري في سراي حاصبيا فقتل من امراء حاصبيا الامير علي ثم أرسل العريان الى الامير محمود خليل ان يخرج من السراي ولا يشارك العسكر النظامي فخرج بجماعته اللبنانيين ، واضطرمت نار الحرب بين العسكر المصري والعريان ، ففر الجند المصري منهزمين نحو البقاع فتبعهم العريان بمن معه وأعمل في أقفيتهم السلاح فقتل منهم نحو ثلاثمائة رجل وتشتت الباقون في البقاع فظفر بهم العريان والبقاعيون ، ثم جمع ابراهيم باشا ما تشتت من عسكره في البقاع وعاد فخيم في قرية عيحا قرب راشيا ، فأتته الدروز وتحصنوا قبالته في غابة هناك ، وانتشب الحرب بينه وبينهم فلم يظفر بهم ، ثم اشتبك الدروز مع عسكر ابراهيم باشا في وادي بكا فهجم عليهم ابراهيم باشا بعسكره وأطلق عليهم النار وأطبقت العساكر من كل جانب ، فقتلوا من الجندي المصري وقتل منهم مقتلة عظيمة اضطروا عقيبها الى الفرار · قيل انه قتل من الدروز في الوقعة الاولى ٦٢٠ عدا من تأثرهم ابراهيم باشا وقتلهم ، ثم حدثت وقعة في قلعة صخور وتفرق الدروز ، وطلب العريان الامان من ابراهيم باشا فأجابه اليه وجعله قائداً على الف فارس هوارة · وفي سنة ١٢٥٢ توجه الامير مسعود الشهابي لحرب العرب العصاة في الصفا فاستسلموا له ومات من عسكره خمسون جندياً دنقاً ·

نعم بدأ الاشمئزاز من حكومة محمد علي سنة ١٢٥٠ لما صدر امره الى ابنه ابراهيم باشا باحتكار أصناف الحرير للحكومة ، وبضرب ضريبة جديدة على الاهالي ، وبتجهيز عدة الايات من سكان الشام ، وزاد الحنق لانزع السلاح من الشاميين ، فابتدأت الثورة بجوار بحيرة لوط وعلى شواطئ الاردن ، وفي هذه الوقعة التي انتهت بقتل قاسم الاحمد حاكم نابلس بدمشق ، قتل ابراهيم باشا كثيراً من زعماء الاتراك ممن كانوا ساعدوا العصاة عليه ، واخذ الدروز والنصيرية والموارنة يستعدون للثورة

يهيجهم عليها عمال الدولة العثمانية ، و بريطانيا تحرض العثمانيين و تعلمهم كيف يسلكون . وقد روى كامل في تاريخه ان ابراهيم باشا فقد من جيشه في السنتين التاليتين لامر التجنيد نحو عشرين الفاً . وممن انتقض على ابراهيم باشا اهالي الكرك فانه لما فتح بلادهم ونظم ادارتها وجعل لها حامية من جنده ، فلم يمض الا قليل حتى تمرد السكان وذبحوا الحامية والموظفين على بكرة ابيهم ، وقتلوا كتيبة من جنده كانت آيبة الى مصر ، فأضلوها الطريق وأهلكوها الا قليلاً .

* * *

سياسة الاتراك والدول مع محمد علي وكانت الدولة العثمانية بمعاونة بريطانيا العظمى لا تفتأ منذ دخول المصريين الى الشام تدس الدسائس في البلاد ، وتستميل رؤساء العشائر وارباب الزعامات والاعيان ، بالمال تارة والوعود الخلاَّبة أُخرى ، وبعد ان عقد محمد علي مع سلطان العثمانيين العقد الثاني وهو خمس سنين ايضاً ومضى اكثره وأَدى المقرر عليه من المال ، ارتأى العثمانيون بايعاز بريطانيا ان يستخلصوا الشام وأذنة من محمد علي ، فأَرسل السلطان محمود سنة ١٢٥٥ حافظ باشا في سبعين الف مقاتل وفي رواية مئة الف مجهزين بمدفعية مهمة ومعها من كبار طائفة من ضباط روسيا وبروسيا وزحف ابراهيم باشا في اربعين الفاً حتى انتهى الجيشان الى سهل نِزّيب من عمل البيرة على الفرات ، واشتبك القتال بين الجيشين ثماني ساعات ونصفاً فتراجع الجيش العثماني بعد ان قتل منه ستة آلاف وقيل اربعة وأُسر اثنا عشر الفاً ، وغنم المصريون من العثمانيين في هذه الوقعة ١٦٦ مدفعاً و٢٠ الف بندقية ، وقتل من المصريين اربعة آلاف وقتل المصريون من الاتراك في حال انهزامهم ما يبلغ خمسة أَسداسهم .

انتهى خبر الهزيمة الى الاستانة بعد ثمانية ايام من وفاة السلطان محمود الثاني وجلوس ابنه السلطان عبد المجيد وهو فتى في السادسة عشرة من عمره . جلس السلطان الجديد وسلطنته مهددة بجيوش محمد علي ، وليس للدولة جيش وقد فقدت اسطولها في الاسكندرية ، سلمه لمحمد علي امير البحر احمد فوزي باشا ، فرأى السلطان ان يسادد و يقارب ، فارادته الدول على ان يتربص ريثما يتوفق الى حل ّ مرضي ّ

باجماع الآراء بينهن ، فكان من ذلك حل المسألة المصرية العثمانيـة بالطرق السلمية الحربية ، فاتفقت الدول العظمى ما خلا فرنسا ان لا تجدد معاهدة « خنكار اسكلهسى » بين العثمانية والروسية ، وان السلطان اذا اقتضت له معاونة لسلامة السلطنة تعاونه الدول على ان تبقى المضايق والدردنيل تحت اشرافهن ، وكان محمدعلي يتذرع لدى الباب العالي ان تكون مصر والشام واذنة ملكاً وراثياً له ولاولاده من بعده فأرضته الدول بمصر فقط ولم تنفعه معاضدة فرنسا ، وقضي على محمد علي ان يخرج من اذنة والشام في عشرة ايام، وان لاتبقى له مع مصر سوى باشاوية عكا اي فلسطين من ارض الشام . تقرر ذلك في مؤتمر لندرا (١٨٤٠) بين انكلترا وروسيا و بروسيا والنمسا بيد ان محمد علي ابى ان يخرج من الشام ، فبعثت انكلترا باسطولها الى سواحل هذا القطر بقيادة روبرت ستوبفورد فضربت بيروت واستسلمت باقي الثغور كطرابلس وصيدا وصور وقاومت عكا ، وبعد ان اطلقت عليها البوارج الانكليزية قذائفها ثلاث ساعات اصابت مستودع البارود فانفجر وقتل عدداً كثيراً من الرجال ، ثم اضطرت العساكر المصرية الى العودة من طريق البر الذي كانت جاءت منه . وكانت فرنسا مناهضة هذه المرة للدول وهي الى جنب محمد علي تبرر عمله ، وتناصره برأيها ومعاونتها الادبية .

وكان السلطان عبد المجيد (١٢٥٥ — ١٨٣٩) نشر خلال هذه المدة خط كلخانه او البراءة السلطانيـة وهي اول قانون اصلاحي في السلطنة العثمانية يقضي باعطاء العناصر العثمانية حقها وحريتها ، ويضع نظاماً لاستيفاء الضرائب على نظام واحد ، وتطبيق القانون العسكري وغير ذلك من الامور الادارية ، فصفقت اوربا لقانونه ورجت الارتقاء لمملكته . وكان هذا القانون مما اوحت به بريطانيـا واملاه عقلاء الساسة من الاتراك في العاصمة .

* * *

انتواط عقد الحكم المصري ولما احس اهل لبنان بواسطة دعاة البريطانيين ان الدول ازمعت اجلاء الجيش المصري عن الشام بالقوة ان لم ينجلِ مختاراً ، اخذوا يناوشون الحامية المصرية وقتلوا بعض المنسلين من المصريين ، وكان

الامراء الشهابيون واللمعيون يقوون العامة سراً ويحثونهم على الثبات ، والافرنج يخبرون الناس باتفاق الدول الاربع النمسا وبريطانيا وروسيا وبروسيا مع الدولة العثمانية على استخلاص الشام من محمد علي ، ويحرضونهم على الدولة المصرية ، وان المراكب الحربية قادمة اليهم ، واشتدت الفتنة بين اهل الجبل والامير بشير واخذت البلاد بالخراب المتصل ، وحرق ابراهيم باشا بعض قرى الجبل وقتل رهباناً وسبى حريماً .

وكان امير لبنان في ظاهره مع ابراهيم باشا خوفاً منه ، وفي الباطن مع من يضمن له ولايته ، وقبض المصريون على ٥٧ رجلاً من اعيان لبنان بينهم اربعون من امراء الشهابيين كانوا يدعون اهل بلادهم لخلع طاعة المصريين ، فنفاهم ابراهيم باشا الى مصر ومنها الى السودان ، واخذ اعوان امير لبنان ينتقمون من الرعايا بجمع السلاح والخيل وطرح المغارم ، وجاء على الاثر الاسطول العثماني والاوربي في اربعين قطعة صغيرة وكبيرة ، تحمل خمسة آلاف وخمسمائة جندي عثماني والفي جندي اوربي ، فاخذ ابراهيم باشا يجمع شمله في داخلية البلاد ، ويستدعي جنوده من الساحل ، وبحسب تقارير ضباط الانكليز ان المقتول والمجروح والضائع من العسكر المصري لم يكن اقل من عشرين الف جندي .

وخرج ابراهيم باشا من دمشق (١٢٥٦) بعد ان فرق ذخائره ومتاعه على المساجد والجوامع وبيوت الارامل والايتام ، واخذ معه جميع الحبوب والمواشي خارجاً من باب الله ونزل في سهل القدم ، ومنها قصد الى مصر عن طريق البر . وقبل رحيله عن دمشق ارسل خالد باشا التركي من الساحل احمد اغا اليوسف في شرذمة من الجيش فخرج اليه ابراهيم باشا بجند قليل وهزمه شر هزيمة ، فرجع ابراهيم باشا بالغنائم والذخيرة الوافرة ، اما احمد اغا فنزل بعسكره بعيداً عن دمشق في احدى قرى الزبداني ينتظر اخلاء ابراهيم باشا المدينة ، ثم خرج ابراهيم باشا صادعاً بالامر الذي جاءه من والده بالجلاء عن الشام فخرج اهل دمشق لوداعه وخطبهم وحرضهم على الاخلاد الى الطاعة والسكينة ، ريثما تعود الحكومة العثمانية ، وعينت الدولة علي باشا الذي كان والياً على الشام يوم دخول ابراهيم باشا ، وكان اشد الاتراك تعصباً ، وبقي قنصل بريطانيا المستر وود الذي اثار الموارنة على ابراهيم باشا مفوضاً من الدولة

التركية بمراقبة اعمال عمالها ، وكان كثيراً ما يشير على الدولة بعزل هذا فتعزله ونصب ذاك فتنصبه ، وكان الموظفون العثمانيون معه كموظفين صغار في خدمة آمر مطلق ·

اراد محمد علي ان يقاوم دول اوربا ويظل في الشام ، ولكنه علم ببعد نظره ان ذلك متعذر ، وان اسطولاً ضرب بيروت واحرق الاسطول المصري ونزل تسعة آلاف جندي الى سواحل الشام ، وان الموارنة بعد ان كانوا عضد ابنه ابراهيم اصبحوا يعاونون الاوربيين على طرده من الشام ، وتقدم اميرالبحر باتيه امام الاسكندرية واخذ من محمد علي معاهدة لم يترك له بها سوى مصر ، وانه من مقتضى معاهدة الدولة العثمانية مع الدول ترك الحق لبريطانيا بالاتفاق مع النمسا في محاصرة فرض الشام · ومساعدة كل من اراد خلع طاعة المصريين ، والرجوع الى الدولة العلية ، وبعبارة أُخرى تحريضهم على العصيان لاشغال الجيوش المصرية في الداخل ، كي لا تقوى على مقاومة المراكب النمساوية والبريطانية ، وان يكون لمراكب روسيا والنمسا وبريطانيا معاً حق الدخول في البوسفور لوقاية القسطنطينية متى تقدمت الجيوش المصرية نحوها ·

* * *

فضل حكم محمد علي ﴿ كانت حسنات محمد علي في الشام اكثر من سيئاتها ، لانها وضعت اصول الادارة والجباية ورفعت ايدي ارباب الاقطاعات واعطتهم من الخزانة رواتب تكفيهم على حد الكفاية ، ولم يخلص من ذلك الا الامير بشير الشهابي والي لبنان ، فانه نال ولايته مباشرة من محمد علي في مصر ، وظل يتصرف بلبنان ، وبذلك رفعت سلطة المشايخ والامراء المستبدين · قال مشاقة : وكانت الدولة التركية خبيرة باحوال الشعب اكثر من الدولة المصرية فبعثت تدس الدسائس الى المشايخ وتغريهم بالمواعيد الفاحشة ليحضوا الشعب على شق عصا الطاعة · طمعاً بارجاع نفوذهم وكان النصيرية اول من شق عصا الطاعة وتبعهم الدروز في حوران ووادي التيم فقضى المصريون معظم ايام دولتهم في الشام بالحروب والقلاقل ·

ومن مآثر الحكومة المصرية التي عددها مشاقة تجفيفها المستنقعات وتصريف

الاقذار في مجار خاصة وتحديد اسعار اللحوم ، والعدل بين الرعايا على اختلاف اديانهم وطبقاتهم ، لاتكاف صاحب الحق نفقة لتحصيل حقوقه. وانفاق كل مال في وجهه المخصص له ، ومع ذلك ظل الشعب يسومها العداوة و يناقشها الحساب ، لانه اعتاد ان يكون محكوماً لا حاكم نفسه ، عبداً لاحراً . واكد ان الا نكليز استخدموا رجلاً من رجالهم السياسيين اسمه المستر وود فجاء كسروان بدعوى انه يريد تعلم اللغة العربية واخذ يبث الدسائس حتى اعلن الكسروانيون العصيان وقاتلوا جيشاً من جيوش ابراهيم باشا وجيوش الامير بشير فدام القتال اياماً وتغلب العصاة على جند ابراهيم باشا مراراً وهي المرة الاولى التي ذاق بها ابراهيم باشا طعم الانكسار .

ومدح مشاقة الامير بشيراً الشهابي الذي كان عضداً قوياً لابراهيم باشا ، وقد تولى حكومة الجبل من سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٨٤٠ وأرسلته الدولة لما استولت على الساحل الى مالطة وبقي منفياً فيها زمناً ولم يستطع ان يعود الى إمارته . وقال : انه كان شجاعاً مقداماً ، وقائداً محنكاً ، وسياسياً داهية ، خدم الجزار بكل امانة ونشاط ، وخدم خلفه وحفيده مثله ، وخدم الدولة التركية والدولة المصرية ، وكان يعطي لكل خدمة ودولة حقوقها ، وكان صادقاً اذا وعد اميناً على واجبه ، ولكنه لم يخدم لبنان خدمة تذكر . وانتقد مشاقة على حكومة محمد علي تقاعسها عن اشهار استقلالها عن الدولة التركية ، مع انه كان من اسهل الامور بعد ان اكتسحت البلاد ، فلو نادى محمد علي بنفسه ملكاً مستقلاً وأرسل سفراء الى عواصم الدول الاجنبية وعقد معها المعاهدات الدولية لاعترفت له بالملك على الرغم من مقاومة دولة بني عثمان ، ولو طلب منها الاعتراف بملكه واستقلاله عن الدولة التركية عقيب حادثة قونية ، لاجبرتها على الاعتراف بسيادته لانه استحال عليها اخراج جنوده من الشام ، او صد هجمات ابراهيم باشا وتقدمه الى قلب عاصمتها ، ولو فعل لكانت المملكة العثمانية عربية اليوم او لكانت على الاقل أُضيفت الشام الى مصر وأصبح حظ القطرين واحداً . ولم يظهر سر امتناع محمد علي من الاقدام على هذا الامر الخطير ولو فعل لغير حالة هذا الشرق القريب لا محالة .

✲ ✲ ✲

رأي الغرباء في حكومة محمد علي } اثبتت حكومة محمد علي في فتوحها ان المصريين بل العربي اذا تهيأ له زعيم عاقل لا يقل عن الغربيين في سيرته وجلادته ، وانه لم يضره في القرون الماضية الا فناؤه في الحكومة التركية ، بدعوى ان الاسلام لا يفرق بين الاجناس والعربي والتركي أخوان وان الظلم اذا جاء من مسلم كان مقبولاً ! . وكانت حكومة محمد علي من أفضل ما رأت الشام من الحكومات منذ ثلاثة او اربعة قرون ، بل أن الشام في القرون الوسطى والحديثة لم تسعد بما يقرب منها فضلاً عما يماثلها . كتب المستر برانت قنصل بريطانيا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة سنة ١٨٥٨ م ما تعريبه : لما كانت الإيالة تحت حكم محمد علي باشا عاد كثير الى سكنى المدن والقرى المهجورة ، والى حراثة الاراضي المهملة ، وهذا ما حدث خاصة في حوران وفي الارجاء الواقعة حوالى حمص وفي كل الجهات الواقعة على حدود البادية وفي هذه الاماكن أكره العرب على احترام سلطة الحكومة ، وجعل السكان بمأمن من اعتداءاتهم . وكان الشام باسره تحت ادارة شريف باشا وقيادة الجيش الذي يبلغ عدده زهاء ٤٠ الف جندي من منظم وغير منظم بإمرة ابراهيم باشا ، فبحسن ادارة الاول تضاعف نجاح الاهلين وحسنت المالية في هذه النواحي ، كما ان نشاط ابراهيم وحزمه وطد الامن ومدّ رواق الثقة ، وقد عُدت الحكومة ظالمة لكنها في الحقيقة لم تكن تستطيع غير ذلك ، اذ كان عليها ان تصلح عدة امور مختلة ، وان تبدل الفوضى والتعصب والقلاقل التي كانت سائدة بالعدل .

« فأصحاب المقامات العالية والافندية والاغوات امتعضوا كثيراً من ذلك لانهم كانوا يثرون من ابتزاز اصحاب التجارة والحرف وسائر الطبقات العاملة . وقد سر هؤلاء كثيراً لخلاصهم من الظلم الذي أنوا تحت عبئه طويلاً ، واغتبط المسيحيون خاصة وفرحوا لنجاتهم من التعصب الذي أوصلهم الى درجة من الذل لا تطاق . ولو لم يكن الفلاحون أقل سروراً منهم لانه وان كانت الضرائب المقررة تستوفى بكل شدة فلم يكن يستوفى منهم بارة زيادة ولا تضبط حاصلاتهم وغلالهم ولا يؤخذ منهم شيء دون دفع ثمنه ، ولم يجبروا على تقديم خدمة دون بدل ، وقد فرضت الخدمة

العسكرية على المسلمين وهذا الامر الجديد كان ينبوع استياء عظيم . أما المسيحيون الذين كانوا يدفعون الخراج فأُعفوا من الخدمة العسكرية والفلاحون الذين قطنوا القرى المهجورة أُسلفوا مالاً لاصلاح بيوتهم وتموينها وأُعفوا من الضرائب مدة ثلاث سنين .

« وقصارى القول ان جميع هذه المساعدات بذلت لزيادة الحاصلات وكم من مرة ذهبت الجنود بامرة ابراهيم باشا لاتلاف بيوض الجراد وما نقف منها وبفضل هذا الحكم الحازم العادل المحترم من الجميع أخذت البلاد تترقى في مدارج النجاح والنماء ، فلو طال عليها الحكم المصري لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء وأصابت شطراً كبيراً من الثروة التي كانت في الماضي وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان في القرى والمدن العديدة في جهات حوران . وفيما وجد في البادية حيث ترى فيها الطرق التي اختطها الرومانيون .

قال : « ولم يكد المصريون يطردون من البلاد ويتقلص ظل سطوتهم — وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد — حتى عاد القوم الى نبذ الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في ادارة المالية النزاهة والاقتصاد ومنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان فخلت القرى والمزارع المأهولة جديداً بالتدريج حتى أمكن القول انه لا يوجد ثَمَّ ظل للأَمن على الحياة والاملاك وكل شيء يدل على عودة حالة الفوضى الى هذه البلاد التي تركها المصريون » .

هذه أجمل صفحة في وصف حكم محمد علي في الشام كتبها انكليزي . وقال بريبه الافرنسي في كتابه الشام على عهد حكومة محمد علي ما تعريبه : « ما من بلدة نالت ما نالته الشام من العمران والجد في كل مظهر من مظاهر الحياة ، وليس مثلها في البلاد قضت الشقاء من تقلبات الزمان ، وسقي أديمها بالدماء ، فان خصبها المدهش وجمال اقليمها وتنوعه ، ومركزها المهم الذي يقرب اليه جميع الاجزاء القديمة التجارية من الارض ، كان يجعل منها في القديم النقطة المتوسطة للعلوم والتجارة في العالم ، ولكن هذا المركز وهذه المنافع قد نبهت أطماع الفاتحين وجلبت غير مرة على الشام ويلات الحروب .

« وكانت الشام على عهد الاتراك العثمانيين مقسمة الى اربع إيالات حلب وطرابلس

وعكا ودمشق ، وقبل مجيء ابراهيم باشا الى الشام كانت حكومة هذه البلاد من الممالك العثمانية التي تتعب السلطنة فلا يمكن حصر السلطة في يد واحدة لان معنى ذلك تسليم سلطة كبرى لرجل واحد وجعله بحيث يستطيع العصيان ، وكثيراً ما كان السلطان سلطاناً بالاسم مع ان الشام كانت مقسمة الى اربع إيالات كما حدث في زمن عبد الله باشا وغيره ممن شقوا عصا الطاعة وكثيراً ما كان الباشوات يشنقون كما حدث في حلب على جدران قصر الشيخ يابران ولطالما شنقت عليه باشاوات بيد الاهالي كما أحرقوا باشا دمشق .

« وكان الدم يجري لأقل شبهة والعذاب الاليم يحل فيُشنَق الباشاوات وتستل أرواحهم من أسفلهم ويجعلون العصاة على الحديد ويجزون الرؤوس وبذلك كان يتمكن الباشوات من توطيد سلطانهم على الرعايا والا أصبحوا عرضة للحرق والشنق . قال : ومن المحقق انه ليس الا طريقة الارهاب والقوة التي تؤثر الاثر المطلوب في شعوب الشام وتردهم الى الطاعة وقد عرف ابراهيم باشا كيف يؤثر في الشاميين وذلك بان استمال اليه قلوب أشرافهم وأعيانهم والقى بينهم الشقاق ضمناً عند الاقتضاء وبذلك تيسر له حكم البلاد ووضع ضرائب شديدة عليها ما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر وأديان مختلفة وكان شريف باشا حاكماً على الشام كله وتحت يده الحكام وكان طماعاً في المال اه » .

***

حكمنا على انفسنا } هذا هو الانصاف في الحكم على حكومة ابراهيم باشا
وعلى غيرنا } وما هي في الحقيقة الا روح محمد علي الكبير التي كان يستمد منه ابنه ، ولا يصدر الا عنه في الخطوب ولا يقطع امراً دون الرجوع الى رأيه ، حتى جاءت احكام المصريين نموذجاً في الادارة ، ولو ارادت الدولة العثمانية ان تستفيد من هذا الدرس لارادت عمالها على تطبيق خطط ابراهيم باشا في الاصلاحات التي قام بها خلال التسع السنين التي قضاها في هذا القطر ، ولكن العثمانيين ابتلوا بالاهمال والغرور ، لا يعمدون الى حسن الادارة ويتظاهرون بالاحسان الا يوم الشدائد ، فاذا زالت عادوا الى طبائعهم في إعنات الرعية والقاء الحبل على الغارب ونسوا ما اعطوا

من عهود وما وضعوا من القوانين . وهذا ما دعا الى ظهور الفروق الكثيرة بين الادارتين المصرية والعثمانية بعد رحيل جيش ابراهيم باشا عن هذه الديار ، وهو الجلاء الذي اقتضته الدول الكبرى بل الدولة البريطانية التي حملت الدول على موافقتها على رأيها لآمال لها تريد تحقيقها في مصر والشام ، لتكون هي الحاكمة المتحكمة في مصالحها لا الدولة المصرية الفتية التي تحب فرنسا وتساهمها سياستها احياناً . وما مصر والشام الا طريق الهند الاقرب بل مفتاحها من البحر المتوسط واذا اردنا ان ننظر بعين المؤرخ المنصف نرى بريطانيا العظمى هي التي اقتضت سياستها القضاء على اماني محمد علي بل اماني العرب من انشاء دولة عربية كما اوجبت سياستها قبل ثلاثين سنة ان تدعو الدولة العثمانية الى حرب الوهابيين في نجد والحجاز حرباً عواناً لانه كان يخشى ان يؤسسوا ايضاً دولة عربية جديدة ربما كانت عثرة في سبيل اماني تلك الحكومة في شبه جزيرة العرب .

ولو نظرنا الى ما وقع لابراهيم باشا في الشام لاول الفتح ، لم نره الا قتالاً مع العثمانيين اي قتال الجيش المصري مع الجيش العثماني ، واذا كان في الجيش الذي دافع عن عكا او عن دمشق او يوم حمص مثلاً اناس من الاكراد والهوارة فهؤلاء ليسوا من ابناء البلاد وهم مستأجرون يحاربون مع كل من يعولهم و يرزقهم ، على نحو ما وقع لابراهيم باشا من هذه الفئة أَسرهم من صفوف الدولة ثم حولهم الى صفوفه فاخذوا يقاتلون معه ، ولم يلتو القصد على ابراهيم باشا الا لما دخلت اصابع الاجانب واخذوا يثيرون عربان نابلس وسكان كسروان وجبال النصيرية ودروز لبنان ووادي التيم وجبل حوران وكل من عرفوا بالمضاء من سكان الجبال ، واما المدن والسواد الاعظم من الناس فقد استقبلوه واخلصوا له وشعروا بحسن ادارته ولا سيما المسيحيون والاسرائيليون وكلهم ادركوا الفرق بين حكومته وحكومة الترك .

وقد قال السيد محمد نسيب بن حمزة من علماء دمشق وساداتها قصيدة يقرظ بها محمد علي الكبير وابنه ابراهيم باشا ويذكر وقائعه بها ننقل منها ما يدل على مبلغ اعجاب القوم بصاحب مصر والشام :

بيمناك يمن الرعايا وحبذا ويسراك يسر للبرايا وحسبما
جمعت شتات المجد في كفك التي تعودت الحسنى وحازت تقدما

فني ظهرها للحاسدين مقبّل — وفي بطنها ما بينما الارض والسما
فسبحان من أعطاك عزّاً مؤبداً — تصول به بين الخلائق قدر ما
وسماك باسمي مصطفاه وحيدر — لحزت بذا حمداً وفزت بذا سما
وأهداك ردء النصر شبلاً مظفراً — به دُم قرير العين دهراً مسلما
وقام بامر الله في فتح بيته — فسيّر نار الحرب فيهم وأضرما
وحلّت ركاباه الى المورة التي — عصت قبل سبعا لا تنيل الميمما
فلاحت سعود الفتح عند قدومه — وقد عقدوا صلحاً وعاد مكرما
ومذ بزغت في الشام أقمار سعده — تباشرت الأهاون والعدل نجما
وفي الحفظ جد السير منها مجلاً — الى العسكر الجرار عند حمى حما
فأوردهم كأس المنون بهمةٍ — يرى دونها رأس الشوامخ منسما
وعاجلهم يقفو منازل ظعنهم — الى ان اتى بيلان وانقض قشعما
ومن بعدها جرّ الخميس مقابلاً — بقونية الصدر الوزير الذي سما
فلما رأوا ان لا نتاج لامرهم — وان كلما شادوا بناءً تهدما
تبادر ربط الصلح صاحب رأيهم — وساد ولما عاين الامر مبرما
على ان حكم العرب تحت لواء من — له صولة الأقيال والله سلما
وقد ألحقت بالعرب آونة التي — تجاورهم والجار بالجار أكرما
وعاد ابو الفرسان تزهو بنوده — الى الشام في تاج الفخار معمما
وعزّ له من حمص اذ كرّ راجعاً — الى الساحل المعمور كيما يهندما
ومن يك ذا مجد فتلك فعاله — ومن لا فدعه في الفلاة مهوّما
أيا كعبة الراجين فاقبل هدية — من العاجز المقلال ان يتكلما
وقال نسيب أرخوا بمدائحي — وجودك في أفق السما كبن خيما

(١٢٤٨)

ولقد تجلى في وقائع محمد علي في الشام تجلياً لامجال للريب فيه ، ان اختلاف المذاهب وتباين التربية ، كان من العوامل القوية في القاء الفتنة بين ابناء هذا الوطن وان دول اوربا عند اغراضها تستحل بث بذور الشقاق بين المتآلفين وتستخدم وسائط

غريبة في تكدير صفاء الآمنين ، وتعبث بعقول السذج المساكين ، وانها قلما اهتمت لمصلحة أمة من امم الشرق ، بل تهمها مصلحتها فقط ، ولو كانت تريد الخير للشام لتركته يسعد و يرقى بحكم محمد علي الذي كان باقرار رجالها من ارقي ما عهدته البلاد منذ قرون ، ولعلَّ ابناء الشام ايقنوا بخطأهم في الانتقاض على الحكومة المصرية التي هي مثلهم عنصراً ولغة وعادات انهم كانوا على ضلال في الحنين الى حكم العثمانيين ، وما كان من حقهم ان ينسوا في سنين قليلة كيف كان حكامهم يسارعون في الاثم والعدوان . وكان على الشاميين منذ عهد المصريين ان يدركوا ان الدولة دب فيها دبيب الفساد وان من الفساد رياضة الهرم وان الهرم اذا نزل في الدول لا يرتفع .

العهد العثماني

من سنة ١٢٥٦ الى ١٢٧٧

« من خروج المصريين الى مذابح لبنان ودمشق »

رجوع الشام الى سالف بؤسها على العهد العثماني وفتن الدروز والنصارى

اشبه الشام بعد الحكومة المصرية حال من كان في محنة مستديمة وشظف عيش ، ثم حسنت حالته بان عُلّم النظام والسكون ، ومتّع ببعض الراحة ، وغذي بالاطايب ، فتغيرت طبيعته وتبدلت نفيسته ، وبمحاولة ارجاعه الى سابق مألوفه ، عُدّ من يحاول ذلك جانياً عليه . وما كان يحلم اولاً بان يستمتع بغير ما كان له ، وبرجوعه سيرته الاولى تجلى له الفرق وتنغص عيشه .

تبين الفرق بين الادارتين المصرية والعثمانية ولو طال عهد المصريين اكثر — وكانوا في صدد الفتح يتخوفون بادرة العثمانيين كل حين — لسعدت البلاد حقيقة وايقن حتى من كانوا ينعمون من دماء الامة على العهد العثماني ان طريقة المصريين في المساواة بين الطبقات والمذاهب المختلفة ، والشدة في انفاذ القوانين وتقليد الغرب في كل امر جوهري افضل طريقة لراحة البلاد وكان يرجى ان يألفوا في مدة قصيرة ما تأصل في فطرهم على توالي القرون وتعودوه من حكم ارباب الاقطاعات الذين صدهم المصريون عن تجارتهم الشائنة التي الفوها زمن العثمانيين ، وهي الاتجار بالجباية يجبونها اضعافاً ، ويسلبون الباقي من دم الامة بمرأى من الحكومة ومسمع

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

لم تكد تخلي الجنود المصرية بلاد الشام حتى رجعت الى حالتها قبل المصريين وثارت العداوات القديمة في الصدور ، وزادت الدسائس الاجنبية ، واخذت فرنسا تساعد الموارنة و بريطانيا تعاون الدروز ، فتعدى هؤلاء على الموارنة في سنة ١٢٥٧ ودخلوا دير القمر وارتكبوا فيه الفظائع المنكرة وزحف الدروز (١٢٥٧) على زحلة بثمانية آلاف ، وانتشب القتال بينهم و بين اهل زحلة ، ومعهم اهل بعلبك فانهزم الدروز شر هزيمة ولولا تدخل الجيوش بشدة لامتدت الثورة وانجلت حادثة دير القمر عن مائة وتسعة قتلى من المسيحيين ، وعدد كبير من الدروز قدره مشاقة باكثر من خمسمائة لانهم كانوا مهاجمين قال : ولما ظهر للنصارى غدر مشايخ الدروز بهم في هذه الحادثة نفروا منهم نفوراً تاماً ، وطلبوا من الوزير حاكماً عليهم ورفع سلطة المشايخ عنهم فاجابهم الى ذلك ، لان هذا ما كان يرغب فيه ، ولولاه لما كان الاتراك يختمون العروض طعناً على امراء الجبل و يحضون اهله على الفتن ٠

عاملت الدولة العثمانية بعد عودتها الى البلاد كل من ساعدها على مقاصدها وخدمها او تظاهر بخدمتها وتجسس لها زمن الحكومة المصرية المعاملة التي ترضيه ، فرجع ارباب النفوذ والاقطاعات الى سالف مجدهم ، المبني على تقطيع اوصال الشعب والتغذي بلحمه ٠ واقامت بدلاً من الامير بشير الشهابي الامير بشير قاسم الشهابي حاكماً على لبنان ٠ وكان دون سلفه ادارة ومعرفة ، واقصت الامراء الشهابيين عن حاصبيا حاضرة وادي التيم ، واقامت شبلي العريان متسلماً لها لانه خدم الاتراك في حرب المصريين فاخذ ينزع من المسيحيين سلاحهم و يقدم للدروز باروداً وذخائر ، وكان يرى سلب القرى المسيحية واحراقها من عوامل الخدمة لطائفته ودولته ونسي ما قيل « من اكل مرقة السلطان ، احترقت شفتاه ولو بعد حين »

ولم يكن من مصلحة الدولة ان تسود الألفة بين الطوائف ، وان يتعامل اهل الوطن الواحد بالحسنى ، فكان اكثر رجالها يوقدون جذوة التعصب الديني و يساعدون الدروز على المسيحيين في لبنان ، حتى يتيسر للدولة ان تنزع الحكم من ارباب الاقطاعات وتقيم له والياً كما لطرابلس وصيدا والقدس وحلب ودمشق ، ولذلك كثرت الفتن والمناوشات بل الاحن والمحن بين المسيحيين والدروز ، فقد أثار الامير قاسم الشهابي الدروز

على الموارنة (١٨٤١م) فارتكبوا فيهم القتل والنهب فتدخلت الدولة وعزلت الامير قاسمًا الشهابي لتقيم مكانه واليًا عثمانيًا فنصبت عمر باشا النمساوي ثم عزلته ، وجعل الجبل قائم مقاميتين الاولى نصرانية والثانية درزية فلم ترتض الطائفتان ذلك ، وأصبحت الاولى بيد فرنسا والثانية بيد انكلترا واختل الأمن في أرجاء الشام لان الدولة حاولت ان تنزع السلاح من فئة اوأهل ناحية وتبقيه في ايدي آخرين ، فكتب قنصل انكلترا في دمشق سنة ١٨٤١ م (١٢٥٧ هـ) الى نجيب باشا كتاباً قال له فيه : « فاذا كانت الحكومة ترغب حقيقة في استتباب الأمن ففي وسعها ان تبدأ باظهار حسن نيتها فتمنع تخريب القرى وتدمير اماكن العبادة الكائنة على بضع خطوات من دمشق . ان نزع السلاح من يد السور بين عامة امر مرغوب فيه لو تسنى اتمامه دون التخوف من حدوث ثورة عامة ، بيد انا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحيي لبنان الغربي ولبنان الشرقي على حين سمح لسائر اتباع السلطنة بحفظ أسلحتهم ، ومع ذلك لا ينبغي ان يغرب عن البال ان الباب العالي اعترف بصدق رعاياه المسيحيين وأمانتهم في هذه النواحي اذ لجأ اليهم قبل الجميع فوزع عليهم أسلحة لطرد عدو الطرفين (يريد ابراهيم باشا المصري) كما ان احتلال جنود حضرة السلطان الآن للشام هو نتيجة مساعدة اللبنانيين » .

قبض عمر باشا النمساوي (١٨٤٢) على زعماء الدروز فاجتمع اتباعهم وهجموا على سراي بيت الدين وكان هناك فتهددهم ، وحضر شبلي العريان بجنده المنظم واجتمع في الطريق بفرقة من الارناؤد قادمة الى عمر باشا ليرسلها لتأديب الدروز فوقعت بين الفريقين موقعة فهزمهم جند عمر باشا في أقل من ساعة .

* * *

فتن أهلية في الجبال والمدن } وظلت تغلي مراجل الأحقاد في لبنان والحكومة تجهل او تتجاهل السبيل لقطع شأفة الفتن من الجبل وغيره من الأصقاع الشامية وقد عينت سنة ١٢٦٠ هـ رجلاً اسمه علي بك لجباية الأموال الاميرية من جبل النصيرية ومطاردة بعض الاشقياء فلما بلغ ناحية البهلولية طلب مقدمي الكلبية ورؤساءهم فارسلوا اليه رجلين وهما اسماعيل عثمان وحبيب

مخلوف فارسلها في الحال الى اللاذقية مقيدين وأخذ في تعذيبهما ، وانتهى الخبر الى الجبل فتجمع نحو خمسمائة رجل من أهله ومضوا الى اللاذقية وهاجموا دار الحكومة ثم كسروا السجن . وأخذوا السجينين ومن معهما من المأمورين ، فصدر الامر بان تجهز العساكر التي معه مع جميع الاهالي النازلين بين انطاكية وصافيتا ، وعسكر الجيش في القرداحة ، فأرسل النصيرية بعض نسائهم الى القائد علي بك يحملن اعلام الامان ويطلبن العفو ، وان يضمن لهن سلامة الانفس والأموال والعيال ، فأبى الا إنزال العقوبة بالثائرين ، وكان عددهم نحو ستمائة وعدد العسكر النظامي والمقاتلة من الاهلين نحو عشرين الفاً وقيل ثلاثين الفاً ، وكان في قرية المران شيخ من أهل الدين والصلاح يعتمد العلويون عليه وكان يعرف علم الفلك فأخذ الطالع وقال لهم : انه لن يفقد منهم الا رجل يصاب برجله ولا يموت وسألوه عن موعد الهجوم فقال : غداً الظهر فنزلت الطمأنينة على قلوب الثائرين خصوصاً وقد وعدهم انهم لا يصابون بأذى ، ولما حان وقت الظهر تجمهر الثائرون وانقسموا ثلاث فرق وهاجموا العسكر ، ولم تلبث ان دارت الدائرة على الجيش وقتل علي بك وقتل من عسكره على ما قيل نحو الفي رجل وغنم النصيرية جميع الذخائر فأرسلت الحكومة على الثائرين وفداً يدعوهم الى الطاعة بصورة لطيفة ويضمن لهم سلامتهم فأطاعوا وسلموا الذخائر باسرها الى الحكومة على ما جاء من مصدر علوي .

وفي سنة ١٢٦١ (١٨٤٥) قام الدروز ثانية في لبنان وقتلوا المسيحيين واستمرت الفتن الى سنة ١٢٧٧ (١٨٦٠) . وفي سنة ١٨٤٥ أرسل والي دمشق الى دروز حاصبيا يحضهم على رواية مشاقة على قتل النصارى ويمدهم بالسلاح والذخيرة ، وأوعز الى دروز حوران ان يقدموا لمساعدتهم ، وسأل مثل ذلك مسلمي البقاع فهرب نصارى حاصبيا قبل الايقاع بهم فانقض عليهم الدروز في جهات راشيا وفتكوا بمعظمهم وتشتتوا في تلك الارجاء ومنهم من سلم فجاء زحلة ومنهم من عاد الى حاصبيا ومنهم من قتل ، وعينت الحكومة احد امراء الشهابيين حاكماً على حاصبيا لكنها لم تسمح له بمعاقبة المعتدين وزعماء هذه الفتنة .

وفي غرة المحرم سنة ١٢٦٧ وقعت فتنة بحلب سرت الى حي باب النيرب وهي

قراق و بانقوسا فنهبت احياءُ النصارى وأُحرقت ثلاث كنائس وقتل نحو خمسة عشر مسيحياً ودام النهب ثلاثة أيام ، ثم قام الاهالي على الوالي وطلبوا منه رفع « الفردة والنظام » فامتنع من ذلك فضربه الاوباش ، ثم انكسر سكان الحارات وانتشر الحريق في الاحياء المذكورة والنهب والقتل فقتل من الحلبيين نحو خمسمائة رجل كلهم من الرعاع ومن العسكر نحو ذلك وقبض على مثل هذا المقدار من الناس ، ثم بحثوا عن أمتعة المسيحيين المسلوبة فأُرجع اليهم غالب ما نهب منهم .

وفي هذه السنة عصى الامير محمد الحرفوش امير بعلبك وجمع عسكراً من بلاد بعلبك ووادي العجم ، فأرسلت عليه الدولة قوة بقيادة مصطفى باشا فانهزم أمامه الى قرية معلولا في جبل قلمون وتحصن بها مع اخوته وأولاد عمه فحصرهم الجنود الى ان دخلوا عليهم بدلالة أهل القرية ، فأُخذ الامير محمد وأُسر . وطوّق القائد العثماني بعلبك بثلاثة آلاف جندي فاستسلم امراؤها فقبض عليهم وأرسلهم الى دمشق فنفوا الى كريت ، وقضي بذلك على عامل من عوامل حكومة الاقطاعات .

وفي نكبات الشام ان الحروب الأهلية التي حدثت في دير القمر وزحلة وغيرهما من انحاء البلاد سنة ١٨٤٨ (١٢٦٥) انتهت بقتل ثلاثة آلاف رجل من النصارى قتلوا في لبنان والبقاع وبعضهم في المدن ونحو اربعمائة رجل من الدروز ، ولولا محاربة الدروز المسيحيين بالخيانة ومساعدة الحكومة لهم في كل مكان على نزع السلاح لكثر عدد القتلى وزاد على هذا القدر ، واما الخسائر المالية فلم تقدر في ذلك الحين .

وفي سنة ١٢٦٨ (١٨٥١) امتنع دروز حوران عن دفع الخراج فندبت الحكومة لاخضاعهم والي دمشق محمد باشا القبرصي بفرقة من الجند فوقعت بينه وبينهم معركة دامت بضع ساعات فانهزم والي دمشق ووضع الدروز أيديهم على مهمات الجند والمدافع ثم توسط قنصل بريطانيا فأرجع الدروز مسلوبات العسكر ، وتعرف هذه الوقعة بوقعة صاري عسكر (سر عسكر) انتهت سنة ١٢٦٩ .

* * *

حرب القريم منشأوها في الشام وكوائن درزية ونصيرية } وفي سنة ١٢٦٨ حدثت في القدس امور يتألف منها الاسباب لنشوب الحرب العظمى

بين الدولة العثمانية وروسيا وهي الحرب المعروفة بحرب القريم (١٢٧٠) وذلك لاختلافات قديمة بين الروم واللاتين بسبب كنيسة القيامة وبعض الاماكن المقدسة فكانت كل من الطائفتين تدعي حق الرياسة والتقدم على الاخرى باستلام مفاتيحها ، واذ كانت روسيا قد جعلت الشرق مطمح انظارها وقامت تطالب بحماية الروم الارثوذكس ابناء مذهبها كما كان لفرنسا حق المطالبة بحماية موارنة لبنان ونصارى الشرق من الكاثوليك منذ منتصف القرن الثامن عشر ، حاولت الدولة ان تغفل عن مطالبة قيصر روسيا، فاتخذ من ذلك حجة وقام يريد انفاذ وصية بطرس الاكبر القاضية بافتتاح الارض العثمانية والاستيلاء على الاستانة .

فهجم الاسطول الروسي في البحر الاسود على الاسطول العثماني وحطمه ، فنشبت الحرب بين الروس والعثمانيين فانتصر الروس وكادوا يبلغون الاستانة ، فارسلت انكلترا وفرنسا جيشاً واساطيل الى ارجاء البحر الاسود ، وقاتلت الروس وانتصروا عليهم في سواستبول — وكذلك بعثت ساردينيا فرقاً من الجند الايطالي ولم يكن قد انتظم عقد الوحدة الايطالية — وقد دفع الدول الى ذلك امر غير حب المحافظة على الدولة العثمانية وهو الخوف من خروج روسيا الى البحر المتوسط و بخروجها خطر على اوربا بل خطر على بريطانيا العظمى وطريق هندها ، وبعد حرب ثلاث سنين (١٨٥٦) ظفرت الدولة مع الدول بالروس ودفعت بريطانيا نفقات الحرب ، وحصلت الدولة الروسية على مطاليبها وامتيازاتها ، ومن شروط المعاهدة ضمان استقلال المملكة العثمانية وسلامتها ، والحظر على اية دولة ان تدخل في شؤون تركيا الداخلية ومساواة المسيحيين مع المسلمين في الحقوق . ولما رأى رجال الدولة ان الطريقة البالية القديمة في ادارة الملك العثماني تودي بها لامحالة اقنعوا السلطان بنشر الخط الهمايوني و به قبلت الدولة (١٨٥٦) في عداد الدول الاوربية . فكان هذا العامل النافع من نتائج حرب القريم فبان للدولة وجه خطأها في اعتزالها عن السياسة الدولية .

وفي سنة ١٢٧٣ وقعت فتنة بين الدروز والحوارنة في اللجاة فاز فيها الدروز وتعرف بوقعة امسيكي . وفي سنة ١٢٧٥ (١٨٥٨) قهرت الدولة بلاد النصيرية بقهر زعيمهم اسمعيل هواش وجردتهم من كل رعاية وخصوصية ، والسبب في هذه

الفتنة ان طائفة الكلبية عصت اوامر الحكومة فارسلت هذه خمسمائة فارس وضربوا قرى الساحل ، واتصلت الاخبار بالنصيرية فهاجموا الجند فقتلوا منهم اثني عشر جندياً فجيزت الحكومة بعد ايام عسكراً عظيماً وهاجمت الطائفة وجعلت قوة لها في الساحل وزحف العلويون (النصيرية) ولم يلبثوا ان احاطت بهم العساكر من كل جهة فدافع العلويون حتى فقدوا خمسة وعشرين رجلاً وفي اليوم التالي التحم القتال ودامت المناوشات والمقاومات اربع سنين حتى ارسلت الدولة عسكراً جراراً ، وندبت كامل باشا لاجراء الصلح بين الدولة والعلويين فتم ذلك على يده ٠

* * *

مبدأ مذابح النصارى المعروفة بحادثة سنة الستين وحادثة بيت مري ودير القمر | استطال المسيحيون بعد حرب القريم في هذه الديار ولا سيما في لبنان ، واخذت الدولة تثير الدروز على المسيحيين على

ما يؤكده الغربيون والمسيحيون من ابناء هذه البلاد ، وبقيت الحوادث تتوالى والاصابع العثمانية والاجنبية تعبث بعقول المغفلين ، وكانت الثورات على ما في تاريخ زحلة تتوالى والخصام يزداد اتساعاً ، وعوامل الحقد تسكن القلوب فتحركها على جر الويل واهراق الدماء ، وكان ذلك من اهم ذرائع التنافس والتنابذ بين المسيحيين والدروز ، وكأن البلاد ألفت التعصب فتوالى عليها من العصبيات القيسية واليمانية واليزبكية والجنبلاطية والمعلوفية والمكارمية والزحلية والقنطارية ، ثم بدأت العصبية المسيحية والدرزية ، فكانت الاخيرة اشر من الاولى ، وتحفز الدروز للتنكيل بالمسيحيين ولا سيما سكان زحلة ودير القمر الذين اوغروا صدورهم ببسالتهم ونفوذ كلمتهم لدى ابراهيم باشا والامير بشير ولمعاضدتهم اياهما ٠

بدأت الفتنة العظمى بهجوم شراذم من الدروز على قرية بيت مري في لبنان يوم ٣٠ آب ١٨٥٩ فانهزم الدروز واحرقوا ثلاث قرى مسيحية وقتل بعض رجالها ، وفي الربيع التالي بدأت الدروز تفد على المختارة مركز آل جنبلاط كبار مشايخ الدروز ٠ قال مشاقة : وفي شهر نيسان من تلك السنة ورد امر الى خورشيد باشا من السلطان باهلاك المسيحيين واطلاق ايدي الاوباش وذبح النصارى عن آخرهم ، فألح خورشيد

باشا على سعيد بك جنبلاط ان يصدع بالامر فأوعز الى رجاله بالهجوم على النصارى ، فقتل الدروز بضعة عشر من النصارى في الطرق ، ثم وقعت مناوشة في دير القمر عادوا منها مخذولين ، وأرغم طاهر باشا قائد الحامية في دير القمر نصارى الدير على تسليم سلاحهم له ، وبعد ان جمع سلاح المسيحيين سمح للدروز بالهجوم على المدينة فسالت الدماء انهاراً ثلاثة ايام فلم ينج من المسيحيين الا عدد قليل ، ثم احرقوا المساكن وارتكبت الجنود التركية مع النساء على عاداتها ما ارتكبت ، وبلغ عدد قتلى الدير على رواية مشاقة ما يقارب الفي نفس من الرجال البالغين والنساء والاطفال ثم اعمل الدروز سيوفهم في اهل جزين . فحوادث الشام سنة ١٨٦٠ بدأت اذاً ببيت مري في السنة الماضية وثنت بدير القمر ومن هناك انتشرت في الاطراف .

✲ ✲ ✲

مذابح حاصبيا وراشيا ورأي انكليز بين في اصل المذابح — وطلب والي دمشق الخراج المتأخر من دروز حاصبيا وعين احد الشهابيين في فرقة من العساكر لشد ازره ، فتألب دروز وادي التيم واقليم البلان على الشهابي في حاصبيا وهاجموها ولم يلاقوا مقاومة شديدة من النصارى لقلة عددهم ، وكان عدد القتلى متساوياً بين الفريقين ثم نزع من النصارى سلاحهم ، واخذ الدروز يفتكون بهم ويحرقون مساكنهم ، ثم تنحى العسكر التركي وترك الدروز وشأنهم مع النصارى فقتلوا منهم ٧٢٤ مسيحياً وقتل من الدروز والاتراك اربعون رجلاً . وفي اليوم الذي جرت فيه مذبحة حاصبيا باغت دروز حوران نصارى راشيا الوادي في بيوتهم وفي السراي على مرأى من الجنود التركية وبمساعدتهم فاجهزوا على جموعهم وقتلوهم مع امراء الشهابيين ولم ينج منهم سوى اميرين ثم نهبوا بيوتهم ، وبلغ عدد قتلى راشيا الوادي خمسمائة رجل وطفل وامرأة .

وهاجم دروز حوران بقيادة اسمعيل الاطرش مدينة زحلة فردهم اهلها مراراً ، وطال القتال يومين فاضطر الدروز الى الرجوع عنها ، ثم عاد الدروز ومعهم الجند العثماني واحرقوا جانباً من المدينة واخذ الجند يرتكب الفاحشة واغتصبوا الراهبات ونهبوا الكنائس والاديار ، فلم يبق لدى قناصل الدول شك في ان الدولة العثمانية

هي التي تريد هذه المذابح وتدبرها حتى لا تطالبها الدول بحماية المسيحيين وتجد سبيلاً الى مراقبة اعمالها الجزئية والكلية مما يسقط من منزلتها ، وقد هلك من الزحليين نحو مئة انسان لانهم لم يمكنوا الدولة من ادخال جندها الى بلدهم . واسماعيل الاطرش هذا قتل يوم جاء لمعاونة ابناء مذهبه في وقعتي راشيا وزحلة ١٣٥ مسيحياً التجأوا من اقليم البلان الى شيخ المسلمين في قرية كنا كر من عمل وادي العجم .

قال اللورد دوفرين : « لم يبق ادنى ريب يحول دون نسبة المذابح الاخيرة وجميع الحروب والاضطرابات والمنازعات التي انتابت لبنان في مدى الخمس عشرة سنة الاخيرة الى استياء الحكومة العثمانية من الاستقلال النوعي الممنوح للجبل ، فجعلت مرمى سياستها أن تبرهن على انه يتعذر العمل بطريقة الحكم التي منحتها الدول لبنان في سنة ١٨٤٥ ، ولهذا كان الاتراك يغتنمون الفرصة لاثارة دفائن الاحقاد القديمة بين الدروز والموارنة ولما ازداد تعجرف المسيحيين وتعصبهم بقوة المساعدات الاجنبية التي فازوا بها ، ثقل على الاتراك احتمال وطأة استقلالهم ، فعقدوا العزم على اتخاذ الدروز آلة ليوقعوا بهم ويضربوهم ضربة اشد إيلاماً مما تقدمها ، بيد أن ما حدث في حاصبيا وراشيا ودير القمر قد جاء مجاوزاً الحد المنوي لعدم توفر شروط اللباقة في خورشيد باشا واعوانه لانفاذ سياسة دهاء كهذه ، ، فافرطوا فيها بحيث افتضح سر سياستهم وكان له دوي هائل في الاندية الاوربية »

وقال أيضاً : « لما زرت هذه البلاد (لبنان) قبل استيقاظ الفتنة ببضعة أشهر شاهدت أماراتها بادية في عواطف الفريقين ، فالدروز كانوا مستعدين للقتال والموارنة كانوا يعتقدون ان قد آذنت ساعة فوزهم ، كما أن دخل الجمارك يثبت أن قد أدخل الى لبنان من كانون الثاني ١٨٥٧ الى ربيع ١٨٦٠ أكثر من ١٢٠ الف بندقية و ٢٠ الف مسدس وكان من المشتهر إنصراف المطران طوبيا وشركائه الى ايقاظ الفتنة .. الى أن يقول : فمن العبث وصف المسيحيين بانهم شهداء قديسون فهم يضاهون جيرانهم الدروز في حروبهم همجية وظمأ الى الدماء ، فكثيراً ما كانوا يقتتلون بعضهم مع بعض ولا يعفون عن النساء . يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الخازنيين منذ سنتين ، ومثل هذه المعايب كثيرة في تاريخهم ، بيد ان الدروز هم من هذا القبيل اكثر شفقة من

غيرهم فلا يقتتلون بعضهم مع بعض و يحترمون النساء ، وعليه فمن الخطاء وصف القتال الذي جرى بين الدروز والموارنة بمثابة اعتداء وتنبين برابرة على اتباع دين المسيح الودعاء ، بل هو نتيجة تباغض طائفتين متساويتين في الهمجية ، انزل الفائزون في اعدائهم ذات البلية التي كانوا مهددين بها فيما لو تغلب هؤلاء ، واذا كان الدروز ارتكبوا في هذه الحروب فظائع اكثر بربرية من المعتاد فالسبب فيه تدخل الاتراك وشدة حنقهم على المسيحيين وقد أثاروه بتهديدهم وعجرفتهم .

وقال قنصل انكلترا في دمشق على ذاك العهد : « لقد بقي من كل ما رتبه المصريون شيء واحد سالمًا وهو عتق المسيحيين من رقهم على ان هذا ربما يصير عاملاً جديداً لاستئناف الاضطرابات لضعف الادارة العثمانية وظلمها ، لان الظلم يدفع الى المقاومة والضعف يزيد في التمرد ، والسكان مؤلفون من طوائف مختلفة المذاهب معادية للسنة ومن طوائف مسيحية متعصبة يعادي بعضها بعضاً والحكومة عاجزة عن بسط سيطرتها على الجميع ولهذا أمست مضطرة الى إثارة طائفة على أخرى بايقاد جذوة التحاسد والبغضاء بينها ، وبمثل هذه الوسائل تتمكن من حفظ بعض السيطرة لنفسها بيد انها تخسر ثقة الرعايا بها وتعكر كأس الوئام بين العناصر المختلفة ، فتحول دون كل تقدم ونجاح » .

* * *

مذابح دمشق ورأي الغريب والوطني في تعليلها } وبعد هذ النصوص المعتبرة لم يبق شك في ان الدولة هي التي وضعت الخطة العوجاء لذبح المسيحيين ليتيسر لها ان تمتلكهم وتضعف من غلواء المسلمين أيضاً شأنها في معظم أحوالها في كل بلاد نزلتها .

لا يحكم الصياد أشراكه الا اذا عكر بطن الغدير

وان الموارنة كالدروز لا يخلون من المؤاخذة الشديدة ، اغتر كل فريق بمن كان يزين له الشر و يحسن له العاقبة بعد ارتكابه فأتمر ما أُمر به ، فكان ذلك وبالاً عليه وعلى جاره ، ولم يخسر الدافع لهما شيئًا . وما كان يخطر بالبال ان هذه الشرارة

تسري الى دمشق مدينة التسامح واللطف ويقوم رعاع المسلمين بمعاونة الدروز يؤذون من أمروا بالاحسان اليهم بعد ان عاشوا و إياهم ثلاثة عشر قرناً في صفاء وهناء ٠

ويؤخذ مما قاله مشاقة : ان مذبحة دمشق لا علاقة لها بحوادث لبنان على ماقيل ولا تعزى لها الاسباب التي عزيت لتلك وان من أسبابهـا الاولية عبث النصارى بالشريعة التي أحدثتها الدولة على أثر حرب القريم مكرهة من دولة الروس ، وهي مساواة الرعايا بالحقوق المدنية واعفاء النصارى من الخدمة العسكرية ، وقيل ان الدولة رغبت في وضع هذه الشريعة التي يقال عنهـا المساواة وهي ليست على شيء منه لتثير خواطر شعبها على النصارى وتجعل لهم سبيلاً الى بغضهم ومقتهم ولو كان النصارى وقتئذ على شيء من الحكمة لرفضوا إعفاءهم من الخدمة العسكرية التي جردتهم من الوطنية وأبكمت لسانهم عن المطالبة بحقوقهم ٠

قال : وكان مسلمو دمشق عامة وسورية خاصة يسفهون عمل الدولة التركية الذي قامت به مضطرة عقب حرب القريم وكثر تذمر المسلمين من الدولة مع التقريع ، فأجابتهم انهـا لم تفعل ذلك الا مضطرة وبلغ من حقد المتعصبين انهم تآمروا وألفوا الجمعيات السرية يطلبون بها خلع الدولة التركية و إبدالها بدولة تعيد مجد الاسلام ولا تخضع للمسيحيين وبلغ الاتراك أمرهم فأوغروا صدورهم على النصـارى ليلهوهم ويتخلصوا من شرهم ٠

وبعـد ان فصل هجوم النصارى على مطران الروم بدمشق يريدونه على ان يرفع عنهم حيف الحكومة وطلبها بدل الخدمة العسكرية منهم ، وذكر كيف عرض المطران على الوالي بان النصارى تجمهروا جمهرة العصاة وأرادوا الايقاع به قال : ان الوالي لم يشـأ ان يردع النصارى رأساً وأناط بتأديبهم رعاع المسلمين الذين كانت الحكومة تخشى بطشهم ولا تتجاسر على مطـالبتهم بدفع الضرائب ، وكانت الحكومة غير راضية عنهم لفتكهم ببعض وزرائها وامتنـاعهم عن اجابة مطالبها ، ورغبة احمد باشا (والي دمشق) باثارتهم على النصارى كي يتخلص منهم او من بعضهم فيقـل عددهم وتضعف شوكتهم ويصبح إخضاعهم لاوامر الحكومة مكفولاً فيرد عن دولته

الخطر الذي كان يتهـددها به مسلمو دمشق الذين جاهروا بخلع دولة الاتراك عنهم وراسلوا دولة مصر لتأتي لنجدتهم ولم يفلحوا ·

« فرأى والي دمشق للوصول الى هـذا الغرض ان ينصب المدافع على أبواب الجامع الاموي وقاية للمسلمين الداخلين اليه في أوقات الصلاة من غدر النصارى ! وأمر في عصر اليوم التاسع من تموز ١٨٦٠ باخراج الرعاع المسجونين من المسلمين بقصد تطوافهم في الشوارع وهم مكبلون بالقيود إرهاباً للثوار من المسلمين والدروز معاً ، فلما وصلوا الى باب البريد هجم بضعة من المسلمين على الخفر وبطشوا به وخلصوا رفاقهم ونادوا بالجهـاد ، فهجم الاوباش على المسيحيين في بيوتهم ومحلاتهم ووضعوا السيف فيهم ، قتلوا الرجال وسبوا العيال وهتكوا الاعراض وراحوا بالعروض والأموال وقتلوا بعض الرهبان الفرنسيسكانيين » ·

وذكر برانت قنصل بريطانيا ان السبب الرئيسي في ايقاد جذوة الفتنة ان أولاد المسلمين أخذوا يرسمون صورة الصليب في الطرقات ويدوسونها ويهينون المسيحيين المارين ، فقبض عليهم « التفكجي باشي » وقيدهم بالسلاسل واكرههم على تكنيس الطرق ، فهجمت الغوغاء وأنقذتهم فاشتعلت الفتنة · قال : وعندي ان احمد باشا مخطئ في ضعفه مع مجلسه وعدم اتخاذه الاحتياطات التي أشير عليه بها غير مرة ، وإصراره على ابقاء رئيس التفكجية في مركزه ، مع اشتهاره بعدم الكفاية رغماً عن تحذير عدة أشخاص من جميع الطبقات منه قبل ايقاظ الفتنة بعدة أسابيع ، وإهماله إنقاذ مسيحيي حاصبيا وراشيا نكثاً بوعوده لما أُخبر بالخطر المحدق بهم وتقاعده عن استدراك مهاجمة زحلة وقلة اكتراثه بذبح الدروز المسيحيين ان لم نقل بتواطئه ، وهو القائل على ما روي انه يوجد في سورية آفتان كبيرتان هما المسيحيون والدروز فكلما ذبح احدهما الآخر استفادت الحكومة العثمانيـة · وإن حظر حمل السلاح على المسيحيين والسماح به للمسلمين والدروز لا يمكن تأويله الا بان حكومة تلك الايام كانت لا تهتم لفتنة تحدث اذ انها تود إحداثها او لا تجسران تعامل الجميع بالسوية · وقال الماجور فرازر ان فؤاد باشا قال له : ان الدمشقيين

يكرهون الاتراك وان من الضروري القاء الرعب في قلوبهم توطيداً لاركان الحكم العثماني فيتجنبون ركوب متن الفتنة ٠

وقد علل مشاقة سبب فتنة دمشق تعليلاً مقبولاً فقال : انه لم يكن لها تعلق بحادثة لبنان بل لها أسباب خصوصية نشأت عن تصرفات جهلة النصارى عندما عجز عقلاؤهم عن ردعهم ، فلما وضعت الدولة قوانين المساواة بين رعاياها من أي مذهب كانوا توسع جهلة النصارى في تأويل هذه المساواة بان معناها انه لا يجب على الصغير الخضوع للكبير ولا للوضيع ان يحترم الرفيع ، وتوهموا ان أدنياء النصارى هم بمنزلة عظماء المسلمين ، ولم يريدوا أن يفهموا ان المساواة هي في الحقوق الشرعية والنظامية وان من الواجب حفظ اعتبار أهل الاعتبار بالدرجة اللائقة بهم من أية طائفة كانوا خصوصاً النصارى نحو المسلمين ، وعليهم ان يعرفوا بان كبراء البلاد ومعتبريها هم منهم والسلطنة مع وزرائها وعسكرها وجميع عظمائها من المسلمين ، وان النصارى في سورية هم الجزء الاصغر والاضعف في كل شيء ، وبكل الوجوه يجب على المسيحيين تقديم الاحترام الوافر نحو المسلمين ، والطاعة التامة لاولياء الامور فيما يرسمونه لهم اهـ ٠ وفي الامثال « لن يزال الناس بخير ما تباينوا فاذا تساووا هلكوا » ٠

☆ ☆ ☆

ضحايا مذابح دمشق وتخربها } وقدّر قنصل الانكليز عدد من ذبحوا من مسيحيي دمشق بزهاء ٣٥٠٠ نسمة ، والغرباء الذي لجأوا الى المدينة طلباً للنجاة نحو ٢٠٠٠ نسمة ٠ وقال لورتيه : ان عدد من هلك من المسيحيين في فتن لبنان وحوادث دمشق بلغ اثني عشر الفاً ، وان في دير القمر وحدها تربة بناها ابناء وطنه فيها ستة آلاف من الهالكين وهو عدد فيه نظر ٠ وقد قتل بعض المسيحيين في محال منفردة مثل مسيحيي جباع من عمل صيدا ، فان الدروز انقضوا عليها وحرقوا بيوت المسيحيين ونهبوا القرى ، وان مائتين وخمسين نسمة من جزين كانوا في الغابات فطاردهم الدروز من محل الى آخر وقتلوا بعضهم ، ولم يصل منهم الى قرب صيدا الا خمسة عشر رجلاً فقط ٠ وحرقت ميمس والكفير من عمل حاصبيا وهلك فيهما مائة وعشرون مسيحياً ، وخربت ثماني قرى للمسيحيين في البقاع وحرقت ، وقتل من

بقي فيها من الشيوخ والاحداث بينهم النساء والاطفال واعتدي على العذارى ، وشوهدت من بيروت ثنتان وثلاثون قرية تحترق وذلك يوم ٢٨ و ٢٩ وامست بعض البلدان الزاهرة في لبنان مهجورة ·

قال كراهام : ان ستين قرية وبلدة في لبنان قد دمرت واصبح هذا الجبل بلقعاً ويتعذر معرفة عدد المسيحيين الذين قتلوا في مذابح جبل لبنان فالتخمينات متباينة فيقدر بعضهم القتلى باربعة آلاف ، وآخرون بعشرة ، وهذا العدد الاخير مبالغ فيه كثيراً · قال : وارجح انه لا تتجاوز الاربعة آلاف فقد جمعت عدة انباء موثوق بها وعارضتها بعضها على بعض فتبين لي ان عدد القتلى في دير القمر يختلف بين ١١٠٠ الى ١٢٠٠ وفي حاصبيا وراشيا ٧٠٠ وفي صيدا ٥٥٠ واذا اضفنا اليها ٢٠٠ لاجيء قتلوا في ٣٠ و ٣١ ايار في جوار بيروت والف مسيحي ذبحوا في بيوتهم على ما ارجح فلا اعتقد ان عدد القتلى يتجاوز ٣٥٠٠ ذكر ، وفقدهم يحرم البلاد ايدي عاملة كان يتوقف عليها نجاحها ·

وزعم لنورمان انه يريد ان يكتب تاريخاً لا رواية خيالية ، ولكنه كان الى المبالغة واستعمال اساليب الخطابة والخيال ، ومع هذا ننقل بعض ماذكره مما عساه قد فاتنا تفصيله · اما المبالغات في الارقام فما نكله الى فطنة القاريء يردها ببصيرته لان قناصل الوقت في هذه الديار اصدق قيلا ، ورواياتهم اقرب الى الصحة والسداد خصوصاً من لم يكن لدولهم رأي خاص الا الحقيقة · فقد ذكر لنورمان ان ستين قرية في الغرب والمتن أصبحت في ثلاثة أيام خراباً يباباً ، وانه قتل في مقبرة صيدا مائة واثنان وعشرون رجلاً وقتل الضبطية ١٧ شخصاً على أبواب صيدا ، وأن الفاً ومائتي مسيحي اختبأوا في غابة على أربعة فراسخ من صيدا فأحرقها الدروز والمسلمون فلم ينج منهم انسان وهلكوا ذبحاً وحرقاً ، وانه قتل في دير المخلص على مقربة من صيدا مائة وخمسون راهباً وأخاً ، عدا ما سلب منه من العروض والاموال التي جاء بها سكان الجوار واودعوها الدير لانه كان محترماً من الكافة قبل هذه الحوادث ، وانه قتل في حاصبيا تسعمائة وخمسة وسبعون مسيحياً لم ينج منهم انسان ، وقتل من امراء الشهابيين في وادي التيم احد وثلاثون رجلاً ولم ينج منهم سوى ثلاثة لان ضلعهم كان مع

فرنسا ، وانه احرقت في أرجاء حاصبيا قريتا الكفير وشويا وفي عمل راشيا قرى بيت لهيا وكفر مشكة وعيحا وحرقت حاصبيا كراشيا عن بكرة أبيها ، ولما جاء جيش الاحتلال الافرنسي في شهر ايلول سنة ١٨٦٠ الى زحلة رأى نحو ستمائة جثة من جثث الدروز ملقاة على الارض الى جانب جثث قتلى المسيحيين ، وان المدينة خربت ولم يحدث فيها قتل الا في دير اليسوعية والباقي من أهلها هلكوا في الدفاع عن بلدهم وانه قتل في دير القمر ٢٢٠٠ انسان وان ثلثمائة انسان كانوا مختبئين في دار فلما جاء خورشيد باشا قائد بيروت قتلهم عن آخرهم ، وان مسلمي بيروت وفي مقدمتهم عمر بيهم أعظم تجار تلك المدينة فتحوا بيوتهم للاجئين اليهم من المسيحيين ، واخذوا يوزعون عليهم الاطعمة وحالوا بحكمتهم دون تدخل الرعاع من ابناء طائفتهم في الامر فخففوا من غلوائهم ٠

وذكر ان عدد الهالكين من ٣٠ ايار الى ٢٠ حزيران في لبنان وسورية المجوفة كان اربعمائة انسان في المتن والغرب وجوار بيروت ، والفاً وثمانمائة في صيدا وجزين والبلاد المجاورة ، والفين وخمسمائة في قضاءي حاصبيا وراشيا ، ومائتين وخمسين في زحلة ، والفين ومائتين في دير القمر ومئة واحدوعشرين في بيت الدين ، وخمسمائة في بلاد بعلبك اي ٧٧٧١ شخصاً من الرجال والنساء والاطفال ، وانه خربت ٣٦٠ قرية وهدمت ٥٦٠ كنيسة ، وحرق ٤٢ ديراً ، وهدمت ٢٨ مدرسة كان فيها ١٨٣٠ تلميذاً ، وخسرت البلاد التي وقعت فيها الفتن جميع محاصيلها السنوية ، وقدر مجموع ما فقد من اموال المسيحيين وعروضهم في تلك البلاد بخمسة وتسعين مليون فرنك يدخل فيها اربعة ملايين قيمة تعطيل التجار عن اعمالهم مدة شهرين ٠

اما بشأن دمشق فقد أغرق في التقدير ايضاً فقال : ان الحريق والنهب والقتل دام خمسة ايام من اليوم التاسع من تموز الى اليوم الثالث عشر قتل في خلالها ٨٥٠٠ مسيحي ودمرت ٣٨٠٠ دار ، وقدرت الخسائر بمائة مليون فرنك ، ثم قدر عدد من هلكوا من المسيحيين بالامراض والقلة بعد المذابح بثلاثين الف نسمة ! وقال : اذا اضفنا هذا العدد الى من نكبوا في هذه المذابح بلغ من هلك في دمشق ولبنان ٤٦٣٠٠ انسان خلال سنة واحدة بتعصب المسلمين والدروز ٠ قلنا وجميع التقديرات تثبت ان

القتلى ومن هلكوا بسبب مصائب تلك الفتنة والامراض لايتجاوزون ربع ما قدره صاحب كتاب مذابح الشام على ان هذا العدد لايستهان به أيضاً ٠

٭ ٭ ٭

عمل الدولة والدول عقبى الحوادث

ولما ترامت هذه الاخبار المشؤومة الى الغرب أرسلت الدولة احد كبار وزراء ذاك الوقت فؤاد باشا لانزال العقوبة بالفاعلين من المسلمين والدروز ، وأرسلت فرنسا عشرة آلاف جندي للمحافظة ومنع التعدي وكذلك باقي الدول الاوربية ، ، منها من ارسل مراكب حربية ، ومنها من ارسل نواباً لاصلاح الحال ٠ وخيم جند فرنسا في البقاع تسعة اشهر وظلت السفن الاجنبية راسية في مواني الشام وعددها عشرون بارجة ، وعقد في بيروت مؤتمر دولي مؤلفاً من وكلاء الدول الخمس انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا و بروسيا ، وضعت اساس نظام جديد للبنان اقره السلطان عبد المجيد ووافقت الدول عليه (١٨٦١ — ١٢٧٧) ثم عدل هذا النظام سنة ١٢٨١ واشتركت به دولة ايطاليا مع الدول السابق ذكرها ٠

واعاد فؤاد باشا الامن الى نصابه ونفى بعض الاعيان من دمشق لانهم لم يحولوا دون الاشقياء والسفلة وما أتوا من المنكرات ، وقتل ١١١ مسلماً رشقاً بالرصاص وشنق ٥٦ ونفى ١٤٥ وحكم بالاشغال الشاقة على ١٨٦ استخدموا في انشاء الطرق وقضي غياباً بالقتل على ٨٣ وفي عداد الذين قتلوا ١٨ شخصاً من كبار أسرات البلاد واناس ذوو وجاهة ، وسمح لجميع المسيحيين الذين دانوا بالاسلام كرهاً ان يعودوا الى دينهم وعددهم خمسمائة ، وأُخليت ثلاث حارات في دمشق لسكنى المسيحيين وجند ثلاثة آلاف جندي من هذه المدينة وجعل البدل العسكري مائتي ليرة ، وارسل زهاء الف رجل للنفي والسجن الى الاستانة وغيرها ، وقتل والي دمشق المشير احمد باشا رمياً بالرصاص لتساهله في اطفاء الفتنة وقال هذا يوم قتل : اني مظلوم وسماه الاتراك بالشهيد ، وكان من عظماء الدولة تربى تربية عالية في مدارس الغرب ٠ وقيل ان فؤاد باشا عجل بقتله مخافة ان تشيع الاوامر التي وردت اليه من الاستانة ونفذها ، وانه لذلك بادر باخذ حقيبة اوراقه منه ساعة اجتماعه به ، وقتل قائد حي

النصارى وقائدي حامية حاصبيا وحامية راشيا ، وعزل خورشيد باشا قائد الجند في الساحل ، وعوض على المنكوبين من مال الدولة والاهلين . وقد قال قنصل بريطانيا : ان الخسائر المالية بدمشق من حريق ونهب واعلاق وعروض وغيرها لا تقل عن مليون وربع ليرة ، وكان يرى ان خمسة ملايين ليرة لا تكاد تكفي للتعويض عن تخريب الاملاك ، وعن خسارة الاموال والحلي والجواهر والامتعة الثمينة والسلع والملابس قال ذلك لفؤاد باشا لما قال له ان يفرض غرامة قدرها ٢٥ مليون قرش اي زهاء مائتي الف جنيه . هذا عدا ما أصاب النساء من هتك الاعراض وفض الابكار وركوب العار وبيعهن من الاكراد واهل البادية كما يباع الاماء كل واحدة بمئة الى مئة وخمسين قرشاً .

اما الدروز في لبنان ووادي التيم ودمشق وحوران فقد نفي منهم نحو مئة الى طرابلس الغرب ، ولم يقتل احد من الدروز لان المسيحيين طلبوا محاكمتهم بالشرع ولا بد في الشرع من شهود عدول ، والمسيحيون في هذا الحادث لا تصح شهادتهم ، والدروز لا يشهد بعضهم على بعض ، والا فان فؤاد باشا اراد فيما قيل ان يقتل منهم خمسمائة رجل . ولاحظ الماجور فرازر بقوله انه اذا لم يحكم على غير سبعة وخمسين قاتلاً فيستنتج من ذلك ان معظم من اشتركوا في المذابح لم يزالوا مطلقاً سراحهم ، لانه من المستحيل ان يعتقد بان اكثر من ثمانية آلاف شخص ذبحهم سبعة وخمسون رجلاً دع النساء السبايا واللائي عبث بطهارتهن . وذكر آخر ان الدروز لم يرتكبوا الفاحشة مع النساء وتركوا ذلك لرعاع المسلمين .

* * *

عمل العقلاء في دمشق وبيروت ورأي مؤرخ منصف في المسلمين

وهنا لا بد من التنويه بعمل اكثر عقلاء المسلمين في دمشق وبيروت خاصة ، وما بذلوه لحقن دماء ابناء ذمتهم من مسيحيين ومسيحيات ، فقد انقذوا الوفاً منهم على ما يقضي بذلك الدين والشرف ، ولولا ذلك لم يبق منهم ديار ، وفي مقدمتهم الامير عبد القادر الحسني ، فشكرته الدول النصرانية جمعاء ومما قالته الملكة فيكتوريا ملكة انكلترا وامبراطورة الهند في شكر صنيعه : انها عرفت من سلوك سموه

الفرق بين المسلم ذي العقل الراجح ، والجبناء المتظاهرين بالتدين الذين عملوا باثارتهم التعصب على إبادة كثيرين من المسيحيين العزّل . وقد كان للشيخ عبد الغني الميداني الغنيمي ومحمود افندي حمزة واسعدافندي حمزة والشيخ سليم العطار وسعيداغا النوري وعمراغا العابد وصالح اغا المهايني وعمر بيهم الى عشرات غيرهم من اهل العلم والسراوة في دمشق وبيروت ممن فتحوا بيوتهم لايواء مواطنيهم المسيحيين يد طولى في هذا الشأن تذكر فتشكر ولولا الوئام لهلك الانام ولقد قال السيد محمود حمزة من قصيدة في تقبيح ماصدر عن رعاع الدمشقيين من افعال القتل والنهب :

يا وحوشاً صادفت في غابها آمناً فاستقبلته بالسهام
ويحكم ما خفتم سلطانكم ان مولاكم عزيز ذو انتقام

الى ان قال :

اذ قوام الدين والدنيا معاً بابتعاث الرسل اوعدل الامام
بئس مصر قدخلت من حاكم جور سلطان ولا عدل العوام

قال مشاقة خلال كلامه على فلاح مسلم رأى مسيحياً بين القتلى الذين اهلكهم الجزار على باب عكا فاخذه الى قريته وضمد جراحه ولما عوفي حمله الى دمشق لئلا ينتقل خبره الى ذاك الطاغية : فهذه القصة ذكرتني ما ورد في الانجيل الشريف عن السامري الذي ضمد جراحات الواقع بين اللصوص ، ولكن ما عمله هذا المسلم مع المسيحي هو اعظم لانه خاطر بنفسه لكي ينقذ الغريب عنه الذي لم يكن يعرفه قبلاً ، وهكذا يوجد من الصلاح والمروءة بين المسلمين من يسدون المعروف للغرباء عنهم ، وكفى دليلاً على ذلك ما شوهد بالعيان من اعمال حضرة الامير عبدالقادر الجزائري والمرحوم صالح اغا المهايني والكثير غيرهم من اتقياء المسلمين من طبقات مختلفة في حادثة سنة ١٨٦٠ فقد صانوا ستة عشر الف نسمة مسيحية عن الذبح بسيف الاشقياء والثائرين الذين لم تصنهم حكومة دمشق لغاية لم تعد مكتومة وهي لم تعترف بها ولكن القرائن اثبتتها والتفوه بها ممنوع اه .

* * *

من المسؤول عن هذه الفتنة الشعواء

وقد كانت هذه الفتنة سبب خراب قسم عظيم من مدينة دمشق ، كما خربت مئات من القرى في لبنان ، وخربت زحلة وحاصبيا وراشيا ودير القمر الا قليلاً ، وأهم ماخرب الكنائس والاديار القديمة والبيوتات التاريخية الجميلة ، وهام كثير من المسيحيين من دمشق وغيرها على وجوههم في البلاد ، ومنهم من هاجر الى مصر وقبرص واليونان والاستانة وأصيب المسلمون باضرار كثيرة ولربما نجا المجرمون وقتل من كان جرمهم خفيفاً . والذنب كل الذنب على الحكومة وعمالها اولاً لما أبدوه من الضعف ثم على الاقرب فالاقرب من الاعيان والمشايخ والخاصة ثم على العامة .

ولو قام كل واحد من الأعيان والمشايخ بواجبه لخفّ الشر كثيراً في دمشق ، وربما امتنع عامة الاشقياء عن الاعمال على الرغم من تحريض الحكومة لهم سراً او من ابدائها تساهلاً ظنوا معه انها تدعوهم الى عمل ما عملوا . فقد ثبت ان والي دمشق قال للامير عبد القادر الجزائري وهو يستأذنه للمحافظة على المسيحيين واطفاء الفتنة : ليس لي من الامر شيء ، واذا كنت تستطيع انت ان تحافظ بجماعتك المغاربة فلك ذلك فأجابه : ان السلاح ينقصني ، فأعطاه سلاحاً لاربعمائة مقاتل . وفي تحفة الزائر ان الامير عبد القادر استأذن الوالي يوم فتنة لبنان ودمشق في طلب مشايخ الدروز الى بعض القرى خارج البلد والاجتماع بهم ليعظهم و يحذرهم سوء عاقبة ما اعتزموا عليه فأذن له وخرج اليهم وتكلم معهم بما أثر فيهم فأذعنوا لنصائحه ووعدوه بانهم لا يحركون في دمشق ساكناً ولا يثيرون فتنة ، ولما كان امر الله لا يرد قويت بواعث الفتنة ولم ينجع فيهم نهي الحكومة ولا أثرت فيهم شدة انتقامها . قال : واستمرت الفتنة قائمة ونارها موقدة اربعة عشر يوماً في دمشق ، وما أوقع احمد باشا الشهيد وجماعة من رؤساء الجند الا اغتراره باقوال من كان يستبعد ان يقع في دمشق ما وقع في الجبل ، لدعوى وجود البواعث المقتضية لذلك بين اللبنانيين وعدمها في دمشق .

ومن القرائن القوية على ان لحكومة الاستانة يداً في إثارة هذه الفتنة ، انها أَرسلت بعض رجالها قبل وقوع المذابح باشهر الى الشام وبعد ذلك تبدل وجه كل

شيء وتغيرت معاملة الحكومة للمسيحيين . ومن يحسن الظن بالحكومة التركية ينسب ما جرى الى إهمال العمال والى ما كان لديهم من الوسائط القليلة والرجال ، وان الحكومة أرادت ان تنتقم ممن كانوا يتطلعون الى دولة أخرى تحكمهم كالدولة المصرية ، ولسان حالها في الحقيقة بشأن هذه الفتنة المثل المشهور « لم آمر بها ولا ساءني » وما ذا يهمها قتل نحو احد عشر الف نسمة وخراب قدّر ببضعة ملايين من الدنانير وغير ذلك من المقابح والمساوئ ، اذا كان في ذلك تأييد سلطانها على بلاد ما زالت سلطتها عليها اسمية منذ فتحتها .

وقد ذكر العارفون من العرب والفرنج انه لولا انتداب الدولة لمثل الداهية فؤاد باشا لعقوبة الرعاع وغيرهم لكانت اوربا اشتطت في معاملة الدولة وسلبتها بعض ولاياتها او لمزقتها الا قليلاً . ومن حسن الحظ ان هذه الفتنة لم تتعد دمشق وأواسط لبنان ونجا منها شماله بفضل رجل اسمه يوسف كرم حال دون انبعاث الدروز الى جهاته ، ولو اتصلت نيران الفتنة باقاليم الجنوب والشمال ولم تبق محصورة في الوسط لكان الهول أعظم والخطب أدهى وأمرّ . ونجت جنوب أرض الشام وشمالها لضعف الحكومة فيهما ، ولان القول الفصل في كل بلد كان لجماعة من عقلائها ووجوهها فان الرعاع حدثتهم أنفسهم ان يبطشوا في حمص وحماة وحلب وطرابلس واللاذقية ويافا وغيرها فحال عقلاء تلك المدن دون الايقاع باحد من أهل وطنهم ، ولم تبتل بلادهم بما ابتليت به سورية المجوفة .

***

سوء أثر حوادث الشام في الدولة ومنازعة الدول لها في سلطانها	سبع عشرة سنة مضت على الدولة وهي تحرك النعرة الدينية لتضرب الدرزي

بالمسيحي والمسيحي بالمسلم ، حتى وصلت الى هذه النتيجة المرمضة من إهلاك من أهلكت وإضعاف من أضعفت ، فانتقمت من أهل البلاد الذين قتلوا بعض ولاتها قبل دخول المصريين ثم عاونوا محمد علي الكبير معاونة فعلية وأدبية وبالغت في عقوبتهم حتى أنستهم ما استمتعوا به على عهد حكومته الرشيدة وخلصت من حماية فرنسا وانكلترا للموارنة والدروز ، ولكن السياسة التي اتبعتها كادت تفشل وتخرج البلاد كلها من الحكم

العثماني ، لولا الشدة في عقاب من قضت السياسة بعقوبته والاسراع بتنفيذ الاحكام والتعويض على المنكوبين . ولِمَ لم يقو فؤاد باشا الا على المسلمين لانهم لا سياج لهم الا الدولة العثمانية ، يؤثرونها على غيرها مع اعتقادهم ظلمها وسوء ادارتها ، اما الدروز فان لهم كالموارنة سنداً قوياً يحميهم . ولذلك لم يؤاخذ أشقياؤهم بما أجرموا ، وهذا من غرائب السياسة في هذا العصر ان يجعل القاتل في حلٍّ مما أتاه . ولكن المسلمين من جهة ثانية انتفعوا بهذه العبرة التي وقعت لهم وان كلفتهم كثيراً ، فأصبحوا لا يثقون برجال الدولة على الجملة ، ويعتقدون ان الظاهر من أقوالهم غير الباطن ، وان الدولة متى اقتضت مصلحتها تهلك أمة حتى تستفيد فائدة صغيرة ، وتخرب بلداً اذا كان من ذلك مغنم ترجوه . وبهذا العمل الأخرق الذي قصدت به الدولة التفريق بين اجزاء قلوب أبناء الوطن الواحد المشتركة منافعهم ، المتحدة مرافقهم ، قد سلبت شطراً من سلطتها ففتحت ابواب بلادها لدول اوربا بان اعطتها الحق لحماية طوائف من رعاياها ، وكانوا لا يرون غيرها مرجعاً لهم في الشام ، وأوجدت مسألة « حماية الاقلية » على مقياس واسع ، فنتج من ذلك انشاء حكومات داخل حكومة ، واصبح رؤساء الدين من المسيحيين يراجعون العمال في شؤون طوائفهم في التافهات والمهمات ، ويريدونهم على تأييد مطالبهم وان كانت جائرة احياناً ، وصار العامل اذا لم يخفض جناح الذل للرئيس الروحي على ما يجب يقيله من وظيفته بما لديه من الوسائط الفعالة . وامست دور القناصل بعد الحادثة محاكم دائمة للنظر في قضايا من علقوا آمالهم على الدولة التي تمثلها تلك الدار . وغدا قنصل روسيا مسيطراً على مسائل الروم الارثوذكس ، وقنصل فرنسا الحاكم المتحكم في قضايا الكاثوليك ، وقنصل بريطانيا العظمى مهيمناً فيما يعرض للبرتستانت والدروز وغدا اهل كل نحلة يجعلون من الدولة التي يمتّون اليها معقد آمالهم ، ويدعون في سرهم وجهرهم ان يقرب ايام حكمها مباشرةً عليهم ، ونزل كثير من الطوائف عن مشخصاتهم فأصبحوا عرباً بالدم متفرنجين بالتربية والعادات ، يحتقرون ما كان عليه أجدادهم ، ويغالون في اقتباس ما عند غيرهم ، خصوصاً اذا كانوا ينتحلون نحلتهم ويرون في الآخرة رأيهم . على ان الحادثة فتحت لجميع السور بين ابواب الاخذ عن الغرب وما كان ذلك مما اضر على اطلاقه ، بل جاءت منه فوائد

مهمة في باب الحضارة. والعبرة المهمة التي اخذها الناس من هذه الفتنة المشؤومة ايقان جمهور تلك الطوائف التي عبث بها العابثون ، ان النبعة على قدر الفهم وان القتلة وارباب الدعارة نال شرهم الابرياء من طوائفهم ، وانه لا يؤاخذ اذا جدّ الجد غير اهل المدارك وعيون الناس .

وكم ذنب مولدّه دلال وكم بعدٍ مولده اقتراب
وجرم جره سفهاء قوم فحلّ بغير جارمه العقاب

العهد العثماني

«من سنة ١٢٧٧ الى ١٣٠٠»

البلاد بعد فتنة سنة الستين } خرج الناس في دمشق ولبنان بعد المذابح الفظيعة في تلك السنة المشؤومة ، سنة الستين بعد الثمانمائة والالف ميلادية ، وقد خسروا مادياتهم ومعنوياتهم . هلكت النفوس التي حرم الله قتلها ، وهلك الوف من المسيحيين ومئات من المسلمين والدروز ، وخسر أهل المدن والقرى اموالهم ، وخربت الدور والقصور ، وحرقت البيع والاديار . وكانت الخسائر في المعنويات اشد لأن الغرب أساء الظن باهل هذه الديار ، واجمل حكمه عليهم كافة وعدّهم متوحشين ظالمين ، ولم يستطع احب الناس من الاوربيين للمسلمين ان يدافعوا حق الدفاع عنهم ، مع علمهم بان الفتنة امر دُبر بليل ، والدولة هي المسؤولة اولاً وقد رجحت كفة الدروز في مدينة دمشق بما جاءهم من نجدات الحورانيين ابناء مذهبهم فكان من الدروز ان اشتركوا اكثر من المسلمين في هذه المذابح . وكان للجند النظامي وغير النظامي من الاجناس المختلفة يد في قتل المسيحيين في ضواحي صيدا وبيروت وديرالقمر وحاصبيا وراشيا وزحلة ودمشق وغيرها ، وهم الذين هتكوا الاعراض على الاكثر فباؤا بالخزي والعار ، واخذت اوربا بعد ان قويت علاقاتها التجارية بالشام تسعى الى تقليلها ، لان كابوس الفتنة استولى بعد تلك الوقائع على الناس في الغرب والشرق سنين كثيرة ، وربما دام حتى انقرض من شهدوها وسمعوا بفظائعها .

جمعت الدولة للمنكوبين غرامات حربية من الاهلين بما زادت عن طاقتهم ، ولم يصل الى المصابين كما قال مشاقة اكثر من ربع الذي تكلفت له الدولة ، فضاع الربع الثاني في النفقات اللازمة ، والثالث اختلسه مأمورو الحكومة ، والربع الرابع ربحه صيارفة اليهود ، وبالجملة فان الخسارة وقعت على الدولة والمسلمين والنصارى ، ولكن الدولة استعاضت عما فقدت تذليل الرعايا واخضاعهم لكل ما ترسمه عليهم ، حتى لقد جبى فؤاد باشا بقايا الاموال في دمشق التي اعيا الولاة تحصيلها على ايسر وجه ، ولم يبق للعشائر رؤساء تتعب الحكومة بمعارضة اوامرها .

وخرج لبنان من فتنته ممنوحاً استقلالاً ادارياً ، واخذ يستمتع منذ سنة ١٢٨١ بنظام خاص فينتخب له الباب العالي متصرفاً مسيحياً بموافقة الدول الست العظمى ويعطي الدولة بالاسم ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس خراجاً سنوياً وبقيت تسد العجز في موازنة الجبل مدة طويلة ، واهم ما ربحه لبنان القضاء نهائياً على سلطة ارباب الاقطاعات . واصبح كما قال بعضهم في عهده الجديد ملجأً للاحرار من كل نحلة كما كان بفضل الامراء المتولين عليه من آل عساف وآل معن وآل شهاب ملجأ للطوائف الكاثوليكية .

اما مسلمو دمشق فبدأت ايام ذلهم بالقضاء على كبرائهم ، وكان في قتلهم وتشريدهم عبرة لمن خلفهم او نجا من المعمعة ، واصبحوا عبيد الدولة حقيقة في كل ما تأمر به ، حتى ان منهم من كانوا لا يراجعون الوالي وان كان غلطه ظاهراً كل الظهور حتى لا يغضبوه بزعمهم ولطالما حاول بعض الولاة العقلاء ان يعلمهم حسن الدفاع المعقول عن حقوق الاهالي ، فكان جوابهم ان افعلوا يامولانا ما تشاؤن فانا لا نحب المناقشة مع العظماء . افراط في العهد الاول وتفريط في العهد الثاني وغضب الجاهل في قوله وغضب العاقل في فعله .

* * *

السلطان عبد المجيد وخلفه عبد العزيز } توفي السلطان عبد المجيد سنة ١٢٧٧ (١٨٦١) اي بعد مضي اشهر من انتهاء فتنة الشام ، وكان عهده سيئاً يحكم في شؤون المملكة السراري والجواري والمقربون في القصر السلطاني

و يسرف السلطان في الاموال و يبدد ثروة السلطنة ، وكان اسرافه مبدأ ارتباك الدولة في ماليتها — كما كان الخديوي اسمعيل مبدأ خراب مصر بما ارتكبه من الاسراف والبذخ — فان عبد المجيد لما زوج ابنته فاطمة من علي غالب بن رشيد باشا أنفق على الجهاز والعرس مليوني ليرة افرنسية . وكان كما قال دي لاجونكيير اكثر ملوك بني عثمان انسانية ، اكتشف عدة مؤامرات رُتبت للايقاع به فكان كل مرة يعفو عن المتآمرين ، فحمل الى قبره أسف أمته وحرمة اوربا له التي أثنت عليه على الرغم من فجائع الشام وجدة ، وذلك لكونه لم يقض على عمل السلطان محمود في الاصلاحات ولانه ساعد ما وسعته قوته على تأييدها والاحتفاظ بها .

خلف عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز ، وأخذ لاول مرة يهتم لتنفيذ خطط الاصلاح التي وضعها ابوه واخوه اولاً ، وبدأ بنفسه في اصلاح المالية ، فآلى ان لا يتزوج بغير امرأة واحدة ، وأبطل الاسراف في نفقات قصره ، فتخلى عن جزء مهم من مرتباته ، ولم يلبث ان عاد الى طبيعته في الترف ، وعاد الاسراف في أموال السلطنة الى أبشع صورة بحيث لم تأت سنة ١٨٧٥ م حتى أعلنت الدولة إفلاسها ، وتمنت لو تقترض من مصارف اوربا بفائدة اثني عشر بالمئة . قال في التاريخ العام : ولسوء الحظ ان السلطان عبد العزيز نسي حالاً نياته الحسنة الاولى ، وأصبح في الحرم تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم وخادمة ، وكانت تمدّ كل يوم خمسمائة مائدة و يجلس الى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً .

نشر اول قانون للولايات على اصول فرنسا سنة ١٢٨١ (١٨٦٤) وكان السلطان عبد المجيد في سنة ١٢٧٢ (١٨٥٦) نشر خطاً سلطانياً يقضي بادخال اصلاحات ادارية كثيرة في السلطنة العثمانية ، عاقت حوادث الشام عن تطبيقها في ربوعه ، فأخذت البلاد بعد الحوادث المشؤومة تتدرج نحو المدنية ، وقد تخلصت من أرباب الاقطاعات كل التخلص ، لكنها لم تتخلص من ارباب النفوذ في المدن والقرى ممن كانوا يسرقون الامة والحكومة معاً ، ويقاسمون الولاة والعمال على الارباح . اما الولاة في اول القرن والقرن الماضي فكانوا لا يهتمون الا بالاحتفاظ بولاياتهم ، ويبدلون بسرعة كما قال احد العارفين من الاوربيين بمن يجهلون كثيراً

أخلاق الشعب وادارة الاحزاب وسياستها ، فينبذون وراء ظهورهم الاهتمام بانجاح الولايات لانهم موقتون بقصر مدة ولايتهم عليها ، فيكبّون مدة حكمهم على جمع الاموال الوافرة بقدر ماتمكنهم الحال . وفي أواخر هذا القرن تبدلت الاحوال فأصبحت الدولة تبعث الى الشام باعاظم رجالها يتولونها ، وفيهم المستقيم العفيف عن أموال الناس العارف باصول السياسة والادارة .

وفي سنة ١٢٨٦ كانت الواقعة المعروفة في جبال العلويين بوقعة الوالي ، وسببها ان طائفة الكلبية ظهر منها شقاوة ، وخالفت اوامر الدولة فأرسلت هذه واليًا لتمهيد الامور وارجاع العصاة الى الطاعة ، ومعه جيش قدر بعشرة آلاف فسار الى قرية الجديدة ورابط فيها ، فأرسل الوالي يطلب مقدمي الكلبية ووجوه العلويين ومقدميهم ومشايخهم المعتمد عليهم من قضاء صافيتا الى ناحية البجاق ولما وافوه قبض عليهم جميعًا وسار الجيش الى قرية المرج وامر بحرق القرداحة اكبر دساكر تلك الجهة ، كما احرق بعض قرى الكلبية والنواصرة ثم مضى الى بني علي واحرق وافسد وعذب جميع الطوائف العلوية من عمل صافيتا الى البجاق ، ولما شفيت صدور الجيش من العذاب والتخريب ، التأم مجلس اداري في جبلة فحكم بصلب ثلاثة من أعاظم الطائفة الكلبية وصلب آخر من بني علي ، واخذت الحكومة الباقين الى بيروت فسجنتهم خمس سنين ثم برأتهم واطلقت سراحهم .

ويحدثنا الشيوخ ان ايام السلطان عبد المجيد وعبد العزيز كانت سعيدة على الشام في الجملة ، وان كان ذانك الدوران مبدأ تصفية حسابات الدولة ، فقد اعلنت رومانيا في ايام عبد العزيز استقلالها ، وتخلت الدولة عن الصرب ، وطلب سكان كريت (اقريطش) ان تدخل الاصلاحات على جزيرتهم فلما رأوا اهمالاً من الدولة طلبوا ضمهم الى اليونان ولكن الباب العالي قوي عليهم ونجحت سياسته . وفي سنة ١٨٦٨ نزعت مصر عن الدولة واصبحت خديوية تدفع خراجًا معينًا للسلطنة ثم هاج سكان البوسنة والهرسك وساءت حالة السلطنة واصبحت الديون العمومية اربعة مليارات فرنك بعد ان كانت قبل عشر سنين ٣٧٥ مليونًا انفقها السلطان في خصوصياته . وبينما كان عسكر الدولة يحتاج الى المال في بلغاريا ، والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ

اشهر ، كان عبد العزيز يفكر ان ينقل قسماً من ثروته الخاصة على باخرة اجنبية الى اوديسا . هذا والثورة فاشية في بلغاريا والصرب والجبل الاسود تحارب الدولة ، واوربا تخاطب الحكومة في امر المسيحيين الذين كانت تخشى على حياتهم مخاطبة الآمر للمأمور فتمس كل يوم عاطفتها ، وشهرت الدولة افلاسها ولم يصرف السلطان من الاموال التي اقترضها سوى واحد من خمسة عشر على الجيش والاسطول . برهان واضح على قبح الحكم المطلق كيف كان نوعه وحالة القائم به ، وانه اذا اتفق ان جاءت فيه بعض ايام راحة فهي نسبية لاتكون معياراً ، ولم تربح الدولة من عهد عبد العزيز سوى تأسيس نظارتين مهمتين العدلية والمعارف .

✡ ✡ ✡

خلع السلطان عبد العزيز وتولية مراد الخامس

شقيت السلطنة بادارة عبد العزيز وكادت تتداعى اركان الدولة وهو لاهٍ في افراحه لايبالي بما تخبأوه الايام ، ما دام كل من تحت سماء السلطنة عبيده الخاضعين ، فأصبح لاينفذ امراً للوزارة وكأنه عرف حالته فاخذ يفاوض سراً امبراطور روسيا ليحميه فاطلع الوزراء على الامر فلما رأوا سوء المغبة عياناً تآمروا على خلعه فاجتمع الصدر الاعظم مدحت باشا وناظر الحربية حسين عوني باشا ورشدي باشا المترجم من أعاظم رجال السلطنة بالاتفاق مع الشريف عبد المطلب وكان ذلك برأي مدحت باشا اولاً واسرعوا في خلع السلطان عبد العزيز على حين فجأة ، قبل ان ينقل ثروته الى الديار الاجنبية ، ويطلع على ما دبروا له فيبطش بالمتآمرين ، وذلك بفتوى شيخ الاسلام حسن خير الله افندي اثبت فيها عليه العتَه والجهل بالامور السياسية ، والاسراف في اموال الامة بما لاتستطيع تحمله وانفاقه في شهواته ، واخلاله بعمله في امور الدنيا والدين مما ساق الملك والملة الى الخراب . ونصبوا بدله السلطان مراداً الخامس .

ولما كان السلطان عبد العزيز على جانب من عزة النفس وشمم السلطنة صعب عليه الخلع فطلب مقراضاً يقص به شعره فانتحر بقطع بعض عروق يديه وقيل بل قتل بيد اثيمة وهو غير صحيح . وقد ساعد سفير انكلترا رجال الدولة القائمين بهذا العمل ، بان استدعى قسماً من الاسطول الانكليزي الى ميناء الاستانة ليلجأوا اليه اذا

انكشفت مؤامرتهم قبل اتمامها . ولما تربع السلطان مراد في دست السلطنة تنازل عن ستين الف كيس من مخصصات القصر وترك للمالية ريع المناجم والمعامل على حين كان يرسف في قيود ديونه التي تراكمت عليه منذ ولايته العهد ، فانافت على مليون ليرة وليس في الخزينة من المال ما يكفي الا لسدها وبعض زيادة طفيفة ، والجند والموظفون لم يتناولوا رواتبهم منذ احد عشر شهراً . وكان السلطان مراد ليلة خلع عبد العزيز ارتاع فأصابه مسٌّ من الجنون لما بشروه بالبيعة له بالسلطنة ، على صورة لم يكن يتوقعها واشتد خاله بعد ايام من توليته عند ما بلغه مقتل حسين عوني باشا فلم يتلطف مبلغه بالامر وقال له ان الوزراء قُتلوا فقال الآن جاءت نوبتي في القتل وبدأ معه الجنون المطبق فلم يسع اهل الحل والعقد في دار الملك الا خلعه بعد ان سكتوا على ذلك شهرين فخلعوه باثبات جنونه المطبق ونصب مكانه السلطان عبدالحميد الثاني يوم ١٦ شعبان سنة ١٣٩٣ ، بعد ان تعهد لمدحت باشا بان ينشر القانون الاساسي ، ويؤسس في السلطنة حكومة دستورية .

* * *

عهد السلطان عبدالحميد الثاني

تولى السلطان عبد الحميد زمام السلطنة وروسيا تهيج ممالك البلقان ، والدولة مائلة الى السقوط لاسراف عبدالعزيز ، فالغى جانباً كبيراً من نفقات المطبخ السلطاني ، وكانت نفقاته على عهد عبد العزيز اربعين الف ليرة في الشهر فأنزل مبلغاً لا يستهان به ، وقضى ان لا تخرج من المابين موائد الطعام بل ان يأكل فيه من له حق الاكل ، وألغى الامتيازات التي كانت لوالدة سلطان ، لان والدته ماتت وهو صغير فتوفر بذلك ١٥٠ الف ليرة نفقات سنوية وأخذ يتولى بنفسه ادارة الشؤون ويتفنن في الجاسوسية ليطلعه الجواسيس على الصغيرة والكبيرة . لكن روسيا أعلنت الحرب على الدولة فنزعت البوسنة والهرسك من أملاكها واستقلت الصرب والجبل الاسود ، وانهزم العثمانيون أمام الروس وخرجوا من حربهم وقد اضاعوا جزءاً مهماً من بلادهم وما يربو على مائتي الف كيلو متر مربع من الاراضي ، وسبعة ملايين من الرعايا ، وانسلخت جزيرة قبرص عن السلطنة ، وقضت معاهدة برلين (١٢٩٤) ان لا تسلب من الدولة الامارات

التي كانت تابعة لها فقط ، بل نصف ارضها في اوربا ، وان يتعهد السلطان باصلاح مكدونية وكريت وارمينية وتحملت السلطنة غرامة باهظة . وأعلن السلطان القانون الاساسي في المملكة وسارع بتأليف مجلس نيابي ومجلس شيوخ واجتمع مجلس الامة قبل ان يحضر نواب اليمن وبغداد والبصرة وطرابلس الغرب لبعد بلادهم واكتفوا بوجود ثلثي النواب ، وانتهت معاملة اعضاء مجلس النواب بعد ثلاثة اشهر من نشر القانون الاساسي ، ولم يكن انتخاب النواب بالرأي العام بل بتعليمات موقتة بمعرفة مجالس الادارة .

ولما تناقش النواب في مسألة الصلح مع روسيا لم يرتضوا بالشروط الصعبة التي اقترحتها الدولة الظافرة وحدث في المجلس اخذ ورد ، فشق ذلك على عبد الحميد وربما بدرت بوادر من بعض النواب بحق السلطان فأمر باقفال المجلس ، وكان على حالة يرضى معها ان يتنازل عن ثلثي المملكة على ان يضمن له عرشه ، فصدر امره بتوقيف أعمال مجلس النواب الى مدة غير معينة وأمر باخراج عشرة من نواب الولايات في ثماني واربعين ساعة من الاستانة ، وكان منهم خمسة من ولايات الشام فأظهر بذلك اول صورة من صور استبداده خالف بها الاصول النيابية ، ولم تتمتع الامة بحرية الدستور سوى اربعة أشهر لانه صعب على مانحه ان يسير على غير خطة الاستبداد ، وندر ان يجيء من المستبد الا مستبد ، فزاد حنق الاحرار والغيورين على بقاء السلطنة العثمانية ، واخذ هو يشتد خوفه على نفسه ويقضي على من كان خلعُ عمه عبد العزيز على ايديهم من الوزراء ، ولا سيما مدحت باشا الذي نقله الى ولايات بغداد والشام وازمير ومنها الى حبس الطائف فقتله هناك ؛ وأخذ يستكثر من الجواسيس حتى لم يأت عليه بضع سنين الا وأصبح لا همَّ له الا اتخاذ الاحتياطات لذلك ، وكثرت أوهامه وظنونه ، وانشأ يراقب المطبوعات مراقبة دقيقة مضحكة ، ولا يسمح بنشر جريدة ولا كتاب على الاكثر الا اذا طُرز باسمه واختلقت له فيه الاماديح . وفي اول عهده (١٨٨١ م) اخذ الصهيونيون ينزلون فلسطين مئات كل سنة ، وهم مقدمة الصهيونية الذين كانوا يحاولون ان يقيموا بناء القومية اليهودية في فلسطين ويعيدوا لصهيون اي القدس مجدها بانشاء المعبد الذي خرب وعرش داود .

انسيال الدروز على جبل حوران ووقائعهم } مضت قرون على لبنان قبل منحه استقلاله النوعي عقيب حوادث الشام وهو بؤرة الفتن ، ومنبعث الثورات والقلاقل ، لانه كان فيه كتلتان عظيمتان بل دينان مختلفان الموارنة والدروز . كل منهما يريد التوسع في السلطة ، وكل منهما تعلم الطاعة لرؤسائه وعقاله ، يسير بقيادتهم يوم الكريهة ، او يجتمع تحت لواء صاحب إقطاعه راضياً مختاراً ، وكل منهما يستمد من قوة غريبة . والموارنة أقدم استمداداً وصلات بالامم اللاتينية من جيرانهم ، وجيرانهم أشد بأساً واكثر مضاء اثبتوا ذلك في مقاتلتهم الصليبيين في هذه الديار فكان قتالهم لهم أشد من مناجزة بعض الطوائف الاسلامية من سكان ارجاء الساحل لهم . فلما وقع ما وقع في حوادث لبنان عام (١٨٦٠ م) قضت الطبيعة على بعض رجال طائفة الدروز ان يهاجروا الى جبل حوران فرحلوا اليه في فريق من اخوانهم اهل وادي التيم والجبل الاعلى وصفد وعكا وغوطة دمشق وقرى القنيطرة وكان منهم طائفة فروا من وجه القضاء في الاصقاع الاخرى ، وآخرون اتوا حوران بدافع الحاجة ، فكثروا سواد من كانوا حلوا في هذه الربوع ايضاً من ابناء مذهبهم ، واول نزول الدروز في حوران بعد وقعة عين دارة المشهورة في لبنان سنة (١٧١٠ م ١١٢٢ هـ) فتألفت كتلة منهم هناك وقويت عقيب حوادث الشام ، وأخذ الدروز يرجعون الى اخلاق البادية بعد ان كانوا على وشك ان يدخلوا في الحضارة في اللبنانيين الغربي والشرقي .

اعتز قدماء الدروز باخوانهم الذين جاؤهم وأخذوا يجمعون شملهم على عادتهم بإمرة قوادهم ، وكان اهمهم بنو حمدان ثم أسرة بني الاطرش التي اصبح الجبل الا قليلاً بتدبير كبيرهم اسماعيل الاطرش خاضعاً لهم ، وسلطة هذا البيت تتناول اكثر انحاء الجبل والاكثرية معهم على الاغلب . ومنذ نزول الدروز في حوران ما برحوا يناوشون المسيحيين والسنيين من اهل القرى والبادية القتال ، حتى استقلوا به استقلالاً تاماً ، وكانت اول وقائعهم المشهورة بعد وقائع ابراهيم باشا ما حدث سنة ١٢٩٦ بينهم وبين اهل بسر الحريري من اجل فتاة ، فهجم الدروز على بسر وقتلوا من اهلها ثمانية او عشرة اشخاص وقتل من اهل بسر خمسة اثناء الدفاع عن

انفسهم ، وعند ذلك تجمع الحورانيون الوفاً ، وأراد مدحت باشا ان يجيب الحورانيين الى مطالبهم وهي إنزال العقوبة بثـلاثة وعشرين رجلاً من الدروز ، فابى الدروز الا ان يعطوا دية عن القتلي ، وقصد ان يسوق قوة على حوران للتهديد لا للضرب ، ثم حلت المسألة صلحاً .

قال عثمان نوري في تاريخه : وعقيب ذلك طلب مدحت باشا اعفاءه من ولاية سورية ، فاغتبط عبد الحميد بذلك لانه كان يرى ان بقاءه طويلاً في هذه الديار لا يجوز ، لانه تذرع بعمرانها وهو منه موجس خيفة على الدوام .. وقال كان النزاع والجدال قائمين على ساق وقدم بين أهالي سورية المتباينين في الدين والجنس ، فلما وليها مدحت باشا دخلت في طور السكينة والامن ، ولا سبيل الى تقرير الحكم العثماني في بلاد تتأثر فيها الافكار بالنفوذ الاجنبي الا بانتظام الادارة واجراء العدل وتنظيم المالية ، وهذا ما عمله مدحت باشا . وكان عبد الحميد يرائيه في كل مايرتئيه ، ويحول دون امانيه . بحيث ان السلطان لم يكن يتوقف ساعة عن بث بذور الاضطراب في البلاد لينتقم من مدحت باشا وذلك بتحريض مثل المشير احمد ايوب باشا وجميل باشا عليه اه .

انتهت مسألة الدروز بعد ان ساقت الدولة عليهم قوة الى القراصة من عمل نجران وقتلت منهم ستمائة واستأمن الرؤساء ، ولم يكن سواد الدروز في الجبل اذ ذاك اكثر من عشرة آلاف ، وتسمى هذه الوقعة بوقعة القراصة وهو ماء قرب نجران ، ولما لم تحسن الدولة الادارة في الجبل زادت جرأة الدروز الى ان كانت سنة ١٢٩٨ فهجموا على قريتي الكرك وام ولد وذبحوا سكانهما على بكرة ابيهم ولم يبقوا حتى على الاطفال الرضع ، فسيقت عليهم حملة بقيـادة المشير حسين فوزي باشا اسفرت عن ربط دية شرعية مقسطة عليهم ، وتأسيس قائممقامية جبل الدروز مؤلفة من ثماني نواح وتعيين القائممقام والمديرين منهم .

كانت الدولة تقاسي الامرّين في تأديب عصاة الدروز كل مرة . قال مدحت باشا في مفكراته سنة ١٢٩٧ والذي زاد في الطين بلة ان فرنسا تحمي الموارنة الكاثوليك وانكلترا تتشيع للدروز وكل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع

نفوذهما في سورية او مضاربة احداهما مع الاخرى ، فلما اخذت الدولة اهبتها لتأديب الدروز قام سفير انكلترا في الاستانة يشكو من ذلك ، ويكرر الترداد على المابين والباب العالي فاصبحت الاوامر ترد تترى بحل هذه العقدة حلاً سلمياً » .

***

المصلح مدحت باشا وطبقته من العمال

اضطر مدحت باشا ان يتخلى و يا للاسف عن ولاية دمشق وقد طبق مفاصل الاصلاح في ارجائها الواسعة على اسرع ما يمكن ، انشأ الطرق والمكاتب والمدارس ، ونشط الصناعات والزراعة وضرب على ايدي المرتشين ، ونشر الحرية الشخصية ، ولقن الحكام والمحكوم عليهم دروساً في الوطنية والشعور بالواجب ، وكان يرجى للشام ان تسبق الاستانة في الحضارة بفضل اصلاحاته لو طالت ايامه وايام غيره من الولاة المقتدرين امثال ضيا باشا في دمشق ، ورستم باشا وداود باشا في لبنان ، وكامل باشا في حلب ممن كانوا بسيرتهم معلمين للحكام ، وضعوا لهم اصول الادارة ، وحرصوا حقيقة على امتاع الناس بالعدل واعمال العمران ، فكانوا حجة على الدولة بانها تستطيع الاصلاح اذا ارادته على قلة الرجال لديها على شرط ان تتركهم يعملون بوجداناتهم وعقولهم ، وما عهد اليهم تنفيذه من القوانين الكافية بمعرفة ارباب النزاهة من رجال البلاد .

وقد تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ والياً وعلى حلب ٥٢ والياً وهكذا سائر الولايات والمتصرفيات الثانوية ، لا يسلم الوالي الا ريثما يودع والطيب منهم هو الذي لا تطول ايامه خاصة ، لان حساده كثيرون في الاستانة وفي الولاية التي يتولاها وتقارير الجواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد ، والدولة يصعب عليها ان تتفلت من قيودها القديمة قيود حكومة القرطاسيات اي المفاوضات الطويلة بالورق ، فاذا رأت رجل جد من ابنائها يحاول ان يعلمها الصواب في المعاملات ، لا تلبث ان ترميه بكل شنعاء ، وكان حظ النوابغ في كل دور من ادوار العثمانيين ولا سيما في العهد الحميدي ان يغض منهم و يسعى الى التخلص من اصلاحهم ومراميهم ولسان الحال يناديهم لا نحب ان نخرج عن مألوفنا العاطل المجمع على عطله ونؤثر ان نموت فيه على سلوك سبل التجدد :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

العهد العثماني

«من سنة ١٣٠٠ الى سقوط عبد الحميد الثاني»

الحالة في مبدإ القرن الرابع عشر وإصلاح بلاد النصيرية والسبب في خرابها	غدت الدولة العثمانية أوائل هذا القرن ببلاد الشام قوية الشكيمة لسرعة الاتصال مع دار السلطنة ، وتشعب الاسلاك البرقية

وطرق البريد ، وشدة مراقبة دول اوربا لاعمال السلطنة ، وتسابق الدول في تأييد نفوذهن في بلاد العثمانيين . وامتاز لبنان الذي كان يكثر ترداد اسمه بثوراته وإقطاعاته الحين بعد الآخر ، بان انقطع ذكره بعض الشيء في باب المسائل المزعجة ، وأصبح يعمل لنفسه بما متع به من إمتياز خاص ولم يعد الدرزي والماروني فيه يقتتلان كما كانا في القرن الماضي لتأييد سلطان ملك او أمير او للأخذ بيد صاحب الاقطاع او حبًا بالغارة والنهب والقتل .

ونشبت فتن في جوار لبنان من بلاد النصيرية لان هؤلاء لم يتأت لهم نصير من الغرب كما قام للبنانيين يأخذ بايديهم الى السعادة التي يتخيلها لهم و يسوقهم الى طريق الحكم الذاتي ولو على صورة ابتدائية وكان أهل السنة المجاورين للنصيرية ينظرون اليهم نظر الازدراء وهم في جبالهم يعدون قوة يحسب حسابها واذ كانوا طوع إرادة مشايخهم ورؤساء قبائلهم كانت سلطة الدولة عليهم قليلة . واذا كتب للدولة ان احرزت بعض سلطان عليهم في الشواطئ البحرية اوفي الاماكن القريبة من ضِفاف العاصي من جهة الداخل فان اعالي الجبال كانت معتصمهم ، وربما كان فيها

اما كن لم تدسها حوافر الخيول التركية لوعورة مضايقهم ، وقد ارسل السلطان عبد الحميد رجلاً من خاصته اسمه ضيا باشا جعله متصرفًا على لواء اللاذقية في مبدإ هذا القرن فرفع عن النصيرية الظلم ووسد الحكم لبعض مشايخهم ووجوههم بان جعلهم اعضاء في المحاكم والمجالس ليشعر نفوس قومهم العزة بعد الامتهان والذلة ، وانشأ لهم جوامع ومدارس فاخذوا يتعلمون و يصلون و يصومون ، واقنع الدولة بانهم مسلمون فلم يعصوا له امراً ونفس من خناقهم ، فبدأوا يشعرون بانهم بشر كسائر مواطنيهم وانهم شركاء في هذا القطر لهم فيه حقوق سائر ارباب المذاهب ، وبعدان ترك هذا المتصرف العاقل منصبه الذي دام بضع سنين على احسن ما يكون ، مع انه كان بعمله في درجة الأميين خربت المدارس وحرقت الجوامع او دنست وكانت الدولة في اكثر ادوارها لاتأخذ من معظم بلاد النصيرية شيئًا يذكر من الضرائب ، والقائم مقام الذي يجبي منهم ضريبة السنة او بقايا ضرائب السنين السالفة تصفق له الدولة وينال تقدير ولاة الامر فيشرفونه برتب الدولة ومراتبها ، وكانت جباية خمسين الف قرش من النصيرية قد تستلزم اعداد حملة عليهم ينفق عليها ما يقرب من المبلغ المجبي احياناً .

قلنا ان النصيرية كانوا ينظر اليهم نظر ازدراء . وقد سألنا عالم جبلهم في ايامنا الشيخ سليمان الاحمد عن رأيه في الحوادث الاخيرة في بلاده ، فكتب الينا يقول ما نثبته بالحرف لان قوله حجة في هذا الباب قال : « كان اهل الحاضرة (اللاذقية) في هذا القرن يعدون ما يفعله جهلة العلويين بفتيا علماء الدين ، فيعصبونه بهم لدى الحكام و يغرونهم بهم و بالرؤساء ، و يحرضونهم على الفتك بهم بكل واسطة ، وكان الدين اعظم الوسائط التي توصل بها الى هذه الوحشية والبربرية (ومن جري ذلك المصاب العظيم الذي وقع على آل سعيد البهلولية من اشرف واجل البيوت العلوية في حادثة سنة ١٢٩٥) وما كان العلويون ليحملوا وزر مصائبهم على الدولة التركية ، بل على وجهاء البلد ورؤسائه السنيين وعلمائهم ، ثم على اهل الفساد من مقدميهم ورؤسائهم الذين كانوا يسارعون لما بين عشائرهم من الضغائن والاحقاد والغارات ، الى الدخول بخاطر الاغوات ثم بخاطر الحكام عن ايديهم ، ومن تم له الفوز جردت له الحكومة العساكر الجرارة ، وسلمته قيادتهم الفعلية فيسطو بهم ، وبعشيرته على عدوه . ولا تسل

عما تفعل الهمجية . ومتى دوخت تلك العشيرة وقتل اشرافها . وذللت ، عاملت الحكومة العشيرة الظافرة نفس تلك المعاملة دواليك ، حسبما تقتضي سياسة التفرقة والاحوال . ولا ادري الى اي عصر تمتد سلسلة هذه الروايات المحزنة التي نرجو من الله ان يحسم اسبابها بايدي المصلحين ... والتبسط في شرحها لايجدي اولا ينتج الا ان الشرقيين هم السبب الاعظم في بلاء انفسهم وحجة الله فيه على المتسمين بسمات الدين ، وتلك حزازة في نفوس المصلحين .

« والذي اراه ان قدم الحكومة التركية لم ترسخ في جبال العلو يين حق الرسوخ وخاصة في مقاطعة الكلبية وكانت الحكومة اذا أحرجت جردت العساكر فنهبت وسلبت وحرقت وفتكت ، فاذا رجعت العساكر عادت العشائر الى ما كانت عليه ، يضبط الحاكم الحازم جماحهم ومتى ُبدل بحاكم ضعيف الادارة او مرتش ، عم البلاء من الرؤساء الفسدة والاشقياء الجهلة . لما حكم ابراهيم باشا المصري دوّخ البلاد ، وقطع دابر اهل الفساد وضرب الامن اطنابه بحيث لم يكن يسمع في عرض البلاد وطولها نهب ، ولا قطع سبيل ، فرتع الانام في بحبوحة الامن مدة حكمه الذي كان مع صرامته نموذج العدل والانصاف ، فلما دالت دولته حصل من اختلال الاحوال مالا يحصره المقال اه » .

* * *

فتن درزية وفتن أرمنية } كان يظن بعد ان خمدت نائرة الفتن في لبنان وما اليه من جبل اللكام ان الناس يرتاحون من الحملات والغارات الا ما كان من غزو البادية بعضهم مع بعض فان ذلك من المتعذر لانه مرض قديم مستعص نشأ قبل الاسلام بقرون ، ولم تقو جميع الحكومات التي تعاقبت على الشام ان تقضي عليه وتستأصله من اصوله ، بيد ان القوة التي احرزها جبل حوران بالدروز الذين هاجروا اليه جعل من الجبل موطن غارات وغزو واصبح جبل دروز حوران ابرة سفينة الامن في الشام وكان يتلبس بهذه الصفة جبل لبنان في القرون الماضية فيتعب سائر الارجاء الشامية ، و يضطر الحكومة ان تتقي شره باثارة اهل الجوار عليه ، والقاء الخلاف بين امرائه ومشايخه .

نشبت فتن في جبل حوران في اعوام مختلفة ، وكثيراً ما كان بعض اشقياء الدروز فيه يطيلون ايدي الاعتداء على سكان حوران والغوطة والمرج وجبل قلمون ، فيتحد اشقياء المقرن القبلي منه مع عرب السردية و يغزون في البلقاء وما اليها قبائل بني صخر والحويطات والسرحان وقرى حوران الجنوبية ، و ينضم اشقياء المقرن الشرقي الى عرب الصفا يغزون تجار بغداد ودير الزور ، ويتحد اشقياء المقرن الشمالي مع عرب الحسن و يهاجمون قرى جبل قلمون والنبك وحمص ، ويتحد بعضهم مع عرب اللجاة فيسلبون قرى سفوح جبل حوران ويقتلون الموظفين و يمثلون بالعسكر اذا خلوا بهم ، ولا يدفعون الاموال الاميرية ، وبذلك تأيدت شوكة الدروز وخافهم جيرانهم من أهل القرى والبادية ، وتخوفت الدولة عاقبة امرهم للرابطة القوية بين افرادهم ، وهم اذا جاءهم الغريب ، والدماء تسيل بينهم كالسيول ، لا يلبثون ان يتحدوا عليه يداً واحدة و يصدقوا قتال عدوهم المشترك ، بما فيهم من شمم واباء عربي وعند الشدائد تذهب الاحقاد ·

رأى الدروز في سنة ١٣٠٤ وقد ارتاشوا وتأثلوا ونما عددهم ان يستولوا على قرى اللجاة للتحصن بها عند الايجاب واستثمار ما يمكن استثماره منها فاحتشد نحو خمسمائة فارس منهم بقيادة شبلي وفندي الاطرش ، ووصلوا الى المسمية وهاجموا قلعتها فردوا عنها ·
وفي سنة ١٣٠٨ انقسم دروز حوران الى فرقتين المشايخ والعامة وزادت بينهم العداوة والبغضاء فادى ذلك الى حدوث وقائع متعددة ودخل بعض المشايخ الى قلعة المزرعة فارسلت عليهم ست كتائب مشاة والاي فرسان مع مدافع ، وفي اثناء مغادرتهم ثكنة المزرعة تعرض لهم العامة فقابلهم العسكر بالضرب ، فانهزم الدروز بعد ان تحملوا خسائر كلية ودخل الجند السويداء واسرعوا ببناء ثكنة عسكرية · وتعرف هذه الوقعة بوقعة العامة ونال الدروز من الجند في سنة ١٣١١ في طريق المزرعة وحاصروا قلعتها ثلاثة ايام · وفي سنة ١٣١٣ هجم الدروز على قرية الحراك وقتلوا أكثر أهلها وهدموا جامعها الحصين ونهبوها مع قرى المليحة الغربية والمليحة الشرقية وحريك ودير السلط وكحيل فارسلت الدولة عليهم (١٣١٤) حملة بقيادة ادهم باشا ولما بلغ اول حدود الجبل تعرض له الدروز فقابلهم العسكر بالمثل ، وبعد وقعة القراصة ونجران والسجن وام العلق دخل العسكر السويداء ·

ولو وضعت الاصلاحات الادارية موضع العمل بجد ونشاط لاستقام الامر كثيراً ولقلت الفتن التي تقع بين الرعايا والعمال مثل فتنة الزيتون من عمل مرعش التي حدثت سنة ١٣١٣ ونشأت من منـازعات بعض الارمن وبعض صغار مأموري الحكومة ، فألفت الارمن عصابات وقاتلوا عسكر الدولة وقتلوا ومثلوا بعيال الموظفين فهاج المسلمون في مرعش وعينتاب لما بلغهم من الاعتداء على المسلمين في الزيتون ، وقتلوا من الارمن مئات انتقاماً وتشفياً ، ثم حدث مذابح في البيرة واورفة وقتل في هذه المدينة الفان من الارمن فارسلت الدولة حملة على الزيتون حاصروها شهراً ثم تدخلت سفراء الدول في الاستانة والزموا رؤساء العصابات بتقديم الطاعة فقدموها ، وعفي عن المشاغبين واصحاب العصابات ، قال في اعلام النبلاء وظلت هذه الفتنة الى اواخر هذه السنة ودامت من ابتدائها الى ان خمدت نارها خمسة عشر شهراً . وكانت الحكومة سنة ١٣١٥ تتذرع بتطبيق اصول الاعشار بصورة الامانة على حسابها ، فقتل الدروز ضابطاً كبيراً مع ثلاثين جندياً في عرمان ، ومدير ناحية صرخد ورفقائه من الدرك ، واكثر حراس الاعشار في جميع قرى الجبل فارسلت عليهم الحكومة مفرزة مؤلفة من اربعمائة جندي وفي رواية درزية اربع كتائب قتلوها بالفؤس والسيوف الا قليلاً في محل يدعى العيون قرب عَرَمّان وغنموا مدفعين وجميع الاسلحة والذخيرة وحاصروا ثكنة السويداء ٢٨ يوماً ريثما وصلت القوة العسكرية بقيادة المشير طاهر باشـا مؤلفة من ٥٤ كتيبة ، وحدثت بينهم وبين كتيبتين كانتا في آخر القوة حرب دامت ست ساعات وانهزم الدروز في وقعة الشهبة . وخوفاً من وقوع قتل عام رجع العسكر عنهم . وفي هذه المرة قبضت الحكومة على ستمائة رجل منهم مائتان من رؤساء العصابات ، ونفتهم من الشام ثم ارجعتهم مكرمين من الاستانة فابتاعوا بالدراهم التي نالوها من احسان الدولة سلاحاً في طريقهم ليقاتلوا به عمالها .

وفي سنة ١٣١٩ ساقت الدولة على الدروز قوة من الفرسان والمشاة الى الصفا واللجاة للتنكيل بهم ، واسترداد ما سلبوه من المواشي وغيرها . وفي سنة ١٣٢١ وقع خصـام بين طائفتي الحلبية والمغوشين من الدروز اسفرت عن قتل اكثر من اربعين شخصاً ، فارسلت الحكومة ثلاث كتائب لاجراء التحقيق . وهكذا توالت وقائع

الدروز واكثرها في مقاومتهم للدولة كلما ارادت ان تدخلهم في الطاعة ، وتجري عليهم الاحكام التي تجري على جيرانهم ، من اخذ رسوم الاغنام ، وتسجيل الاملاك أو احصاء النفوس أو أخذ الاعشار . ولكم جرت وقائع لذلك في قنوات ومفعلة والشوفي والحجلة والكفر ونجران ، وكم من وقائع بين المساعيد والعزام وبين بني الاطرش الدروز و بني المقداد السنيين . وبعد جهاد أربعين سنة اصبح الدروز في جبل حوران الاكثرية المطلقة بعد ان كانوا اقلية في اواخر القرن الماضي وزادت نفوسهم ستة اضعاف عما كانوا قبل خمسين سنة .

* * *

الحملات على جبل الدروز وعلى الكرك

وفي سنة ١٣٢٤ اعتدى دروز حوران على عرب المجل فغزا الدروز المجل في النقرة من حوران فقتل المجل منهم نحو سبعين رجلاً ثم اعتدى المجل على قافلة درزية وقتلوا رجلاً من اكابر بيوتهم بالقرب من براق ، فهاجمهم الدروز في ضمير من مرج الغوطة وقتلوا نحو اربعمائة من العرب ، وابقوا على النساء وفي سنة ١٣٢٨ غزا دروز حوران جيرانهم اهل قريتي معربة وغصم وسكانهما مسلمون ومسيحيون ، على اثر خصام وقع بين نواطير القرية ونواطير بصرى بشأن الكرم فقتلوا ٥٩ رجلاً وامرأة عدا الجرحى ونهبوا القسم الاعظم من قرى السهوة وجيزة وسماقية وطيسة من بلاد السهل ، فأرسلت عليهم الدولة حملة مؤلفة من ثلاثين الف جندي بقيادة سامي باشا الفاروقي فضربهم ضربة خفيفة قتل فيها زهاء الف رجل منهم ونحو مئة وخمسين من الجند واحرقت بعض القرى ولاسيما الكفر أهمّ موقع حربي في الجبل وحواليها دار معظم القتال ، وغنم الجند والضباط ما فيها من متاع وحلي وارزاق مما حشره الدروز فيها من انحاء الجبل ولم تستفد الدولة من هذه الحملة الا احصاء نفوس الجبل واستأمن الدروز فحكم على بعض زعمائهم واشقيائهم بالصلب فصلبوا في دمشق وجند بعض شبانهم وعفي عن بعض المجرمين وجرم بعض الابرياء . وهكذا غرمت الدولة والأمة حتى امتلأ صندوق القائد فيما يقال ولم تنفذ خطط الاصلاح التي وضعت على العادة في كل مرة ومنها ما يرضى به الدروز لكن تطبيقه يحتاج الى اخلاص وحكمة . وقد ابان الدروز في هذه الحرب

شأنهم في اكثر حروبهم عن مهارة في الفنون الحربية وشجاعة متناهية ·

وارادت الدولة في تلك السنة أن تحصي نفوس سكان لواء الكرك كما أحصت سكان لواء حوران ، فانتقض اهل الكرك على الدولة لانهم بادية على الاكثروالبادية تخاف الجندية اكثر مما يخاف منها اهل المدن والمزارع ، لان عهدهم بالحكومة حديث وصعب التأليف بين طبائعهم ومعاملة الموظفين الفاسدين وكان لواء الكرك أُسس في سنة ١٣١١ على سِيف البادية بين الحجاز والشام ، وقد ثبت للدولة ان المرسلين يعملون بنشاط لتنصير تلك الاصقاع ، وكانت تلك البلاد من قبل بعيدة عن كل سلطان وسطوة يحكمها رؤساء عشائرها ، ولم تكن اكثر قراهم معمورة مأهولة ، وكانت ديارهم كأنها قطعة من الحجاز القاحلة لا الشام الخصيبة ، وصادف ان قطعت مرتبات عرب بني صخر والخرشان وغيرهم من أهل الوبر ، فقام البدو الذين حرموا رواتبهم وهي اربعة آلاف ليرة في السنة ، وسطوا على بضع محطات من السكة الحديدية الحجازية على طول اكثر من مائتي كيلو متر في ارض اللواء ونهبوا قطاراً بحمولته وقتلوا وجرحوا بعض موظفي الخط ، وقام الكركيون باديهم وحاضرهم وأطالوا يد الاعتداء على التجار والموظفين والحامية فقتلوا منهم نحو ١٥٠ انساناً ، ولو لم يلجأ اكثرهم الى قلعة الكرك لهلك في هذه الفتنة بضع مئات وحرقت الاماكن الاميرية كلها ونهبت خزانة الحكومة ودور الموظفين وأُحرق قسم منها ، وخرب قسم عظيم من المدينة (٥٤٩ داراً) باطلاق القلعة المدافع عليها وقطع العصاة الاسلاك البرقية وهاموا على وجوههم في البراري ، وبعد ان جاء المدد للمحصورين في القلعة قبضت الدولة على عشرات من الثائرين عدا من قتلتهم هناك صبراً وحكمت عليهم باحكام مختلفة واكثرهم بالقتل ·

ولم يشترك أهالي معان والطفيلة في هذه الفتنة وكانت النية ان يقوموا مع الكركيين في يوم واحد · وجرت وقائع بين عسكر الدولة وعرب المجالي وبني حميدة وابن طريف وكورة وسليط وغورين وكثربا وعراق وخنزيرة والمعايطة وعبيد وجلامدة وأغوات بالقرب من قرية كفرربة استسلم فيها بعضهم ، وبلغ عدد القتلى من الكركيين نحو الفي نسمة · ولم يحدث بعد هذه الوقعة شيء يذكر في ارض الشام اللهم الا هياج بعض العربان للغارة والنهب في الشمال والجنوب ، وكانت الدولة

تسوق عليهم قوى خفيفة تارة وتتركهم وشأنهم تارة أُخرى خصوصاً اذا لم يقع منهم على أهل المدن والقرى اعتداء مباشرة ، ولم يتدخل قناصل بعض الدول لمآرب لهم ، كأن يكون في القتلى بعض المسيحيين او ان تقضي السياسة بان يوجدوا مسألة جديدة تجب دولة ذاك القنصل استثمارها في دار الملك .

ومن الحوادث التي وقعت في سنة ١٣٢٤ (١٩٠٦ م) الخلاف الذي وقع بين الحكومة المصرية والحكومة العثمانية على حدود الشام وعقدت بينهما المعاهده المعروفة بمعاهدة رفح وتعين الخط الفاصل الاداري بين ولاية الحجاز ومتصرفية القدس وبين شبه جزيرة طورسينا ، وكان للصحف الوطنية المصرية حملات على بريطانيا بهذا الشأن .

* * *

رأي في دلال الدروز والنصيرية على الدولة } وفي الحق انمسألتين في هذا القطر شغلتاالافكار خلال هذه الفترة ، وهما مسألة النصيرية في الساحل ومسألة الدروز في الداخل . أما المسألة الاولى فما يحدث له امثال في كثير من الاقطار ، وتنتهي كل ثورة بصلب بعض ارباب النفوذ والسيطرة وتخريب بيوت الثائرين والساكنين . ورابطة النصيرية وتعلقهم بمشايخهم أقل من رابطة الدروز وهي أقرب الى الحل اذا انعقدت . ثم انهم ليسوا من المعرفة بحيث يتطالون الى تأييد سلطانهم او تحدثهم انفسهم بالاستقلال عن الدولة ، اذ لا ملجأ لهم من الامم الغربية يرجعون اليه و يصدرون عنه ، ولكن هل كان دروز حوران مثلهم يا ترى بعد ان حاول إخوانهم غير مرة ان يقيموا لهم حكومة مستقلة في لبنان ثم انسالوا على جبل حوران يحاولون الاستقلال بربوعه ، والابتعاد عن سيطرة عمال العثمانيين في هذا الجبل الذي ينتهي العمران به وتبدأ البادية المترامية الاطراف ؟ . ان ظواهر الحال تدل على ان الدروز في جبل حوران حاولوا منذ عهد ابراهيم باشا ان ينزعوا أيديهم من أيدي حكام القطر ويستمتعوا بامتياز لهم خاص ، لانهم يثقل عليهم حكم غيرهم في الجملة ، وبين عامتهم وعامة غيرهم فروق في الآداب العمومية والاخلاق والعادات ، واذا ثاروا يعرفون السبب في ثورتهم لان مشايخ العقل منهم يلقنون أجاويدهم ، وأجاويدهم يلقنون عقالهم ، وعقالهم يلقنون عامتهم كل ما ينفع في شؤونهم العامة

فكانوا يرضون عقيب كل فتنة ان يتفقوا مع الدولة على مال معين يؤدونه للسلطنة ، ثم لا يلبثون ان يمتنعوا عن أدائه مع ان البلاد التي تملكوها بالسيف او بالشراء باثمان زهيدة من جيرانهم المسلمين والمسيحيين هي من الخصب بحيث لا يصعب عليهم ان يؤدوا عنها الاعشار والاموال المطلوبة او جزءاً من الضرائب التي يدفعها سائر الحورانيين ، ولعلهم او بعض مشايخهم كانوا يدلون على الدولة بما لهم من عطف بريطانيا عليهم فيتوهمون ان ينشئوا لهم في صميم الشام دولة صغرى ناسين جميع الاعتبارات التي كانت تحول دون أمانيهم ، وتهيب بالدولة الى مناجزتهم القتال كما حاولوا ان يرفعوا رؤوسهم .

وكانت الدولة هي التي ساعدت على تعاقب ثوراتهم وتسلسل شقاواتهم واستلذاذهم بالحروب ، لانها اتخذتهم آلة في لبنان ووادي التيم وحوران للانتقام من عدوها ابراهيم باشا المصري واتخذتهم آلة في مذابح سنة الستين . ودفعتهم في طريق الشقاوة والمقاومة بمالها وسلاحها فظنوا أنفسهم قوة مهمة لا تقف أمامها قوى دولة ، وعرفوا أنهم اذا ظفروا كان لهم ما يريدون ، واذا غُلبوا يحسنون مداواة رجال الدولة ، ولهم من بريطانيا العظمى على كل حال دولة تسأل عنهم وتعنى بمصالحهم ، فلهم ان يدلوا على جيرانهم وعلى الحكومة .

وكان الشعب في معظم الارجاء يستخف بعامة الدروز اذا اختلفوا الى الحواضر ، واذا ذكروا يذكرونهم كما يذكرون النصيرية بالسخرية والمهانة ، فيشق ذلك على جماعتهم خصوصاً والدروز لم يفقدوا اصولهم العربية التي من شأنها الشمم والإباء ، فكانوا يصعب عليهم سماع ما يصمونهم به ، وربما كذب الناس عليهم ونسبوا اليهم اموراً ليست من مذهبهم ولا من عاداتهم ، كذبهم على النصيرية أيضاً . وكان لبعض المشايخ المتعصبين في الحواضر يد في إلقاء هذه الكراهة وهذه النفرة بين هاتين الشيعتين وبين الاكثرية التي انشقوا منها من أهل السنة ، ولعل الحكومة كانت تتعمد ذلك ولا يسوءها فتغضي عما كان النصيرية والدروز يسامونه من الذل ، وتفسح المجال للعامة والمشايخ البله ان يعاملوا مواطنيهم تلك المعاملة المؤلمة على النفوس الابية ، فيقابلها الدروز بمثلها يوم يكون لهم السلطان المطلق في جبلهم وأرضهم .

ولو كانت الدولة بذلت شيئاً من العناية بهذين الشعبين الجبليين في الساحل والداخل كأن تنشر بينهم التعليم الابتدائي ، وتعطف على بلادهم فتصلح طرقها ، وتدخل عليها ما يمكن من أسباب النجاح لاستغنت هي والامة عن مقابلتهما وهم بعض ابنائها بالسيف والمدفع لتعيدهم كلما نشزوا الى حظيرة الطاعة ، ولو دخلت المدنيـة على دروز جبل حوران ونصيرية جبل اللكام ، كما دخلت مثلاً على دروز جبل لبنان ، لكان من هذين الشعبين العربيين خَلقاً وخُلقاً قوة في الشام وأية قوة ، ولما استحكم هذا النفور الذي كان من أثره ما ظهر في العهد الاخير اليوم رضوا بان ينزعوا أيديهم من أيدي جيرانهم ، مع علمهم بانهم شركاء متضامنون في هذا القطر المحبوب .

العهد العثماني

« من سنة ١٣٢٦ الى ١٣٣٦ »

الدستور العثماني وثورته } منذ أقفل السلطان عبدالحميد سنة ١٢٩٤ المجلس النيابي وعطل الاحكام الدستورية مابرح بعض أحرار العثمانيين تركهم وارمنهم وعربهم وأرناؤدهم ، يتأففون من حالة الدولة ويدعون سرهم اذا لم يمكن الجهر الى المطالبة باعادة هذا المجلس ، وقد أسسوا للوصول الى هذه الغاية جمعيات سرية في بعض بلاد اوربا ومصر والبلقان ، جعلت لها فروعاً في بعض الولايات العثمانية وعملت في الخفاء زمناً ، والسلطان يصمّ آذانه تارة ، و يتصامّ عن هذه المطالب المشروعة تارة أُخرى ، و يعاقب من يقتدر عليه من هؤلاء الدعاة ان كانوا في قبضته وتحت عَلَمه في بلاده بالشدة من النفي والتعذيب والتغريب ، او بالمداراة و إغداق الاموال والرتب على بعضهم اذا كانوا بعيدين عنه. وأهم جمعية أُلفت لهذا الغرض جمعية الاتحاد والترقي تشعبت فروعها في انحاء السلطنة وقويت في بث دعوتها في الشام حوالي سنة ١٣١٤ وما برحت على ضم شملها وتكثير سواد القائلين بقولها وابلاغ دعوتها في جرائد لها انشئوها خارج السلطنة ، وكلمة الجمعية تزيد انتشاراً كلما اشتد عبد الحميد في إرهاق الداخلين فيها ولا سيما في المدارس العليا في الاستانة ، والمدارس العليا مجمع شمل أذكياء الطلاب من الترك والعرب والشركس والارناؤد واللاز والارمن والروم فاذا عادوا الى بلادهم وتفرقوا في

الولايات ، يضيفون الى تذمر الأَهلين من فساد الاحكام تذمراً ، و يكثرون سواد الحانقين على ذاك النظام الرث القديم ·

التاثت الاحوال ، وتنكرت الاخلاق ، و بات القول الفصل للرشى والمحاباة والشفاعات ، وغلوا في التجسس والوقيعة ، وكثر الفقر ، وعم القهر ، وزاد الضغط على الامة ، ونال الجند حظ وافر من الشقاء ، وغدا المرابطون منهم والغزاة لا يُطعَمون الا ما يحفظ عليهم رمقهم فقط ، و كثيراً ما كانوا يهلكون جوعاً كما وقع لهم في اليمن مرات او لسوء التدبير كما وقع بكتائب الارناؤد في دمشق في احدى الحملات على الدروز فهلك مئات منهم لانهم تركوا في العراء في تشرين الثاني فهلكوا بالزحير ، وقد يخدمون السنين ولا يلبسون ثياباً تقيهم حمارّة الحر وصبارّة القر ، و يطول أمد خدمتهم فيقضون العشر والخمس عشرة سنة لا يسرحون ، خصوصاً اذا كانوا في بلاد قصية كاليمن والحجاز ·

اخذ أحرار الضباط يبثون في الاجناد روح الثورة وكانوا مستعدين لقبول مايلقى على نفوسهم فتمرد اولاً بعض الجند في آسيا الصغرى ثم سرت روح التمرد الى جند مكدونية · والجنود موقنون ان الدولة لا تهتم بارواحهم اهتمامها بالبنادق التي يحملونها · واتفق ان ضاقت صدور المسلمين من الارناؤد في مكدونية من طمع الدول الاوربية فيهم وأدركوا ان العثمانية تسلمهم متى عجزت كما فعلت مع غيرهم ، فيقعون في قبضة الحكومات الاجنبية على نحو ما وقع لمسلمي البوسنة والهرسك وبلغاريا ورومانيا واليونان والصرب · ولما تم كل هذا قام الارناؤد يداً واحدة في مناصرة الجيش المطالب بالدستور ، واتحد الفيلقان الاول والثاني في الروم ايلي وتبعهما الفيلق الرابع في كردستان وذلك بالاتحاد مع عصابات البلغار · ونادى الضابطان نيازي بك وأنور بك بالدستور او يزحفان على دار الملك ، فلم يسع السلطان الا ان يعيد العمل بالقانون الاساسي الذي كان اوقفه منذ احدى وثلاثين سنة ، فصدرت الارادة بوضعه موضع العمل صبيحة يوم الجمعة ٢٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٢٦ ه (١٩٠٨ م) وبوشر بانتخاب النواب وأُطلقت حرية الاجتماع وحرية القول وحرية الكتابة والنشر بعد ذاك الضغط المنهك ، وأُلغيت الجاسوسية التي جعلت وكدها في كشف

عورات الناس بما لا يفيد شيئاً في حياة الدولة . وأُخرج الوف من الموظفين والخدمة والمغنين وغيرهم من المابين او قصر يلديز حيث كان السلطان اكثر ايام ملكه ، واليه انتقل الحكم من الباب العالي الذي كان في عهده اسماً بلا مسمى ، ما يريده لا يكون اذا لم يرده المابين ، وما يريده المابين ينفذ في الحال بدون مناقشة ولا حوار .

* * *

إعادة الدستور وحال الدولة بعده } أُعيد الدستور الى العمل بدون اهراق دماء ، لان جواسيس السلطان عبد الحميد هوّلوا له في قوة النزّاع الى الثورة من فيالق جيشه ، وكانوا قتلوا بعض رجاله في سلانيك ممن أرسلهم للبحث عن قضية الثورة كما بالغوا في تقدير قوة الأحرار وسريان افكارهم في الولايات ، فلم يسعه وهو محكوم لاوهامه وظنونه الا ان يرد ما اغتصبه من حقوق الامة العثمانية ، ونجحت سياسة الاحرار وفشلت سياسة أعوانه الذين كانوا يتماقونه ويقولون له : ان اوربا اذا اتفقت على الدولة لا تستطيع ان تفلت من يديها ، وما زال دولها متخالفات فلا يخشى على الدولة العثمانية ، اما الرعية فهي من ضعف الجانب بحيث تستطيع الدولة ابداً ان تقضي على كل ثورة تحدث في أرجاء بلادها ثم ان الرعايا همج يسبحون بحمد آل عثمان في كل أوان ، ولا تدرك عقولهم معنى للحرية ، والحرية لا يتطلبها الا بعض الشبان ومن لفّ لفهم من المحرومين والناقمين الذين فسدت نياتهم بما لقنوه من تعاليم اوربا المضرة ! .

واخذ الناس في الشام يقدسون جمعية الاتحاد والترقي التي كانت سبب هذا الانقلاب الذي انعش الامة بعض الشيء وكثرت الآمال والاماني في اصلاح الحال وطردت الشام ولاتها وعمالها الذين عرفوا بالجاسوسية لعبد الحميد والنيل من رعيته وكفّ اهل النفوذ في القاصية عن الضغط على الفلاحين اذ عرف هؤلاء من يدلهم على رفع شكاويهم للمراجع العليا ، وأُهين بعض من اشتهر عنهم انهم من أنصار عبد الحميد الغارقين في رتبه ورواتبه ومراتبه حتى اضطروا ان يندمجوا في الاحرار ويقدسوا شبابهم ، ولطالما امتهنوهم وسعوا بهم الى الحكام في عهد الحكومة المطلقة ، وبديء بانتخاب اعضاء مجالس النواب فحاولت جمعية الاتحاد والترقي ان يكون نواب الشام ممن تركن

اليهم او ممن عرفوا بميلهم الى الحرية وبعدهم عن السياسة الحميدية ولكنها سعت لتقليل عددهم في الشام سعيها لذلك في سائر الولايات العربية لئلا تتألف منهم اكثرية في المجلس فاذا انضموا الى بعض العناصر الاخرى يصبح الاتراك أقلية لان الاتحاديين لا يريدون الا دستوراً ينتعش به الاتراك ، وينال الخير بالعرض سائر العناصر على صورة لا تضر بكيان الترك ويسعون الى تتريك العناصر لتؤلف جمعية الاتحاد أُمة واحدة متجانسة بلغتها اذ لم يمكن تجانسها بدينها ، ويقوم احرار العثمانيين من الاتراك في القرن العشرين بما عجز عن عمله محمد الفاتح وسليم ياوز من الفاتحين ٠

وبينا احرار الاتراك دعاة القومية التركية الشديدة يفكرون في وضع خطط الاصلاح ويحيون كل ما هو تركي ويحاذرون كل ما هو عربي والناس في فرح وجذل لانهم أخذوا على الاقل يقولون ما يريدون ويستمتعون بحرياتهم ، أعلنت اليونان ضمها الجزيرة كريت الى بلادها كما أعلنت النمسا إلحاق ولايتي البوسنة والهرسك ، ورفض امير بلغاريا السيادة العثمانية وأعلن استقلاله ، وعاد مجلس النواب الى عمله (١٣٢٦ﻫ) ولم يمض الا اشهر قليلة حتى ندم السلطان عبد الحميد على ما وهب طوعاً او كرهاً من تنفيس خناق العثمانيين وأحب ان يقوم بعمل ارتجاعي يعيد به الناس الى الضغط الاول والفناء فيه وفي أعوانه فيعملوا احراراً من دون ممانع او مناقش فنهض جماعته من جواسيس وعمال ومن طردوا من الضباط من الجيش لقلة اقتدارهم وغيرهم من العوام الذين تخدعهم الفاظ الشرع ويتبعون كل ناعق والفوا حزباً باسم الدين سموه « الحزب المحمدي » وانصار هذا الحزب كثيرون لانه اسم تحبه اكثرية الامة فدخل الناس فيه أفواجاً عن سلامة نية حتى قيل ان من وقعوا على محضر الرضى بالدخول في سلكه بلغوا سبعين الفاً في دمشق وحدها واختار السلطان لبث دعوته البلاد التي لم تتأثر اعصابها كثيراً بدعوة الاحرار وثورة الجند كالشام مثلاً وأخذوا يهيجون العامة باسم الدين ويرتبطون بالسلطان بايدي أناس كان للمال الذي بذله تأثير عظيم في نفوسهم ونفوس الغوغاء ٠

فعصت جنود الاستانة الا قليلاً بما بذله السلطان لهم من الذهب الوهاج ولم يرَ اعوانه الذين هيجوا الاجناد واسطة لاضاعة رويتهم احسن من اسكارهم فأسكروهم

ليلة الفتنة وفرقوا عليهم الذهب الكثير ليقوموا بالمطالبة بتطبيق الاحكام الشرعية بحذافيرها ، وابعاد بعض النواب واسقاط الوزارة وتعيين الضباط غيرالدارسين الذين خرجوا من صفوف الجيش لا من دكات المدارس ، اي اختيار الجهلة على المتعلمين وبعبارة أفصح ابطال القانون الاساسي لانه مخالف بزعمهم للاسلام ، ومن قواعده الحرية ، والحرية ليست من شأن الدين ! . وقتل في هذا السبيل أناس من النواب وغيرهم من الدستوريين وعامة الناس في شوارع العاصمة ، لان الجند الثائر كان يطلق النار في الفضاء إرهاباً وترويعاً فيصيب الابرياء وغيرهم ، واغتال الضباط الجهلة كثيراً من الضباط الدارسين .

فلما تجلى هول الموقف للاتحاديين أهاجوا النفوس في الروم ايلي فقامت بعض ولاياتها على ساق وقدم تطلب التطوع في الجندية للدفاع عن الدستور ، وهب جند الفيلقين الثاني والثالث في أدرنة وسلانيك وزحفا على الاستانة بقيادة محمود شوكت باشا البغدادي فاستوليا على المواقع الحربية في العاصمة في أسبوع ، وقبضوا على المنتقضين والعصاة من الجند المشاغب وضربوا أعناق بعض المشايخ والمتمشيخين للسياسة لا للدين ، ونفوا الفاً وخمسمائة رجل من رجال السلطان وحاشيته الى الحجاز واليمن ، وخلعوا عبد الحميد بفتوى من شيخ الاسلام أثبت عليه فيها قتل الانفس البريئة وسجنها وتعذيبها ومخالفة الشرع وحرق كتب الاسلام والاسراف في مال الامة ، وبايعوا باتفاق مجلسي النواب والاعيان لولي عهده رشاد افندي باسم السلطان محمد الخامس وحملوا السلطان عبد الحميد المخلوع منفياً الى سلانيك .

* * *

عبد الحميد وسياسته وأخلاقه } وبذلك تخلصت الامة من عبد الحميد بعد ان حكم فيها ثلث قرن زاد أخلاقها فساداً . تولى لاول أمره زمام السلطنة وكيلاً عن اخيه مراد الرابع ، وكتب على نفسه عهداً دفعه لمدحت باشا ثم أرسل على ماقيل من أحرق دارمدحت ليحرق العهد في جملة ما احرق وأخذ يستميل قلوب اكثر أهالي الاستانة حتى اجتمع الصدران الاعظمان رشدي باشا ومدحت باشا ودعيا الف شخص من الكبراء وارباب المقامات ، وقرروا ان جنون

السلطان مراد مطبق لا يرجى ان يفيق منه ، وأفتى شيخ الاسلام بحل بيعته — وما أسرع مشايخ الاسلام في اصدار فتاواهم لصاحب الوقت اياً كان وما ابطأهم في فتاويهم في المسائل الجوهرية — وبويع لعبد الحميد فما عتَّم ان أقصى عن دار ملكه من كانوا من العظماء السبب الاول في خلع عبد العزيز .

وأخذ السلطان عبد الحميد يكثر من التضييق على أخيه السلطان مراد وعلى سائر أفراد الأُسرة السلطانية ولا سيما ولي عهد السلطنة ، و يشرد كل من عرف بالانكار عليه من الوزراء والعظماء ، فألقى بذلك الرهبة في نفوس قواد المملكة وساستها فأصبحت الطبقة التي اختارها تسير على رغبته ، وكل من خالفه ولو في سره أقصاه وسجنه وعذبه ، وكلما مضت سنة على ملكه يزداد مراناً على هذه الفعال ويبالغ في الاحتياط لنفسه ، وغدا يتولى كل أمر بذاته و يبعد ارباب الوجدان من رجال الدولة و يستعيض عنهم بأُناس ممن يصطنعهم ، وما يصطنع الا من فسدت أخلاقهم من كل جنس على الاغلب ، حتى آلت أزمة الدولة في العهد الاخير الى أيدي طبقة من أعوانه ظغوا وبغوا .

اخذ السلطان عبد الحميد يملك الاملاك باسمه على خلاف عادة الملوك والسلاطين ، فكان كلما سمع بان في اقليم كذا اراضي من املاك الدولة يأخذها بلا ثمن ان كانت من الاملاك الاميرية ، او بثمن طفيف ان كانت للافراد وعجزوا عن استغلالها ، فيضمها الى املاكه السنية والف عدة شركات وفتح في العاصمة مخازن لبيع البضائع وبعض المعامل ، وضارب بالاوراق المالية واتجر بالامتيازات . وهكذا أصبح عبد الحميد تاجراً مزارعاً مضارباً لا يهتم بشيء من امر الملك الا اذا كان تقريراً من جواسيسه الذين كثروا في العاصمة والولايات كثرة ضاقت بالانفاق عليهم خزانة الامة ، وكلهم أُمناؤه ان اخطأوا فلهم الاجر ، وان اصابوا فحدث ما شئت ان تحدث عما ينهال عليهم من انعامه واحسانه . ولقد قلَّ جداً في عماله من لم يتجسس له لا سيما بعد ان شاهد الناس ان الترقي في الوظائف لا يتأتى في الأغلب الا من طريق الجاسوسية المحببة الى قلب السلطان وغدا التجسس عند بعض الطبقات من الامور التي لا تنكر .

اشتد ضغط عبد الحميد على المدارس حتى حظر ان يعلم فيها التاريخ الصحيح

وعلوم السياسة والاجتماع لانها ترقي العقول وتلقح الاذهان ، واصدر ارادته السرية الى مديري المعارف في بعض الولايات ومنها الشام ان يوقفوا سير المعارف عند الحد الذي وصلت اليه ، لان في انتشار المعارف انتشار المفاسد وتمزيق شمل الامة ! ! ورأت المطبوعات منه ومن اعوانه الجهلاء من الدنايا ما يكفي في نعتهم انهم اعداءُ كل فكر وارتقاء وتجديد ، واصبح ما يطبع تحت السماء العثمانية في الثلثين الاخيرين من حكمه عبارة عن كتب خرافات وزهد وتلفيق او اماديح كاذبة له ولارباب المظاهر ، وامور عادية لا ترقي عقلاً ولا تزيل جهلاً ، وحاول ان يرفع من دعاء القنوت لفظ « ونخلع ونترك من يفجرك » لان فيها لفظ خلع وقلبه ينخلع من هذه اللفظة ولانه رأى مخلوعين قبله وان يسقط من صحيح البخاري احاديث الخلافة وان تصادر حاشية ابن عابدين لان فيها باب الخلع . ورفعت من المعاجم كثير من الالفاظ كالعدل والمساواة والاغتيال والقانون الاساسي والجمهورية ومجلس النواب والخلع والديناميت والقنابل وغير بعض الاسماء فلا يقال « مراد » بل « مرآة » ولا « عبد الحميد » بل « حامد او حميد وحمدي » لان مراد اسم اخيه وعبد الحميد اسمه ، واصبحت الصحف في ايامه ابواقاً تقدسه وتؤلهه على صورة بلغ فيها السخف الى غاياته .

وكثرت في ايامه مظاهر التكريم الخلابة من اوسمة ورتب ، واخذت تباع في آخر عهده بالمزاد بيع العقار والدار ، ولها سماسرة ولها تجار ، يغوي بها السلطان من يريد تشريفه ، و يرفع بها من يهمه رفعه ، واصبح بعض العقلاء في دار الملك والولايات يتظاهرون بالبلاهة ، او ينقطعون عن الخدمة و يقنعون بالدون من العيش ، لان سلطانهم لا يرضيه منهم الا ان يكونوا على قدمه في كل ما يذهب اليه . ولقد نصح له بعض سفراء الدول في اواخر عهده بالكف من شرور بعض العمال ، لان استرسالهم فيها مما يسقط شأن المملكة ويضر بمستقبلها ، فقال لهم : وما ذا اعمل مع من ذكرتم وهم يحبونني ويتفانون في خدمتي ! اي انهم في حلّ من عمل ما ارادوا من عسف الامة ما داموا يظهرون له الحب ، و يخدمون اغراضه على ما يحب .

كان عبد الحميد من الحسد بحيث يحسد خصيانه ، واشق ما يبلغه ان يعلم ان في احد اطراف مملكته عالماً ينفع الناس بعلمه ، فيحتال عليه ليأتي به الى الاستانة ليدفنه

حيًا و يجعله الى الخمول بعد الشهرة ، و يخرجه قسراً من عالم النباهة والظهور ، فان لم يستطع ذلك فلا ايسر من التقول عليه للحط من كرامته ويلذه جداً ان يشهد الشقاق مستحكماً بين حاشيته ، ويلقي بينهم العداوة والبغضاء ، ولذلك كان بعضهم عيوناً على بعض ، ينال الواحد من رفيقه في غيبته وحضرته ، حتى يتقربوا من قلب سلطانهم الذي يحب الملق و يهش للدهان والتزلف · عادة له منذ كان فتىً ، فقد ذكر مربيه المستشرق فمبري المجري انه كان وهو فتىً لم يبلغ الحلم يلقي الشقاق بين افراد الأُسرة المالكة في القصر ، و ينقل الكلام من اناس الى آخرين من أهل بيته ، و يتجسس عليهم و يكشف سترهم ·

أما اسراف السلطان عبد الحميد فانه كان اقلّ من اسراف عبد العزيز بقليل ، ولكن طغمة الجواسيس كانت مع نفقات قصره في الربع الاخير من دوره تستنزف جزءاً مهماً من واردات السلطنة التي عرف كيف يستغلها ، و كيف يصرفها في شهواته على طريقة مستورة ولم يطلع عليها الا الخواص من رجاله · فقد ذكر الثقات ان آل عثمان لما اجلتهم جمهورية تركيا من بلادهم في صيف ١٣٤٢ باجمعهم كان مع بعض سراري السلطان عبد الحميد عقود من الماس والجوهر عرضوها في مصر للبيع فعجز الاغنياء عن اداء قيمها ثم جعلتها بعض المصارف عندها رهناً على مال اسلفته ، فكم كان يا ترى من امثال هذه الحلي المدهشة عند نساء آل عثمان ، والامة تهلك وعمالها لا يقبضون رواتبهم · وكلما عقدت قرضاً فكرت في آخر بحيث كانت الدولة تعيش بالقروض في آخر ايامها · واصبح عبد الحميد في عهده الاخير يملك الوفاً من المزارع والقرى ، و يحمل جانباً من امواله يضعها في المصارف الاجنبية ، يعدها لطارئ يطرأ عليه ، فلما سقط لم تنفعه ، فاستولى عليها الاتحاديون كما استولوا على خزائن قصره يلديز ومجوهراته واعلاقه وجواريه ، ونقضوا كل ما ابرمه ، وفصموا عرى جميع ما احكمه ·

* * *

رأي مؤرخ تركي في عبد الحميد وذكر حسناته

جاء في كتاب عبد الحميد الثاني ودور سلطنته انه كان يعتقد بالسحر والطاسمات والارواح والفأل ، ولم يتعلم شيئًا حتى انه كان يغلط بالاملاء التركي ، وله من

المزايا الاحتياط المتناهي والبصيرة وحب السعي وبعد النظر ، وان يعلم ماذا يقال فيه ، ينفر من الحرب و يلتزم السذاجة في لباسه وحاجاته يحرص على الامر والقيادة ، و يتحرى من الاصول والمعاملات اكثرها استقامة ، يميل الى الاخذ بعلم الباطن الذي يأخذ بمجامع قلوب العامة . واذ كانت افكاره كثيرة الجولان اصبحت لا تثبت في مركز واحد ، واذ كان مبتلىً بالسويداء تراه على الدوام حزيناً مغموماً مغيظاً محنقاً ، مفرطاً في الاحتياط والتدبير لا يعتمد على احد ، ممسكاً لا يعرف الكرم ، عرضة للاضطرابات الذهنية والبدنية لعدم تطابق جملته العصبية . تبدلت حاله لما جلس على سرير الملك فنفعته المحن التي رآها لاول امره اكثر مما اضرت به ، ولئن كان أذناً يحب ان يسمع مايقال فيه ، و ينظر في الدقيق والجليل من الامور ، وهو محاط بجماعة من الاشرار ومزاجه عصبي فان كل هذا زاد في ذكائه . وكان الى السابعة والعشرين يتعاطى المسكرات و يغوص في السفاهات ، فنصح له طبيبه ان يقلع عنها والا فيهلك كما هلك بالسل من قبل ابوه وامه ، فرجع عن عاداته الضارة ونظم حياته ، وكان اول عمل قام به يوم استولى على زمام السلطنة ان سلب جميع ثروة اخيه السلطان مراد عقارها ومنقولها ، وكان ماهراً في عمليات الجمع والطرح والضرب ، الا انه يمتنع ابداً من اجراء عملية الطرح اذا كان فيها ضرر عليه ، ولم يكتف بمصادرة ثروة اخيه بل تصرف بثروة رعيته على ما يشاء ، واضاف معظم واردات الدولة الى خزينته الخاصة ، وما كانت الحكومة تتمكن من دفع الرواتب لغير النظار و كبار المقربين بصورة منظمة اما سائر الموظفين والجند فان عبد الحميد ترك لهم واردات يتناولونها راتب شهر او شهرين في السنة فقط ، وبذلك فتح باباً عظيماً من ابواب الرشوة اه .

ومما ينبغي ان يدون في ايامه ان بعض الامة انصرف الى الزراعة والتجارة اكثر من الادوار الماضية قبله في الشام ، لان الامن استتب اكثر من القرن الماضي ، وطرق المواصلات البحرية والبرية زادت انتظاماً ، والناس في الجملة قويت رغبتهم في تعليم ابنائهم ، ولكن المسلمين مالوا الى التترك لاخذ الوظائف الجندية والملكية ، والمسيحيين والاسرائيليين مالوا الى التفرنج لتعلمهم في مدارس الاجانب التي ظهرت تأثيراتها في أيامه ومنها الهجرة الى مصر والسودان والاميركتين والزهد في سكنى

البلاد · وفي عهده وباهتمامه زادت الخطوط الحديدية في المملكة ومعظمها خطوط حربية ثبت له غناؤها بعد حرب روسيا الاخيرة ، ففي أيامه اتصلت حلب برياق ودمشق وبيروت ، ودمشق بدرعا ، وبيروت بدمشق ، ويافا بالقدس ، وحيفا بدرعا ، ودمشق بالمدينة ، وطرابلس بحمص ، الى غير ذلك من الخطوط التي نفعت الشام ولا سيما الخط الحجازي من دمشق الى المدينة المنورة ·

وفي أيامه خفت وطأة الاشقياء اذ كان يقضى عليهم بالسجن الطويل والقاتل منهم يؤبد في السجن ، فاستراحت الشام قليلاً واخذت تدخل في نظام الامم الاوربية · وكان من سياسته ان لا يستدين من اوربا مالاً ولا يعقد قروضاً مهما احتاجت الدولة للمال وساءت حالها ، وكان لا يحب إهراق الدماء وأبطل الحكم بالقتل فكان القاتل يخلد في سجنه · ففي أيامه اعتدى اليونان على الارض العثمانية ، فأعلنت الدولة حرباً على اليونان وكان الدخول في هذه الحرب مخالفاً لارادته وقد جعله الباب العالي أمام أمر واقع فأعلنها كارهاً ، فانتصرت الدولة لكن اوربا حاولت ان لا تجني على اليونان وما زالت تطاول في عقد الصلح الى سنة ١٨٩٧ م وكانت نتيجة ذلك ان دفعت اليونان للعثمانية غرامة قدرها أربعة ملايين ليرة ولعلها أول غرامة أخذتها من تغلبها في احدى الوقائع بعد ذلك العز الباذخ ، وقضى عدل السياسيين بان تخرج الدولة من تساليا ! ·

ويقال بالاجمال ان عبد الحميد نسخة صحيحة من تربية القصور ، وصورة من صور دسائسها وشرورها ، استفاد من تجارب غيره ومحنهم فاحتاط وحذر ، فطالت أيامه وعرف كيف يدخل في روح الامة فسخر مشايخها وأرباب الطرق والمظاهر ، يسبحون بحمده ويعددون حسناته بما يقبضون من صلاته ، وخلقوا له مناقب اخترعوها ما كان هو يحلم بها ، وكان كل شيء في أيامه ظواهر ومظاهر ، ومن دهائه النافع معرفته الدخول في عقلية السفراء فكان يرشيهم ويرشي زوجاتهم بطرق مختلفة يتفنن فيها ولم يكد يسلم من هداياه ورشاويه الا سفير بريطانيا العظمى على ما يقال · فكان اذا أهداه السلطان هدية يقدم له من الغد مثلها أو أحسن منها حتى لقد قالت امرأة هذا السفير يوماً : لقد أعجزنا أمر عبد الحميد يريد ان يرمينا في شبكته بالجواهر

والحلي كما رمى نساء السفراء قبلي . وكان كثيراً ما يلقي الشغب بين السفراء أنفسهم . وكانت له طرق وله ديوان خاص لاعطاء الصحف الاجنبية مالاً حتى تسكت عن خلل الدولة و بهاتين القوتين قوة السفراء وقوة الصحافيين استطاع يوم ثورة الارمن في العاصمة وأرمينية وقتل الاتراك والاكراد نحو مئة الف من الثائرين ان يسكت ساسة اوربا عن عمله وعمل عماله ومع هذا لم يمنع الحذر من القدر فطوي بساطه و بساط أسرته بما عليه جملة والله وارث الارض ومن عليها .

***

الاحداث في أيام محمد رشاد وحرب طرابلس والبلقان وحزب الاصلاح

تولى السلطان محمد رشاد الخامس بعد السلطان عبد الحميد الذي قضى في شهر ذي القعدة ١٣٣٣ هـ (١٩١٥م) وهو ضعيف المدارك لان أخاه ضيق عليه مدة حكمه الطويل حتى تبلد عقله وكان كأخيه عبد الحميد قليل المعلومات لم يدرس من اللغات الاجنبية شيئاً بل درس الآداب الفارسية و برع فيها . وزاد تسلط الاتحاديين عقيب انظفروا بمن أوقدوا فتنة ٣١ آذار وقضوا على الارتجاع وغيروا بعض خططهم التي كانت ترمي الى تفوق الترك على سائر العناصر وخاصة العرب فدعت الحال الى تأسيس حزب الاحرار المعتدلين (١٣٢٩) الذي ظهر بعد ذلك باسم حزب « الحرية والائتلاف » في العاصمة والولايات ولم ير الاتحاديون للخلاص من مخالفيهم أحسن من الاعتماد على القوة فاغتالوا بضعة رجال في الاستانة وحاولوا ان يغتالوا في الشام بعض أعدائهم الاشداء من أرباب القلم فلم يفلحوا وأقصوا من الخدمة كل من لم يسر على رغائبهم وتقاتل الحزبان فكانت الغلبة تكتب اكثر السنين للاتحاديين لانهم دعاة الحرية الأول وترتيباتهم تامة من اكثر وجوهها تشبه ترتيبات جمعية الماسون ولا سيما فيما كان من قبضهم على قياد الاعمال وأخذهم بمخنق جميع العمال .

وثارت اليمن سنة ١٣٢٩ فأرسلت الدولة جيشاً عظيماً على صنعاء والعسير قتل في حربها من ابناء الشام الوف . كما كانت كل مرة تدفن الوفاً من ابنائها في تلك البلاد القاصية . حدثني عظيم من الاتراك وكان اكبر رجال الشوري العسكرية في الفيلق

الخامس بدمشق أن الدولة بحسب احصاء الجيش كانت تدفن كل سنة من ابناء الشام في بلاد اليمن نحو عشرة آلاف جندي يهلكون بالامراض والفتن والقلة وتغير الهواء دامت على ذلك نحو خمسين سنة حتى عقد الصلح بين امام اليمن يحيى بن محمد حميد الدين وبين قائد الحملة اليمانية عزت باشا وبهذا العقد لم يبق للدولة هناك غير سلطان قليل في صنعاء وتعز وما اليهما من البلاد والجبال ، وانتقلت جل الاحكام الى الامام وذلك في سنة ١٣٢٩ هـ ٠

وظهرت أيضاً فتن أُخرى في كردستان وبلاد الالبان واذنة ، فلم ترتح البلاد سوى اشهر معدودة بعد اعلان القانون الاساسي ٠ ومنشأ كل فتنة داخلية العمال على الغالب ، ثم تمتد وتنتشر فيصيب الامة شرها ، ويتولى الامر الجهلاء ثم يتعذر على العقلاء حل العقد التي يعقدونها ، وكم من مجنون رمى في بئر حجراً فصعب على مئة عاقل اخراجه ٠

ثم وقعت حرب طرابلس بين العثمانية وايطاليا وجاءت ايطاليا باسطولها الى سواحل طرابلس وبرقة بدون مسوغ وضرب اسطولها سفينتين عثمانيتين كانتا راسيتين في ميناء بيروت فهلك من أهل المدينة والجند زهاء مائتي نسمة ، وأرسلت الشام جنداً ومعاونات نقدية الى طرابلس ، آخر ما بقي للعثمانيين من الولايات في قارة افريقية ٠ ولم يعقد الصلح في اوشي من سويسرا بين العثمانية والايطالية حتى اعلنت دول البلقان المتحدة (بلغاريا والصرب والجبل الاسود واليونان) الحرب على الدولة العثمانية فغلبتها ، وجاء جيش البلقانيين الى جتالجة من ضواحي الاستانة ، وعقدت الهدنة يوم الثالث من كانون الاول ١٩١٢ بين العثمانيين والبلقانيين وعقد مؤتمر في لندرا لاصلاح ذات البين بين الفريقين فلم يفلح وعاد المتحاربون الى النزاع بعد الازمة الوزارية التي انتهت بسقوط الصدر كامل باشا وقتل ناظم باشا ناظر الحربية بيد انور بك من ضباط الاتحاديين ودعاة الدستور في الروم ايلي ، واخذ الاتحاديون بعد هذه الفاجعة يستولون على ازمة الامر وظهر أنور بك بمظهر جديد فقبض على عنان الحكومة ، واستؤنفت الحرب بين المتحدين من البلقانيين الذي انفرط عقد اجتماعهم فزحف العثمانيون على أدرنة فاستعادوها الى الملك العثماني ولم يبق للدولة في قارة اوربا غير ولاية ادرنة وما اليها من ضواحي الاستانة

وانسلخت عنها هذه المرة ولايات قوصوة واشقودرة ويانيا ومناستر وسلانيك وعادت الحرب فنشبت بين العثمانيين والبلقانيين في ١٧ تشرين الاول ١٩١٢ وعقد الصلح في ٢٩ ايلول ١٩١٣ وقد فقدت العثمانية في هذه الحرب مئة الف جندي بين قتيل وجريح وثمانين مليون ليرة ثمن ذخائر وسلاح وخرجت من الروم ايلي الا قليلاً وكانت صرفت في فتحه خمسين سنة وحكمته خمسمائة سنة ولم توفق الى نشر لغتها ودينها فيه على ما يجب ·

وفي سنة ١٩١٣ اتحد جماعة من السور بين بينهم اللبنانيون والمسلمون على مطالبة الدولة بالاصلاح للشام وكتب والي بيروت ادهم بك الى الصدر كامل باشا كتاباً قال فيه : (كانون الاول ١٩١٢) يتجاذب البلاد عوامل مختلفة ولقد ولى قسم عظيم من الاهالي وجهه شطر انكلترا او فرنسا لاصلاح الحالة التعسة التي هم فيها فاذا نحن لم نأخذ بالاصلاح الحقيقي تخرج البلاد من يدنا لامحالة. اه ·فأرسل الصدر الى الوالي يريد الاهلين على عرض مطالبهم فاجتمع المجلس العام في بيروت وانتخب ٩٠ عضواً عقدوا جلستهم الاولى في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٣ واختارت من اعضائها خمسة وعشرين مفوضاً سمتهم اللجنة الدائمة وقدمت هذه بياناً بالاصلاحات المنشودة واتفق على ذلك اعيان المسلمين والمسيحيين فوضعت اللجنة في بيروت لائحة اهم ما فيها توسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب· وفي أوائل الصيف ذهب وفد من البيروتيين وغيرهم الى باريز وعقدوا هناك مؤتمراً قرر يوم ٢١ حزيران سنة ١٩١٣ ان تضمن للعرب حقوقهم السياسية وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً وان تنشأ في كل ولاية عربية إدارة مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها وان تنفذ لائحة الاصلاحات التي نظمت في بيروت القائلة بتوسيع سلطة المجالس العمومية وتعيين مستشارين أجانب وان تعتبر اللغة العربية في مجلس النواب العثماني وتكون لغة رسمية في الولايات العربية وتكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية ·

فخاف الاتحاديون العاقبة وبعثوا أُناساً من قبلهم وقبض واليهم في بيروت حازم بك على عدة أعضاء من الاصلاحيين فأغلقت المدينة حوانيتها أياماً فأخرجهم من

السجن، وبعث الاتحاديون أُناساً من قبلهم الى باريز وغيرها ، واسترضوا أعضاء الوفد وأطمعوا بعضهم بالوظائف الكبرى ووعدوهم ان تجري لهم الحكومة الاتحادية من مطالب الاصلاح ما يمكنها القيام به مثل تسليم الاعمال الادارية الى السلطات الوطنية طبقاً للقانون الخاص بادارة الولايات وان يكون التعليم الثانوي والابتدائي في المدارس الوطنية بالعربية وتستعمل اللغة العربية في بعض أعمال قانونية معينة ، وان تضاف الصيغة العربية على إعلانات الجلب الى المحاكم كما تضاف الى الاحكام المدنية والجنائية وتكون العرائض المقدمة للسلطات الرسمية باللغة العربية ، وأن يعين بعض العرب في مجلس الاعيان ومجلس شورى الدولة ومحكمة التمييز ومشيخة الاسلام ودار الفتوى .

وطبق الاتحاديون بعض هذه المواد فرأينا في بعض مراكز الالوية والولايات في الشام مدارس تجهيزية تدرس العلوم العربية ، والى جانبها المدارس القديمة التركية في كل مظاهرها ، ووضعت الصيغ العربية الى جانب الصيغ التركية في اوراق الجلب الى المحاكم ، وأخذت الحكومة تقبل الشكاوي بالعربية من الاهلين ، وعين بعض رجال الشام في وظائف كبرى في العاصمة ، وكان نائب دمشق في مجلس النواب شكري بك العسلي أول من رفع صوته بهذا الطلب ، طلب اعطاء العرب حقهم من الوظائف وقال : ان اربعة فقط من أبناء العرب موظفون في الادارة المركزية في جملة بضع مئات من الاتراك ، فنبه أفكار من لم يكن متنبهاً من أبناء العرب الى غمط حقوقهم ، وحنق بعض قحح الترك عليه وعلى من عاونه على بث هذه الفكرة وعدوها خروجاً على الجماعة .

* * *

الصهيونية ومنشأوها وكان هذا النائب ايضاً أول من نبه أفكار مجلس النواب الى الخطر الصهيوني في فلسطين وكان الاتحاديون وفيهم الاسرائيليون اوالصابئون من اليهودية (الدونمة) أمثال جاويد بك ناظر المالية — ينوون ان يبيعوا نحو ثلاثة ملايين دونم من الاراضي في فلسطين وسورية من جمعيات الاستعمار الصهيوني ، فبطل المشروع لما ظهرت مضرته الى عالم

الوجود وقامت حول المشروع ضجة في الصحف فلم يسع الاتحاديين الا ان يطووا دفتره ·

ولكن كان الصهيونيون يؤلفون عدة جمعيات للوصول الى أغراضهم السياسية منها جمعية احباء فلسطين انتشرت في أطراف فلسطين وتفرعت منها عدة جمعيات منها جمعية معاونة فلاحي اليهود وصناعهم في فلسطين وسورية وانشأوا لهاتين الجمعيتين فروعاً كثيرة في أمهات مدن فلسطين وبلاد بشارة وحوران وعبر الاردن وابتاع للاسرائيليين أبناء مذهبهم من كبار أغنياء اوربا اراضي وأمدوهم بالمال ليحققوا آمالهم القديمة في استرداد فلسطين و يعيدوا مجدهم اليها وهذه الآمال قديمة ترد الى عهد الرومان « وغاضت بعد ان شتتهم في الارض ادريانوس في القرن الثاني بعد المسيح وفرق جامعتهم وأبعدهم عن صهيون او اورشليم او القدس عاصمة مملكتهم القديمة ومدينة هيكلهم العظيم ولكنها ما لبثت ان ظهرت في صورة التمني وفي عهد قسطنطين الذي أذن لهم بالدنو مرة في السنة من أسوار بيت المقدس ليندبوا مجدهم الزائل وما زالوا الى يومنا هذا يدنون من حائط الحرم الشريف الخارجي المسمى بالبراق و يتذكرون مجد ملوكهم وعظمة هيكلهم ومدينتهم و يطلبون من الله ان يعيد ما خسروه · ولكن رجال النهضة منهم لم يقفوا عند حد التمني فألف الدكتور هارتسل الجمعية الصهيونية التي جعلت همها الوحيد جمع المال وتوحيد كلمة اليهود على اختلاف لغاتهم وبلدانهم وجمعهم في بلد واحد امين · وعهدت الجمعية الصهيونية الى الايكا بالاستعمار التدريجي كما عهد الى جمعية الاتحاد الاسرائيلي بالتهذيب والتعليم ·

وقد كتب المرحوم شكري بك العسلي في هذا الصدد يوم قام الاسرائيليون لابتياع سهل يزرعيل ما نصه : ان الجمعية الصهيونية اليهودية ورفيقاتها جمعيات ايكا وفاعوليم والاليانس وغيرها ساعيات في استرجاع فلسطين التي وعدهم بها ربهم في الاصحاح الثاني والثلاثين من أرميا من الكتاب المقدس الباحث في اسر بابل لليهود والذاكر وعد الرب برجوعهم الى فلسطين بقوله في آخره : « يشترون الحقول بفضة و يكتبون ذلك في صكوك و يختمون و يشهدون شهوداً في ارض بنيامين وحوالى اورشليم وفي مدن يهودا ومدن الجبل ومدن السهل ومدن الجنوب لاني ارد سبيهم

بقول الرب اه » . و ذلك بعدما سبتهم حكومة الكلدان على انهم لم يستطيعوا البقاء بعد ذلك لانهم اصبحوا محل التنازع بين حكومة الرومان في مصر وحكومة الرومان في انطاكية ثم انقرضوا ولم يبق لهم ملك ولا دولة . والآن عملاً بهذه الآية يشترون الاراضي في فلسطين على حساب الفضة و يشرطون البيع على ان يكون الثمن فضة و يكتبون الصكوك و يشهدون وهكذا تراهم لا يفترون طرفة عين يتجسسون اخبار من تأخرت حالتهم المالية من اهل هذه البلاد وهي عبارة عن لواء عكا بأجمعه ولواء القدس ولواء نابلس وقسم من لواء الكرك وبعض من قضاء عجلون و يطمعون البائع بالثمن الفاحش ويكتبون الصكوك و يشهدون عليها و يسجلونها عند محرر المقاولات وعند بعض القنصليات وكانت الحكومة قبلاً منعت استعمارهم ولكن بما بذلوه من الدنانير التي تسحر الباب الخائنين من الحكام والمستخدمين استطاعوا ان يستولوا على ثلاثة ارباع قضاء طبرية ونصف قضاء صفد واكثر من نصف قضاء يافا والقدس والقسم المهم من نفس حيفا وبعض قراها واليوم يسعون للدخول الى قضاء الناصرة ليستولوا على سهل شارون و يزرعيل المذكور بالتوراة والمعروف اليوم بمرج بني عامر الذي يشقه الخط الحجازي من الغرب الى الشرق .

« وهكذا اشتروا الكثير من القرى واستولوا عليها وهم لا يخالطون العثمانيين ولايشترون منهم شيئاً ولهم بنك انكلو فلسطين يقرضهم بفائدة لاتتجاوزالواحد فيالمائة في السنة وقد جعلوا كل قرية ادارة فيها مدرسة وكل قضاء مديرية ولكل جهة مدير عام ولهم راية لونها ازرق وفي وسطها خاتم سليمان وتحته كلمة عبرانية معناها « صهيون » لانه جاء في التوراة ان اورشليم ابنة صهيون و يرفعون هذا العلم مكان العلم العثماني في اعيادهم واجتماعاتهم و يترنمون بالنشيد الصهيوني وقد احتالوا على الحكومة فقيدوا انفسهم عثمانيين في سجل النفوس كذباً و بهتاناً وهم لايزالون حاملين الجوازات الاجنبية التي تحميهم وعند ما يصيرون الى المحاكم العثمانية يظهرون جوازاتهم و يدعون الحماية الاجنبية و يحلون دعاويهم واختلافاتهم فيما بينهم بمعرفة المدير ولا يراجعون الحكومة ويعلمون ابناءهم الرياضة البدنية واستعمال السلاح وترى بيوتهم طافحة بالاسلحة

وفيها كثير من المارتين ولهم بريد خاص وطوابع خاصة وغير ذلك مما يبرهن على انهم بدأوا بتأسيس مقاصدهم السياسية .»

* * *

الحرب العامة والسياسة الالمانية والاخلاق التركية

وخرجت الدولة من حرب طرابلس والبلقان واليمن وكردستان وغيرها من البلدان مجردة من قوتها من المال والرجال ، ولم تكد تفكر في جمع شتاتها حتى قتل ولي عهد النمسا في مدينة سراجيفو من بلاد الصرب وأعلنت الحرب العالمية ، فكان نصيب الدولة العثمانية ان تسير مع المانيا والنمسا والمجر محالفة لهن على بريطانيا العظمى وروسيا وفرنسا وغيرهن من الدول ، وكان ذلك بتزيين الاتحاديين وفي مقدمتهم طلعت باشا وانور باشا وجمال باشا ، وقد كانت الدولة تميل منذ نحو ثلاثين سنة لالمانيا منذ زار امبراطورها غليوم الثاني بلاد الدولة مرتين وقال في المرة الثانية (١٣١٦) لما زار القدس ودمشق في خطاب له القاه في بلدية دمشق : « ابتهج من صميم الفؤاد بانني وطئت بلداً عاش فيه من كان اعظم ابطال الاعصر السالفة بأسرها الذي كان بأفعاله يعلم اعداءه أنفسهم كيف تكون الابطال ، العالي المقدار المشهور السلطان صلاح الدين الايوبي . قال وليتأكد حضرة السلطان عبد الحميد خان الثاني صاحب الخلافة العظمى والثلاثمائة مليون من اهل الاسلام المرتبطين بمقام خلافته المنتشرين في جميع اطراف الكرة الارضية ان امبراطور المانيا يبقى صديقاً لهم الى الابد » .

انتهجت المانيا السياسة الاسلامية واتخذت لها دعاة من دهاة رجالها في الاستانة ، فتم لها ما ارادت بعد سنين من الاستعانة بالدولة العثمانية على حرب اعدائها ، واستسلم رجال الدولة لما تم مخدوعين بالاقوال المبهرجة مأخوذين بالوعود اللطيفة ، وكان السلطان محمد رشاد وهو لا يعقد ولا يربط في شؤون السلطنة ، يقاوم الذين يريدون اصلاء الحرب في الدولة لعلمه بمضارها ، ولم يوافق عليها بعض الوزراء فخرجوا من الوزارة الا انور وطلعت وجمالاً وهم الحركة العاملة في الدولة ، ارادوا خوض غمارها متشبعين بالروح الالمانية ولا سيما انور ، وعلقوا على المانيا امانيهم في ارجاع الدولة الى

عزها ايام سليم وسليمان ، وما كادت تعلن الحرب حتى نفذ الوزراء الاربعة الذين لم يقولوا بدخول الدولة في الحرب ومنهم سليمان افندي البستاني من اهل الشام خطتهم وقدموا اقالتهم تاركين الحكومة في ايدي الاتراك . اما سعيد حليم باشا الصدر الاعظم الذي كان عزم ان يستقيل فدفعه حبه للفخر والأُبهة والعظمة ان يبقى في رأس اعظم منصب في الحكومة التركية ، فلم تك اذاً نتيجة دخول الدولة في الحرب الا توحيد السلطة في المملكة في ايدي رجال الاتحاد والترقي ، وانتهت الثورة التي كانت ترمي الى جعل تركيا دولة دستورية بجعل تركيا حكومة مطلقة رائدها الظلم والاستبداد وغاية افرادها الاولى النفوذ والسلطة والكسب على ما قال سفير اميركا في الاستانة لاول الحرب .

وعلى ذلك شرعت الدولة لاول وهلة تعبي جيشها ، واخذت من الشام سبعاً وعشرين قرعة كادت معها حركة العمل تقف وقوفاً مريعاً ، ولم تلبث الدارعتان الالمانيتان غوبن و برسلو ان دخلتا في ميناء الاستانة ملتجئتين من مطاردة الاسطول الانكليزي لهما في عرض البحر الابيض ، وسلمت قيادتهما بالصورة الظاهرية الى العثمانيين ، فعدت روسيا هذا العمل من الدولة العثمانية اعلاناً لها بالحرب ، وما فتئت ايدي الالمان ان تغلغلت في جميع فروع الادارة في السلطنة ، واخذت المانيا تغدق الذهب الوهاج على الدولة ، وكان لانور باشا القائد العام وناظر الحربية قسط عظيم منه لا يسأل فيما انفقه ، وبدأ الالمان يغرون الاتراك باستعمال الوسائل الوحشية في معاملة الاجانب والعثمانيين معاً ، ويضيقون خاصة على غير المسلمين من الارمن والاروام ونصارى الشام . وزعم سفير اميركا في الاستانة انه درس اخلاق الاتراك فعلم علم يقين ان أقوى عواطفهم عاطفة الخوف فهم لا يحبون ولا يبغضون بل يخافون ويريدون غيرهم ان يخافهم .

وقال نومان الالماني (١) : ليس استيلاء الاتراك من حيث الاجمال في ظلمه مثل ما كان يصوره غلادستون في خطبه قديماً على مقدونية . فالتركي ليس بعيداً عن

(١) كتاب اوربا الوسطى تأليف نومان

الانسانية اذا ترك مطمئناً وغاية ما كان يتطال اليه : خراجه وراحته . ومن الخطإ ان يبالغ في عبء الاموال التي كان الاتراك يفرضونها على البلاد . فقد روى لي اناس واقفون على اطراف المسألة ان البلغار بين يؤدون اليوم الى ماليتهم خمسة أضعاف ما كانوا يدفعون على عهد الحكم العثماني ، وفي الجملة فان تحرير البلغار من سلطة الاتراك لم يكن اقتصاداً بل كان فيه مضاعفة التكاليف . وما كان الضغط التركي الا سلبياً لا ايجابياً ، وذلك لانه كان يقيد القرائح والاذهان، و يصد الكفاءآت وقوى الارادة عن الانبعاث ، فكان الشعب البلغاري يتنبت يعيش كالكائنات المنتظمة ولكن بدون حرية ولا ارادة شخصية ، و بمثل هـذه الصورة يتيسر لشعب ان يعيش سليماً ولكن هذه الصحة ليست لها غاية اذ لا يتأتى للمرء معها ان يخصص حياته لامر مهم اه .

* * *

قسط الشام من الحرب وعمل جمال باشا

دخلت الدولة في الحرب وقاتل ابناء الشام في الجبهات الحربية المختلفة . قاتلوا في جناق قلعة ورومانيا ودبرويجة وقافقاسيا والعراق والسويس وشبه جزيرة سينا فهلك منهم عشرات الالوف ، وقاست الشام انواع الحرمان والامراض فهلك منها ولا سيما في لبنان من الجوع فقط نحو ١٢٠ الفاً ومثل ذلك بالحميات ولا يقل الهالكون من ابناء الشام عن ثلاثمائة الف انسان مدة اربع سنين .

وفي الحق انه لم يقع حرب جدية في الشام ، بل كان ابناؤه يساقون كسائر العثمانيين الى الجبهات الاخرى ، والجبهة الوحيدة التي كانت بجوار الشام جبهة الاسماعيلية فلم تنشب الحرب حتى ندب الاتحاديون احد كبار رجالهم احمد جمال باشا ناظر البحرية العثمانية اذ ذاك قائداً على الجيش الرابع ، وكانت منطقته تمتد من اقاصي حدود اذنة الى المدينة المنورة ، وأخص اعماله أن يشاغل البريطانيين في حدود مصر ليضطروا الى وضع قوة مهمة من جيشهم في ترعة السويس ، تخفف عن الدولة في جناق قلعة من جيش الحلفاء ، وعن عاتق الالمان في الجبهة الغربية بين الحدود الالمانية والافرنسية ، وهذا تدبير الماني صرف وقد نجح بمشاغلة البريطانيين واشغال أذهان قوادهم ، فوضعو على الترعة وفي حدود سينا جيشاً عرمرماً اتقاء جيوش الترك والالمان .

وكان بعضهم يعتقدون ان افتتاح مصر والتغلب على البريطانيين في الترعة من الامور السهلة ، لان المصريين يقومون في الحال بثورة على البريطانيين عندما تتراءى لهم أعلام العثمانيين المحبوبة في وادي النيل . قال سفير اميركا في مذكراته : وكان جمال باشا ناظر البحرية واحد الثلاثة الذين يديرون دفة الملك في تركيا ذاهباً الى الشام ليستلم قيادة الجيش الرابع السلطاني ، وكان الجيش يحييه و يهتف له بانه مخلّص مصر ، فأعلن جمال باشا على رؤوس الإشهاد قبل سفر القطار من الاستانة ، انه عقد النية ان لا يرجع الى الاستانة قبل افتتاح مصر . قال : لم اكد ارى ذلك المشهد الفخم حتى رجعت بي مخيلتي تطوي الاعوام والقرون الى ان استقرت في تاريخ رومية على مشهد يشبه ما رأيته في القرن العشرين الا وهي حفلة وداع مرقس أنطونيوس حين غادر رومية ليخضع الشرق ، فكانت تركيا مثل رومية في ذلك الوقت في دور الانحطاط والانحلال ، فرأى جمال باشا ان يبذل جهده لعله يتمكن من أن يصير حاكماً على ولاية غنية ، وكان يؤمل انه ان أفلح بافتتاح مصر ينال شهرة عالمية واسعة اه .

جاء جمال باشا الى الشام وقبض على زمام القوة واكثر الاحكام فيها ، وبدأ يهيئ بواسطة الالمان حملته على الترعة فسارت الحملة (٤ شباط ١٩١٥) فرقتين فرقة منها اجتازت المسافة من السبع الى القناة في ستة ايام والاخرى في عشرة ، وقطع الجيش الصحراء التي تبلغ مسافتها ثلاثمائة كيلومتر ، دون ان يقع في معضلة من حيث الماء والتموين ، وكشف القسم الواقع بين بحيرة التمساح والبحيرة المالحة من القناة ، وهجم قسم من المفرزات بواسطة الجسور العوامة الى الساحل المقابل بالحراب على البريطانيين ، فأغرقت المدافع المنبعثة من ست طرادات انكليزية الجسور العوامة ، وقبضوا على من جازوا الساحل الآخر من الجند العثماني واكثرهم من أبناء الشام ، وقتل في معركة الاسماعيلية بتقدير جمال باشا في مذكراته ١٩٢ قتيلاً و ٣٨١ جريحاً وأُخذ ٧٢٧ أسيراً ومتغيباً وقدر البريطانيون ما فقد من الترك بالف قتيل والفي جريح وستمائة وخمسين أسيراً . وعاد العثمانيون أدراجهم مغتبطين بزعمهم انهم يستطيعون ان أرادوا بجسورهم العوامة ان يقطعوا الترعة الى الشق الآخر و يستولوا

على مصر . وكان الجيش البريطاني الذي هاجمه الترك على الترعة مؤلفاً من جيش هندي قوي وفرقة من الجنود البريطانيـة وجيش قوي من اوستراليا ونيوز يلندا ، واربعين الف رجل من الاحتياطي وراء الخنادق المتقنة التي حفرت حذاء الترعة ونحو مليون جندي وعامل مصري استخدموا في خدم ثانوية أفادوا بهـا الجيش البريطاني فائدة عظيمة .

وأنفق العثمانيون نفقات طائلة على السكك الحديدية حتى وصلت الى بئر السبع وصرفوا على هذه القرية مئات الالوف من الليرات لتحسينها وتحصينها أما البريطانيون فأخذوا بعد تلك الحملة العثمانية التي فشلت يتقدمون في الصحراء نحو بلاد الشام ، يمدون الخطوط الحديدية في الرمال تحت حماية مدافعهم ، وما زالوا يسرعون في تمديد الخطوط في صحراء الجفار بحيث كان معدل ما ينشئون كيلو مترين كل يوم ، وهكذا حتى اقتربوا من العريش فلم يتقدموا خطوة الى الامام الا بحسب طريقتهم المعروفة في فتوحهم اي بقدر مرمى المدافع ، ريثما تتم الخطوط الحديدية وتؤمن السبل حق الامن .

* * *

إهلاك أحرار الشام والسياسة الاتحادية مع العرب } خطب جمال باشا لاول شخوصه الى الشام في النادي الشرقي بدمشق (١٣٣٣) قائلاً :

يجب عليكم يا أبناء العرب ان تحيوا مكارم اخلاق العرب ومجدهم ، منذ شروق انوار الديانة الاحمدية ، أحيوا شهامة العرب وآدابهم حتى التي وجدت قبـل الاسلام ، عضوا على عربيتكم بالنواجذ ، ودافعوا عنها بكل قواكم ، إعملوا على ترقية العرب والعربية جددوا مدنيتكم ، قوّموا قناتكم ، كونوا رجالاً كاملين — جهر بهـذا على رؤوس الإشهاد وقال مثله لارباب الاقلام في مجالسه الخاصة ، بيد انه كان يفكر وجماعته من الاتحاديين في الطرق الى الانتقام من العرب المخالفين وانزال العقوبة بمن رفعوا أصواتهم بالمطالبة بحقوق لامتهم فعدوهم خائنين للدولة ، وما هم الا مخالفون على الاغلب والمخالفة طبيعية في كل حكومة دستورية بل في كل حكومة ، تظهر وتستتر بحسب الاحوال والدواعي ، وعُدّ الائتلافيون اي الداخلون في حزب الحرية والائتلاف

خائنين في نظر الاتحاد والترقي ، وكان بعض أعضاء الحزب ينزعون منزعًا انكليزياً اي يحبون ان يعملوا بمشورة بريطانيا وبعض حزب الاتحاد ينزعون منزعا المانياً وحسب الاتحاديون من الخائنين ايضًا جماعة الاصلاحيين في بيروت اي المطالبون بالاصلاح في ظل العثمانية ، واللامركزيين اي المطالبون بتوسيع سلطة الحكومات المحلية . وكان هذا الحزب تألف في مصر من جماعة من الشاميين وانشئت لهم فروع في بعض مدن الشام وقصباته ، وتألف حزب فتيان قحطان في الاستانة . وهكذا قل في جمعية العهد العسكرية والجمعيات اللبنانية المختلفة المقاصد في لبنان والمهاجر .

فلما دخلت الدولة في الحرب رأى الاتحاديون ان الفرصة آذنت للقضاء على كل فكرة جديدة تخالف ما هم عليه وأصحابهم في سياسة الملك ، وتلقي الرهبة والهول في كل القلوب ، واعتزوا بمحالفتهم مع الالمان وبالاموال التي كانت تقرضهم اياها بالملايين ، وليس أحسن ملاءمة من هذا الدور من تولي أحد كبار أساطينهم احمد جمال باشا زمام القوة في الشام ، وهو الذي كان تولى قتل المخالفين في الاستانة من الاتراك أنفسهم وقتل حتى صهر السلطان ، فأصبح متمرناً على الانتقام من كل من يخالف مذهبه السياسي ، او كما قال عن نفسه في آخر خطاب ألقاه في دار الحكومة بدمشق ان طالعه كان القتل ، نُدِب لقتال الناشزين من الاتراك كما عهداليه قتل الناشزين عن الطاعة من العرب .

ولما نُدب جمال باشا لقيادة الجيش الرابع حمل معه أضابير التهم والتحقيقات وتقارير الجواسيس الموجهة لمئات من أبناء الشام ، وبينهم أُناس من أهل الطبقة العليا وكثير من الشبان المتعلمين . فألقى عصا التسيار في دمشق وشرع بالتحقيق عن زمرة هؤلاء المتهمين ، وألف ديواناً عرفيًا في عالية من لبنان فحكم اوائل آب ٣٣١ ش على ١١ رجلاً نفذ فيهم حكم القتل صلبًا في ساحة البرج في بيروت وكانوا متهمين بالدخول في حزب اللامركزية ، ثم شرع بالقبض على طبقة أُخرى اكثر علماً وتأثيراً ومكانة في البلاد ، ومدار تهمة الفريق الثاني اوالقافلة الثانية انهم حاولوا سلخ سورية وفلسطين والعراق عن السلطنة العثمانية وجعلها امارة مستقلة ومؤازرة الدولة البريطانية ، ولكن الحكومة التركية اتهمتهم انهم كانوا يعملون لادخال الاجانب

(الفرنساو بين او الانكليز) الى الشام في حال الحرب على ان هذا ليس بصحيح . واذا تفوه به بعضهم لاحد القناصل طمعاً في إمارة او مظهر من المظاهر فلا يسري اعترافه على الجميع . و يقول جمال باشا في مذكراته رداً على من يقول ان الاشخاص الذين أجرموا وظهرت ادانتهم وشنقوا في سورية قد شملهم العفو العام الصادر في سنة ١٩١٣ فمحاكمتهم فيما بعد على التهم نفسها عمل غير قانوني — انه قد بين في الكتاب الاحمر المسمى (حقيقة المسألة السورية) ان اولئك الاشخاص اتخذوا العفو العام وسيلة للقيام باعمال جنائية جديدة ، وان ادانتهم ترجع الى جرائمهم بعد ذلك العفو ، واذ كانت الوثائق الخاصة بادانتهم قبل العفو تعتبر قرينة قوية ، بدا للمحكمة ان تمحصها وتنشرها لتبين للملإ مبلغ شناعة خيانتهم اهـ . وبعد ان أورد بعض الوثائق السياسية قال : فمن تمحيص هذه الوثائق يدرك الانسان بسهولة ان الحكومة الفرنسية بذلت أقصى ما في استطاعتها لتمهيد الطريق لضم سورية بحجة حماية العرب . وفي الحق ان أعمال بعض من صلبوا قد ظهرت في أوراق قناصل فرنسا في دمشق وبيروت وحلب وغيرها من مدن الشام ، فانهم أبقوا أوراقهم في أماكنها بعد دخول الدولة في الحرب فانكشفت بذلك اسرار مهمة ساعدت الاتحاديين على الابلاغ في عقوبة مخالفيهم . اما قناصل بريطانيا فقد احرقوا أوراقهم ومنهم من استظهر الخطط الحربية المتعلقة بالشام ، فنجا بذلك كل من كان له صلة من الاهلين بقناصل بريطانيا العظمى .

وقد حكم الديوان العرفي في عاليه على ٢١ رجلاً بالقتل وهم القافلة الثانية نصلبوا في بيروت ودمشق في يوم واحد (٤ رجب ١٣٣٤) صلب سبعة في دمشق والباقون في بيروت ، وكان فيهم الابرياء الذين ما أرادوا قط خروج الشام عن حكم الترك ، وصلب بعض وجوه الموارنة ورهبانهم لانه ثبتت عليهم دعوة فرنسا للاستيلاء على الشام . ولما قبض على الرعيل الاول في السنة الاولى للحرب سألت خلوصي بك والي دمشق ، وكان يفيض معي بمسائل الدولة بحرية تامة ، وكان من الاحرار العقلاء في السلطنة ، وهو أعلم تركي وأعقل عامل رأته الشام في الاربعين السنة الاخيرة قائلاً : كنتم أمس في بيروت فما ذا رأيتم يا سيدي في قضية اولئك المتهمين وما هو وجه تهمتهم

ياترى ؟ . فأجابني بما تعريبه بالحرف : « سلسلة من التزويرات والتلفيقات عليهم قاتلهم الله وأخزاهم » . اي قاتل الله المزورين والملفقين و يعني بهم الاتحاديين .

ومن الغريب انه سيق الى القتل بعض من كان نالهم العفو يوم أغلقت الحسابات القديمة مع الدولة، كجماعة الاصلاحيين الذين نالوا بعض المطالب بعد مؤتمرهم في باريز، فاتهموا بمسائل أُخرى ارتكبوها ، واغرب منه ان يتطوع بعض ابناء البلاد بالجاسوسية للترك و يشهدوا على رجالهم في الديوان العرفي بما اوصلهم الى اعواد الصلب ، وان يتوسع بعض المصلوبين في شهاداتهم واستنطاقاتهم ويدخلوا في زمرتهم عشرات من الشبان وغيرهم حتى لا يبقى بيت عامراً في الشام ، وتسقط بزعمهم مكانة تلك القضية فيطوى سجلها بما فيه ، ولكن رجال الديوان العرفي كانوا اعقل من ان تغرهم هذه الظواهر ، وا كتفوا باصدار احكامهم على من ثبتت ادانتهم بحسب الخطة المرسومة او اقتضت مصلحة الاتحاديين القضاء عليهم من نبهاء البلاد ، وهدد جمال باشا بالقتل اعضاء الديوان ان لم يحكموا على المتهمين السياسيين فوافق بعضهم على القتل اضطراراً لا اختياراً .

وقد ذكر شكيب ارسلان ان خطأ جمال باشا في رأيه وجنايته الكبرى على العرب والترك في فعله هما من الوجوه الآتية :

اولاً — ان فريقاً آخر من الذين قتلهم ابرياء من خيانة الدولة ولم يكن لهم ذنب سوى وجودهم في الحزب المعارض لجمعية الاتحاد والترقي ، والقانون العثماني لا يعرف الاتحاد والترقي بل السلطنة العثمانية .

ثانياً — ان فريقاً آخر منهم لم يوجد عليهم وثائق خطية ولاقرائن قطعية تذهب في جزائهم الى درجة القتل وقد برر جمال هذا العمل فيما بلغنا من نفس رئيس الديوان العرفي بانه من باب « القتل السياسي » مع انه كان الاولى بهؤلاء ان يتركوا الى حكم القانون فيحكم عليهم بحبس او نفي على حسب درجة جرمهم .

ثالثاً — على فرض غير الواقع ، وهو ان هؤلاء مجرمون اعداء للدولة ، فلم يكن من باب السياسة ولا حسن الرأي ، فتح هذه المسألة اثناء الحرب ومجازاة اناس قد عفي عنهم ونكء القروح التي كانت قدسكنت نوعاً ، واثارة عواطف العرب وحفائظهم

واظهار كون الترك يريدون الانتقام في هذه الفرصة التي سنحت لهم للبطش وتعزيز النزعة الاجنبية بهذه السياسة ٠

رابعًا — ان الالوف الذين نفاهم الى الاناضول مع عيالهم وخرب بيوتهم ، وامات كثيرين منهم في الغربة لم يكن منهم مائة شخص يدرون ما هي السياسة ، فضلاً ان يكونوا خائنين للدولة فكان تغريبهم عن اوطانهم مجرد عذاب وقهر ، بدون ادنى فائدة ، سوى النفور مع تكاليف الدولة عليهم ١٥٠ الف ليرة شهريًا فكان خطأ جمال انه سلح اعداء السلطنة العثمانية وانصار الشقاق بين العرب والترك ورواد السياسة الاجنبية الكثيرين في الشرق بسلاح من البراهين لم يكونوا يملكونه فيما لو كان الاتراك انصرفوا من بلاد العرب بدون اعمال جمال ٠٠٠ اه ٠

وبعد فقد عمل جمال باشا ما عمل بقرار من جمعيته ، وكان من ورائه انور باشا يحثه على اهلاك هؤلاء الذين صلبوهم ٠ وقد جاء هذا مرة الى عاليه من لبنان فقال على صورة الاستنكار : « اما قتلتم بعد هؤلاء الخونة » ٠ وكان انور باشا نمراً مفترساً في صورة حمل وديع ، والدم في نظره ونظر رفاقه طلعت ومدحت وناظم وشركائهم احلى في المذاق من طيب الشراب خصوصًا اذا كان صاحبه غير تركي ، ومساويه ومساوي اصحابه اكثر من ان تحصى ، تجردوا من كل عاطفة ومن كل دين ، وعاطفتهم دهان وتظاهرهم بالدين رياء ٠

وقبل تنفيذ الاحكام بالجوقة الثانية كان قائد الجيش الرابع ينفي من الشام الى صميم الاناضول أُسراً برمتها ، وفيهم بيوت من صلب رجالهم بالتهم السياسية وممن جلاهم أُناس من الغوغاء والقتلة القدماء واشترك في هذه النكبة المسلمون والمسيحيون وغيرهم على السواء ، خصوصًا من كان لهم صلة بدولة من دول التحالف فرنسا وبريطانيا وروسيا ، ثم طمع الاتحاديون ان يتوسعوا في تأديبهم واعدوا في الاناضول الوفًا من الدور ليجلوا النابهين من سكان الشام الى تلك البلاد وكان الاتحاديون قرروا في مؤتمرهم ان يجلوا العرب الى بلاد الترك ويستعيضوا عنهم في الشام بأُناس من شذاذ الآفاق وان يعاملوا مهاجرة الشام كما عاملوا الارمن يوم جلوهم عن بلادهم اي ان يقتلوهم على بكرة ابيهم في الطرق ويغتالوهم بالطرق التي اغتالوا بها اعداءهم الارمن ٠ وشرع

الترك يقبضون على جوقة ثالثة من وجوه الاهلين ومنوريهم ويعذبونهم بتهم سياسية وجهوها اليهم منها ان لهم ضلعاً في انشاء حكومة عربية ومفاوضة شريف مكة بذلك ٠

* * *

خلع شريف مكة طاعة العثمانيين وتأثيره في الاتراك

كانت البقية البـاقية من منوري الشام تخاف سوء المغبة من عمل الاتحاديين خصوصاً بعد ان مرنوا على ازهاق النفوس ، ورفعوا حجاب الوهم الذي كان مسدولاً فرفعوه وعرفوا ما تحته يوم جسروا على قتل كبراء الامة ولم ينتطح عنزان ٠ وكادت النوبة تصيب اهل الطبقات الثالثة والرابعة يوم اعلن الشريف حسين بن علي امير مكة المكرمة استقلاله بملك الحجاز (٩ شعبان ١٣٣٤هـ حزيران ١٩١٦م) وثار العرب على الترك في مكة وقتلوا الحامية التركية واسروا اكثرها وحوصرت المدينة بعربه ، وذلك بتدبير الحلفاء واموالهم ، فشغل الترك بهـذه المصيبة التي لم يكونوا يتوقعونها واخذوا يستميلون اليهم رجالات الشام و يستبدلون اللين بالشدة ، واذ كانوا على عزم انفاذ حكم القتل برجال من القافلة الثالثة بعث ملك الحجاز الجديد بواسطة جمهورية اميركا المتحدة لانها كانت على الحياد بان كل منفي عربي او مسجون اذا أُصيب بادنى اهانة فهو مستعد ان يعمل اضعافه مع الاتراك الذين في اسره فكفّ الاتحاديون عن القتل ، واطلقوا سراح السجناء مرغمين بعد ان عذبوهم انواع العذاب ، فعدّ ذلك من حسنات الملك حسين ، ولقد آلم الاتحاديون قلوب السوريين بقتل طبقة مهمة من الشبان والكهول والشيوخ ، ونفي النساء والاطفال الى بلاد الترك ، ومع هذا لم تقصر الشام في تقديم ابنائها للحرب جنداً ، ولا اموالها وعروضها لمعاونة الجيش ، ولا ارزاقها وحيواناتها وذخائرها لخدمته ، لتحنق على الدولة من كان يريد انتصارها ، وتأصلت العداوة بين الترك والعرب ، وما كانت العداوة في الحقيقة الا بين دعاة الاتحاديين والمستنيرين من العرب ، حتى لا يبقى بعد الحرب رجال يستطيعون ان يرفعوا اصواتهم بمطالبة الدولة بشيء من الاصلاح ٠

ومنذ نادى الملك حسين باستقلالـــ الحجاز اخذ الضباط العرب وغيرهم من العراقيين والشاميين واليمانيين ممن وقعوا في اسر دولـــ الحلفاء ، او كانوا في خدمة

الجيش التركي على مقربة من الحجاز او في الجهات البعيدة جداً كجهة القافقاس ينضمون الى جيش الحجاز العربي فألفوا جيشاً لا بأس به يرجع الى نظام في الجملة ، وهذا الجيش هو الذي قاتل الترك في الشام ، واوقع الشغب في الفيالق التركية وفت في عضد الدولة العثمانية في بوادي الحجاز ، وساعده ما كان ينهال من الاموال الانكليزية التي استمال بها ملك الحجاز والقواد أولاده الاربعة العربان في الشام والحجاز ، وتسرب قسم منها الى كبار الضباط من ابناء العرب ، وكان لجمعية العهد يد طولى في التحاق ضباط العرب بصاحب الحجاز ، وهذه الجمعية كانت مؤلفة في الاغلب من ضباط العرب في الدولة كما كان مثل ذلك لجمعية الفتاة العربية التي أُلفت في باريز قبل الحرب بنحو خمس سنين من كبار المفكرين من ابناء العرب وخصوصاً الشاميين وضمت اليها بعض كبار اعيان البلاد ومفكريها وفي مقدمتهم انجال شريف مكة وابلغوا والدهم قرارهم وامتدت دعوتهم الى جبل الدروز ·

وقدر بعض الواقفين عدد من انضم من البدو الى الجيش العربي في جميع الجهات بما يناهز المئة الف والعسكر النظامي لا يتجاوز الخمسة آلاف · وقال بعضهم ان البدو لم يتجاوزوا السبعين الفاً يكثرون و يقلون بحسب الحاجة والنظامي وهم من ابناء العرب الاسرى من الجيش التركي او الفارين منه خمسة آلاف وان النظامي لم يتجاوز هذا القدر ·

وكان شاعر الثورة الشيخ فؤاد الخطيب يحفز أرواح هذه الامة بشعره ومما قاله في الثورة من قصيدة :

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
ياصاحب الهمة الشماء انت لها ... ان كان غيرك يرضى الأين والسأما
واسمع قصائد ثارت من مكامنها ... ان شئتها شهباً او شئتها رجما
من شاعر عربي غير ذي عوج ... قد بارك الله منه النفس والكلما

* * *

يا آل جنكيز أن تثقل مظالمكم ... على الشعوب فقد كانت لهم نعما
فالظلم أيقظ منهم كل ذي سِنة ... ما كان ينهض لولا انه ظلما

ارهقتم الشعب ضرباً في مفاصله حتى استفاق وسلّ السيف منتقما
فالشنق عن حنق منكم وموجدة قد ارهف العزمات الشم والهمما
هيهات يصفح عنكم او يصالحكم حرٌّ ولو عبد الطاغوت والصنما

✲ ✲ ✲

يا ابن النبي وانت اليوم وارثه قد عاد متصلاً ما كان منفصما
والتف حولك ابطال غطارفة شم الانوف يرون الموت مغتنما
فاصدم بهم حدثان الدهر مخترقاً سداً من الترك ان تعرض له انهدما

✲ ✲ ✲

يامن الحّ علينا في ملامته بعض الملام وجرّب مثلنا الألما
لو كان من يسمع الشكوى كصاحبها مضنى لما ضج بالزعم الذي زعما

✲ ✲ ✲

ايه بني العرب الاحرار ان لكم فجراً أطلّ على الاكوان مبتسما
يستقبل الناس من أنفاسه ارج ما هب في الشرق حتى انشر الرمما
تلك الحياة التي كانت محجبة في الغيب لا سأما تخشى ولا سقما
سارت مع الدهر من بدو ومن حضر حتى استتبت فكانت نهضة عمما
من ذلك البيت – من تلك البطاح – على تلك الطريق – مشت اجدادنا قدما

✲ ✲ ✲

لستم بنيهم ولستم من سلالتهم ان لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
الى الشآم – الى ارض العراق – الى اقصى الجزيرة – سيروا واحملوا العلما

✲ ✲ ✲

أماني الاتراك وخيبتهم وتحرر بهم كلما طال امد الحرب كانت حالة البلاد تسوء ، وقد اتى الجند وبعض ضباطهم وعمال الحكومة من ظلم الناس باسم الجيش والتكاليف الحربية ماضاقت به الصدور وغلت مراجل الاحقاد وساءت الاخلاق ، وكلما دامت الحرب شهراً زاد الناس من الدولة اشمئزازاً وقهراً ، ومن يجسر والاحكام العرفية سائدة وسلطان الفزع الاكبر فاغر فاه ، ان يقول كلمة

خير ، او يرفع مظلمة او ينقد معوجاً ، فان التعذيب كان مصير من يجرأ على ذلك ، والسجن والقتل كان يتهدده كما وقع لمئات في دار الملك ومنهم اصدقاء انور باشا وشركاؤه في اعماله ، قتل بعضهم لانهم قالوا بطلب الصلح من الحلفاء ، وان الدولة تحاول بحربها الانتحار . قال سفير اميركا : « رأيت انور في احد الايام وقد اشتدت وطأة الضباط على الفلاحين والتجار فقلت له ان تلك الاعمال (نهب التجار والفلاحين باسم الجيش) تفضي بالمملكة الى الخراب العاجل والدمار الاكيد ، ولكنه لم يعبأ باقوالي ولم يخفق فؤاده ألمًا لتلك الاعمال بل كان يفتخر بانه انشأ جيشاً كبيراً مجهزاً من لاشيءٔ . بلغ عدد الجنود التي جمعها انور نحو مليون ونصف مليون ، وبقي نحو مليون أسرة في انحاء المملكة وليس لهم من يساعدهم على القيام باعباء الحياة ، وقد فتك بهم الجوع فتكاً ذريعاً . اما الحكومة التركية فكانت تدفع لكل جندي في جيشها نحو ربع ريال في الشهر اه » .

قلنا ان الدولة جمعت في الشام سبعاً وعشرين قرعة أي من ابن الثامنة عشرة الى ابن الخامسة والاربعين وكان معدل ما يجمع من كل صنف ثمانية آلاف جندي فيكون مجموع المجندين من السور بين مائتين واربعين الف مقاتل فرَّ منهم بحسب الاحصاءآت الرسمية الى آخر الحرب نحو مئة وخمسين الف جندي وظلَّ في الخدمة بين اسير ومريض ومستخدم في خدمة خفيفة ببلده نحو خمسين الفاً وقتل نحو اربعين الفاً . ولو أردنا تفصيل ما وقع من الجيش ولاجل الجيش واهمه استباحة الاعراض المصونة والعبث بالمقدسات والمشخصات لاقتضى لذلك مجلد برأسه ، فقد فسدت الاخلاق بحيث لايتأتى ان تصلح الا بفناء معظم من تلوثوا بتلك اللوثات والهنات ، وكانت تنضب مواد البلاد الحيوية يوماً بعد يوم ، وقل الفحم الحجري جداً فاخذ الاتراك يسيرون القطارات في بلاد الشام بالحطب ، يقطعون الزيتون والكينا من فلسطين ، والجوز والمشمش والحور من الغوطة ، والسنديان والزان والصنوبر من لبنان ، والزيتون والفستق من حلب ، والغضا من الحجاز ، واشتد الجوع وعزَّ الخبز ، واصبح الغني يغتبط بانه ينال قوت يومه على ايسر وجه ، وذل اعظم عظيم في هذه الديار امام جمال باشا واشياعه من الاتحاديين ، وصانعه اكبر البقية الباقية من الاحرار مخافة ان ينالهم من

ظلمه ما نال غيرهم ، وكان الموت معلقاً بين شفتيه ومن لا يصانعه يذله ، وربما قتله أو نفاه من هذه الارض . وكان يعمل ما يريد ثم يكتب الى الاستانة بما حصل . ومن اغرب الاحكام أن يجعل القتل في ايدي العرفاء والنقباء من صغار الضباط ، فكان لاحدهم اذا قبض على عشرة فارين فله ان يهلك واحداً منهم بالقرعة ! وهكذا تجددت الاحكام القرهقوشية ، ورخصت الارواح وبيعت بيع السماح .

قال جمال باشا في مذكراته : ويقيننا ان الفضل في عدم حدوث ثورة في سورية خلال العامين والنصف العام اللذين اعقبا اعلان الشريف حسين استقلال بلاده ، انما يرجع الى احكام القتل التي وقعت في نيسان ١٩١٦ وبقطع النظر عن ذلك فان أنور باشا وهو وزير الحربية ، وطلعت باشا وهو وزير الداخلية ، قد وافقا على تنفيذ أحكام القتل بدون استئذان من المراجع العليا ، ثم أرسلتُ الى الاستانة تقريراً بما أجريته وهناك راجعته محكمة الاستئناف التابعة لوزارة الحربية ثم أرسلته بناء على قرار مجلس الوزراء الى القصر للتصديق السلطاني ؛ وهكذا ايدت الارادة السنية الاحكام التي قضى بها الجيش ونفذها وبذا ختمت هذه الرواية اه .

وكلما كانت الامة ترجو انفراج الازمة كان احمد جمال باشا وهو قوي الثقة بنفسه وجيشه يرجو ان تنجلي الحرب عن نصرة دولته ، ويؤسس في الشام معاهد لتتريك العرب وتقوية الدعوة التركية الاتحادية في نفوس الامة ويفتح شوارع في يافا والقدس وبيروت ودمشق ويضع المصورات والخطط والتصميمات لهندسة امهات مدن الشام على الطريقة الحديثة وقد نفذت احكامه على البادية والحاضرة حتى ان بعض امراء العرب كانوا عيوناً له يقبضون احساناته الكثيرة ولا يتلكأون عن قبول المعاونات التي يقدمها لهم الانكليز . ولم يسلم من يد جمال باشا الا دروز جبل حوران فانهم خدعوه بوعودهم ، ولم يتجندوا بحجة العمل في اراضيهم لاخراج الحبوب للجيش ، ولكن الغلات التي استغلوها لم يقدموا منها شيئاً للدولة على الرغم من الحاح القائد العام عليهم ، فحفظوا حبوبهم في اهرائهم حتى شحت في الشام ثم اخذوا يبيعونها باثمان فاحشة ولولا ذلك لجاع أهل مدينة دمشق نفسها على قربها من حوران أنبار الشام العظيم . ولذلك كان جمال باشا يحرّق الأُرّم عليهم ، ولوخرجت دولته ظافرة لارسلوا حملة على هذا الجبل

تهلكه وتخربه. واخرى وهي تعد في مآثر الدروز هذه النوبة ، وهي أنهم آووا في جبلهم نحو عشرين الف لاجئ من العرب والترك على إختلاف مذاهبهم ، فراراً من الجندية أو غيرها ، واطعموهم مدة الحرب بلا عوض ، ومنهم من كانوا يشغلونهم في اراضيهم مقابل إطعامهم فقط ، فكانت مضافات الرؤساء منهم أشبه بفنادق ومطاعم عامة مجانية ، خدامها أصحاب تلك البيوت من أعيان الجبل ، فمثلوا بعملهم القرى العربي والمروءة والشهامة ، وكفروا عن سيئات المسيئين منهم في الماضي ، وكان جبل الدروز أقوى صلة بين جزيرة العرب والشام والعراق مدة الحرب ولا سيما بعد استقلال الحجاز ، وعزم الحلفاء على فتح الشام باسم الامير فيصل واسم ابيه ، فكان مركز جبل حوران من الوسائط النافعة لابناء الشام والحجاز معاً ، وفيه تألفت عصابات من الدروز لالقاء الاضطراب في صفوف الجيش التركي وظل أكثر زعماء الجبل على ولائهم للدولة العثمانية حتى أظلتهم الرايات العربية .

* * *

الوقائع المهمة في فلسطين وسقوط القدس وما اليها	اخذ الجيش التركي في الجبهة ينضغط على نفسه وتتضاعف فيه مضعفات النفوس من جوع وعري ، ففي ٢٦و٢٧ آذار ١٩١٧ حدثت معركة غزة الاولى بين الترك والانكليز

وفي ١٩ نيسان كانت معركة الرمادة ، وفي ٤ آب انهزم الاتراك للمرة الثانية في محاولتهم غزوة مصر في قطيا ، وفي ٢٣ تشرين الاول و٧ تشرين الثاني اخترق البريطانيون خط العثمانيين بين بئر السبع وغزة ، فتخلى الاتراك عن الابن وبئر السبع وكانت وقعة في أزقة غزة على اسلوب حرب المتاريس اشتركت فيها البحرية البريطانية بمدافعها من البحر ، وكانت الغلبة فيها للاتراك وفقد من الانكليز على رواية قائد الجيش الرابع في وقائع غزة ٤٠٠٠ وفقد الترك ٢٨٦ قتيلاً و٧٥٦ جريحاً و٥٨٥ متغيباً واسيراً ، وادعى القائد التركي ان كل جندي من الحامية في غزة قتل جندياً انكليزياً وان الجيش البريطاني في ارجاء غزة كان مؤلفاً من اربع فرق فرسان واربع مشاة ، وان المعركة دامت ثلاثة ايام (١٧ و ١٨ و ١٩ نيسان) واضطر البريطانيون الى النكوص على اعقابهم يحتمون في خطوطهم تاركين وراءهم القتلى والجرحى وعددهم ٧٠٠٠ اي ما يعادل جميع القوة

التركية التي اشتركت في القتال في تلك الجبهة . وفي الاخبار الرسمية التركية ان خسائر الانكليز (رجب ١٣٣٥) في ساحة غزة الثانية قدرت بثلاثة آلاف فيهم كثير من الضباط وافاد احد الاسرى ان فرقته بات عددها اربعة آلاف رجل بعد عشرة والاسرى بلغوا نحو الاربعمائة وخسائر الانكليز بالنسبة للوقعة الاولى كثيرة ولكن غزة خربت الاقليلاً وتشتت اهلها تحت كل كوكب . ومن الاسباب التي قضت بخرابها ان الاتراك وضعوا بعض مدافعهم الرشاشة الخفيفة في المآذن واخذوا يطلقونها على البريطانيين فما كان من هؤلاء الا ان قابلوهم باطلاق القنابل من مدفعيتهم من البر والبحر .

قلنا ان غزة خربت الا قليلاً ولم يتناول الخراب غزة فقط بل تناول يافا أيضاً وذلك لان العثمانيين أجلوا اهالي تينك المدينتين الى الداخل فترك سكانهما عروضهم ومتاعهم واموالهم او باعوها باثمان طفيفة وارتكبت الفرقة الثالثة من الفرسان وهي من الترك انواع الفظائع في اعراض المخدرات بما يخجل منه .

كانت قيادة الجيش الفعلية في الشام بيد الالمان و بالاسم بيد العثمانيين فان القواد فونكريس وفالكنهايم وليمان سندرس ابلوا بلاء حسناً في وقائع شبه جزيرة سينا وغيرها ولذلك كان قائد الجيش الرابع يكرههم لانهم جعلوه واوامره وراء ظهورهم . ووظيفته الحقيقية في هذه الحرب ان يقدم لهم جنداً وارزاقاً و ينفذ ما يأمر به القائد الالماني لنظام الجيش وانتظامه . ولم يقصر الاتراك والحق يقال في مد الخطوط الحديدية الى جبهة مصر على تعذر جلب الادوات اللازمة لها من الغرب فقدانجزوا خط العفولة نابلس متصلاً بحيفا ودرعا ودمشق قبل الحرب ثم انجزوا مسعودية — طول كرم — لد — وادي صرار — بئرالسبع — حفير — اي ٢٥٤ كيلومتراً ومدوا خطاً من التينة حتى دير سنيد قرب غزة وهو ٤٠ كيلومتراً في أيام قليلة وخربوا خط حوران دمشق وطرابلس حمص لاخذ خطوطها الحديدية ، وأصبحت بئر السبع مركزاً مهماً فيها الكهرباء وادوات الرفاهية في المدن ، وسدوا طريق العريش — الابن — نخل ، وحفروا آباراً وعملوا احواضاً وجروا الماء في البادية الى القصيمة الى ثلاثين كيلو متراً .

سار الجيش الانكليزي على عادته في قتال الترك في سينا سيراً بطيئاً ولكنه

كان امينًا ، ومدوا خطهم الحديدي بالقرب من الساحل ليكون له من الاسطول عند الاقتضاء معتصم ، وفي ٣١ تشرين الاول أخذوا بئر السبع وفي ٢١ كانون الاول ١٩١٦ أخذوا العريش وفي ٩ كانون الثاني ١٩١٧ أخذوا رفح . وأخلوا شبه جزيرة سينا من كل ما هو تركي سنة ١٩١٧ وأُخذت يافا في ١٦ تشرين الثاني وكانت أخليت من السكان زهاء سنة ونصف وتشرد أهلها ، وسقطت القدس في ١٠ كانون الاول ١٩١٧ ودخلها القائد المشير اللنبي الانكليزي دخول الظافر فسقطت بيت المقدس كما قال بعضهم في أيدي الفرنج بعد ان خرجوا منها في الحروب الصليبية منذ ثمانمائة وتسع عشرة سنة . وقرعت أجراس الكنائس برمتها فرحًا بسقوط القدس ومن جملتها الكنائس الالمانية كأن ما خسرته المانيا سياسيًا بهذا السقوط يعزيها بعودة البلاد المقدسة دينيًا الى أيدي المسيحيين .

واستولى الانكليز على اريحا يوم ٢١ شباط ثم جعلت الجبهة على خط يافا اريحا وظل المتحاربون يقتتلون الى سنة ١٩١٨ وقد كلت همم المقاتلين من الترك فاخترق الجنرال اللنبي الجبهة التركية في ١٩ فاستسلم جيشان تركيان (السابع والثامن) وكان انهزم احدهما نحو الشمال اي نحو طريق القدس نابلس ، ونشبت بين الفريقين البريطانيين والاتراك معركة هائلة في البيرة انتهت بهزيمة الاتراك وانسحابهم الى اللبان وبلغ الجناح الايسر من الجيش البريطاني حيفا والجناح الايمن تجاوز نابلس وبفتح حيفا وطول كرم ونابلس والناصرة وطبرية فتحت أبواب الشام أمام الجيش البريطاني .

* * *

عمل الجيش العربي[1] في شهر حزيران سنة ١٩١٦ اي في السنة الثالثة للحرب العامة لما قام الشريف حسين بن علي امير مكة المكرمة بثورته على الترك وقتل وأسر حامية مكة من الاتراك ونودي به ملكًا

(١) تفضل بعض رجال الثورة العربية السيد نسيب البكري والسيد فخري البارودي والشيخ سعيد الباني فأعطوني بعض معلوماتهم عن دخول الجيش العربي الى الشام .

على الحجاز ثار ابنه الامير علي في عرب المدينة المنورة الموالين لابيه على الحامية التركية غداة ثورة مكة فلم يستطيعوا أخذها لان فخري باشا قائد حاميتها التركي كان حصنها تحصيناً عظيماً فما استطاع العرب ان يحوا على تلك الحصون مخافة ان يصاب قبر الرسول (ص) ومسجده باذى وقبعت الحامية التركية بما ادخرته من الطعام في داخل حصونها بعد ان اجلت الحكومة اكثر اهل المدينة الى الشام وآسيا الصغرى وعددهم لا يقل عن اربعين الفاً ولم تترك سوى بضعة آلاف ممن آثروا ان يموتوا في جوار قبر النبي على الجلاء غير مطالبين الجيش المحاصر بخبز ولا إدام . واخذ عرب الامير علي يناوشون الحاميات التركية على الخط الحجازي مدة ويخربون بعض خطوطه ويعود العسكر العثماني فيصلح ماخربوه ويستخدمه في الضروريات لتموين الجيش المرابط في المدينة واخذ منذ ذاك الحين الامير فيصل ثالث انجال الملك حسين في سرايا من عرب الحجاز يشاطئ ساحل البحر الاحمر متقدماً الى سمت الشمال نحو الشام وينضم اليه اسرى الجيش التركي من العرب الذين أسروا في ترعة السويس وشبه جزيرة سينا وساحة العراق . ففتح ينبع البحر والوجه وهنا تألف الجيش الشمالي الذي قاده الاميرفيصل اماشقيقه الامير عبدالله النجل الثاني فكان في الطائف يحاصرها حتى سقطت ، اي ان الامير علياً كان يشاغل الحامية التركية في المدينة ويفتح رابغ و يجعلها ميناءه ، وشقيقه الامير فيصلاً يحاول الابتعاد عنها للانضمام الى الجيش البريطاني في شبه جزيرة سينا .

وفي تموز ١٩١٧ اي بعد احد عشر شهراً من ثورة صاحب الحجاز على الترك فتحت العقبة بمعاونة الشيخ عودة ابي تايه من مشايخ الحويطات ومن شجعان العرب ، وقد ابلى بلاءً ليس بعده بلاء وذلك في هذه الوقعة وفي اكثر الوقائع التي اشتبك فيها الجيش العربي مع الجيش التركي وكان له الفضل باسقاط الطفيلة وابي الاسل والكويرة وغيرها من المواقع التى احتلها العرب في اوائل البلاد الشامية من الجنوب وقد أسر في فتح العقبة تابوراً تركياً برمته تام الأهبة لم يفلت منه ولا اركان حربه و رجال شوراه الحربي استسلموا كلهم لابي تايه فعاملهم ارقى معاملة مدنية . وكان لمدافع الاسطول البريطاني من البحر اولاً يد طولى في اخلاء الترك للعقبة و بسقوطها

حمى العرب مؤخرة البريطانيين في سينا وكان الاتراك يأتون من معان الى بادية سينا يضربون البريطانيين وباستيلاء العرب على العقبة استطاع الانكليزان يهجموا على غزة وبئر السبع ، اما الاتراك والالمان فقد دافعوا عن العقبة دفاعاً عظيماً ولكن البريطانيين كانت لهم السلطة على الساحل وأهل البلاد من العرب يحاربون باجسادهم وارواحهم مع صاحب الحجاز واولاده ٠

استولى العرب على الطفيلة ووادي موسى وحاولوا الاستيلاء على معان الواقعة على الخط الحديدي فردوا عنها مرتين بخسائر خصوصاً يوم ٢٢ تموز عندما هاجموا محطة ام الجرذان (الجردونة) فكانت خسائرهم عشرين ضابطاً ومائتي جندي واستولوا على ام الجرذان ثم تخلوا عنها ٠ وارسل الاتراك من الكرك اربع كتائب وسرية من البغالة بغية احتلال الطفيلة وبينا كانت سائرة في وادي موسى بلغ العرب خبرها فتحصن محافظ الطفيلة الامير زيد رابع انجال ملك الحجاز في مائتي جندي نظامي وقوة قليلة من البدو في رؤوس الجبال واخرج اهل الطفيلة وسلحهم وفرقهم على الجبال التي في اطراف الوادي وجعل العسكر التركي في شبه حصار واطلق عليهم النار فارتبك الجيش الزاحف وجفلت البغال وقتل حامد فخري بك القائد التركي المعروف عند الاتراك بفاتح بكرش فسقط في يد الجيش وانهزم اكثره وسلم الباقي واخذ العرب ما يربي على ستمائة اسير تركي وغنموا اربعة مدافع سريعة الطلق ولم يكن معهم سوى مدفعين قديمين ٠ اما الكرك على حصانتها فان الاتراك اخلوها من انفسهم ٠

وانضمت الى الجيش العربي في الوقائع الاخيرة سرية مدفعية افرنسية كما كانت الطيارات الانكليزية لا تغفل يوماً عن كشف مواقع العدو وتهيئة سبل التقدم لهم و إخبار المقاتلين من البدو ممن كانت وقائعهم مع الترك على الاكثر اشبه بمناوشات عصابات لا بحروب منظمة ٠ والامير فيصل ينظر اليه نظر قائد عربي يتلقى الاوامر من المار يشال اللنبي ولقبه قائد الجيوش الشمالية ٠

جاء في نشرة وزارة الحربية البريطانية في آب ١٩١٧ ان خطة العرب في بداءة نهضتهم خطة حسنة تحوي في مطاويها حذقاً وحزماً ودهاء فقد خربوا قسماً من السكة الحديدية واستولوا على مراكز الاتراك على جانبي الطريق وكانوا على جانب من

البسالة يتغلبون غالباً على جيش اكثر منهم عدداً وعُدداً . وقال ليمان سندرس الالماني : ان العرب من اول شهر ايار الى التاسع عشر منه خربوا خمسة وعشرين جسراً .

ولقد خرب العرب محطة القطرانة واسروا عدداً من الترك وبعد اسبوع هجموا على الحسا فأخذوا قطاراً كان هناك ودمروا قسماً من العدة والذخيرة ولكن الاتراك اخرجوهم بعدئذ من الحسا فتقهقروا جنوباً وهم يخربون في الجسور والخط . وفي تشرين الثاني ١٩١٧ واقعت القوى البريطانية حامية الترك في عمان فسقطت السلط في ايدي البريطانيين والعرب وعاد الاتراك فهاجموها في آذار ١٩١٨ وردوا البريطانيين الى غربي الاردن . وكانت حال تلك البلاد مثل الصلت ومعان وعمان وغيرها تعسة جداً لان الاستيلاء عليها كان متبادلاً بين الفريقين المتحاربين واهلها بين نارين خصوصاً نار العثمانيين الذين كانوا يعاقبون الاهلين لدى عودتهم الى بلد انهزموا منه بحكم الطبيعة او القواعد الحربية بما يخرج عن حد المألوف تشفياً وانتقاماً .

لما صدر الامر بالهجوم العام لضرب الجيش التركي الالماني الضربة القاضية فاوض البريطانيون الامير فيصلاً ان يجهز حملة تسير من ابي الاسل الى جسر تل شهاب في حوران لتقطع خط الرجعة على الجيوش التركية فتألفت الحملة من الجيش النظامي يرافقها شرذمة من البدو . ويظهر ان القيادة التركية شعرت بذلك لان من البدو من كانوا يتجسسون للعرب وعليهم وللترك وعليهم ، ومن عادة البدوي ان ينحاز الى صفوف الغالب وينقض على المغلوب بعد ان كان في صفوفه لان هدفه الوحيد السلب والنهب — فاوعز القائد التركي الى الحامية ان تدافع عن معان بالهجوم على الجيش العربي في الوهيدة لاشغال الحملة عن المسير الى تل شهاب وسار الالمان مع الاتراك من الشمال على الشوبك والطفيلة ليلتقوا مع الجيش التركي الذي خرج من الشرق على معان فباغتت الحامية ليلاً على تل سمنة المطلة على معان واستولوا على حصونها وبضبطها أصبح الجيش العربي في خطر فبلغ الامير فيصلاً ذلك بالهاتف من الوهيدة بين معان وابي الاسل وتبعد عن كل منهما زهاء ساعتين او اكثر وكانت مقر الجيش العربي ومقر الامير وراءها في ابي الاسل ، فاهتم للامر لتناقص عدد الجيش العربي

الذي انضمت اكثريته الى الحملة المنوه بها وكانت بارحت قبل هذا الهجوم بيوم المقرّ من جهة الطريق الشرقي البعيد عن الخط الحجازي مسافة نهار تقريباً وهو من جهة الجفر وباير (ماآن لاهل البادية) فندب الامير اخاه الامير زيداً واستعاد حصون تل سمنة وكان الاتراك ينوون ان يتقدموا منها للاستيلاء على الوهيدة مقر المعسكر العربي ولو لم يتقدم احد ابناء العرب ممن كان مع الجيش التركي ويفاوض بالهاتف مركز الجيش العربي وينذره سوء العقبى ويسارع الاميرفيصل بارسال عبيده وعددهم مائة وخمسون ويسيروا كالبرق الخاطف يقفون امام الجيش التركي ويشاغلونه ريثما تقدمت فرسان الجيش العربي وتبعها المشاة — لولا هذا لما رُدالاتراك عن معان ولهلك الجيش العربي بأسره .

ومن ذاك الحين انقلبت حامية معان من طور الدفاع الى طور الهجوم وعهد الامير فيصل بالقيادة العــامة في مقر ابي الاسل الى أخيه الامير زيد والتحق بالحملة يرافقه قليل من الجند النظامي وحرسه من العبيد وبعض المتطوعة من بدو ومن حضر قاصداً الازرق ليتخذه مقر القيادة للحملة وضرب موعداً للنوري بن شعلان ان يلاقيه بالازرق مع شرذمة من قبيلته كما اوعز الى عوده ابي تايه ان ينزح مع شرذمة من قبيلته من الجفر الى الازرق وهكذا كان ولكن جنده كان قليل العدد والبدو الذين ارادهم على ان يوافوه تخلفوا عنه فاصبح موقفه في خطر، وكان في وسع مئة جندي عثماني لو همّوا به ان يأسروه ومن معه ، ولكن قذف الرعب في قلوب المحاربين من الترك فظنوا ان هناك جيوشاً جرارة لاقبل لهم بها ، وزاد حراجة الموقف تشويشاً ان بعض مشايخ قرى جبل الدروز بعثوا الى الامير يحتجون على احتلاله الازرق بدعوى ان احتلاله يوغر عليهم صدر الحكومة التركية لان الازرق وان كان مقدمة بادية الشام وغير مملوك لاحد لكنه يعتبر في نظر الدروز ونظر القبائل الرحل ملحقاً بالدروز ، ولم يؤثر هذا الاحتجاج في نفس الامير فيصل لعلمه ان لاقيمة له بالنسبة الى زعماء الجبل الموالين له وفي طليعتهم سلطان باشا الاطرش الذي اخلص كل الاخلاص للثورة العربية وعاونها بماله وجاهه ، ولعلمه انهم متجرون بهذا الاحتجاج غير انه اورث اضطراب الافكار خشية تجسسهم للاتراك وبعد خمسة ايام ارسل احد شيوخ قبيلة بني صخر وهو الوحيد في موالاة

الجيش العربي دون بقيه شيوخ القبيلة الذين كانوا موالين للحكومة التركية و يقطعون السابلة على كل قافلة تلتحق بالامير فيصل في ابي الاسل، وجهزه بفئة من المتطوعة لتخريب جسر عمان لقطع المواصلة بين القيادة التركية ومعان وجاء على الاثر الكولونل لورانس الانكليزي، ملقن الثورة العربية والمشرف عليها الذي دُعي « ملك العرب غير المتوج » واخبره بسقوط نابلس وما وراءها الى الشمال وانه وقع في اسر الجيش البريطاني من الجيش التركي زهاء ستين الفاً وكان الفضل الاكبر في ذلك لتخريب جسر تل شهاب . وصباح اليوم السادس ورد على الامير فيصل نجاب يخبره بسقوط معان واسر حاميتها وسوقهم الى العقبة، وبعد ساعتين جاءه نجاب آخر من عمان يحمل اليه اوراق الحكومة التركية فيها مبرهناً على سقوطها وانجلاء الترك عنها قبل تخريب الجسر . فرأى الامير فيصل عندئذ نقل المقر الى بصري عاصمة حوران ، مخافة ان يضم الاتراك شملهم في درعا دفاعاً عن دمشق ولم يكد يستقر بها حتى بلغه سقوط درعا بيد الجيش العربي والانكليزي ومتطوعة الحورانيين فسار اليها ونظم حكومتها واخذ منه القلق لانه كان جرى اتفاق بينه وبين الحلفاء اي بينه وبين البريطانيين ان كل فريق من العرب أو البريطانيين يسبق جيشه الى فتح مقاطعة أو بلد يكون حق احتلالها وادارة شؤونها لذاك الفريق الى أن يُبت في المصير، وحافظ الجيش الانكليزي على هذا الوفاق فكان اذا سبق فتح بلداً او اسقط حصناً في البلاد التي يريد اعطاءها للعرب يتوقف ريثما يدخل العرب فينسب الفتح اليهم ولا سيما في بلاد الشام الداخلية . ولذلك خف السيد نسيب البكري من الازرق بامر الامير فيصل الى جبل الدروز ولقي صديقه سلطان باشا الاطرش وجيش هذا من الجبل نحو مائتي فارس وذهبوا الى بصرى وهناك التحق بهم بعض الحورانيين ولا سيما آل مقداد وساروا الى دمشق على طريق الكسوة فناوشهم جيش الاتراك قليلاً في حصون جبل المانع ريثما يتمكن من الهزيمة بانتظام ، ودخلت هذه الحملة التي كانت مؤلفة من نحو خمسمائة فارس ماعدا المشاة من أهالي البلاد الى دمشق واتفق دخول هذه الحملة مع أوائل الحملة البريطانية الزاحفة على الفيحاء من طريق جسر بنات يعقوب — القنيطرة .

***

سقوط حوران ودمشق بيد الجيوش البريطانية } وفي ١٧ ايلول ١٩١٨ قطع الجيش العربي الخط الحديدي على عشرة كيلو مترات من شمالي درعا (اي بين خربة الغزالة ودرعا) بمعاونة الطيارات الانكليزية ، وكذلك خط درعا — حيفا اي من المزيريب وخط عمان — درعا فانقطع الخط في نصيب واصبحت حامية درعا مقطوعة عن كل مدد وفي اليوم الثاني كان الهجوم البريطاني العام فوجه الترك الى العرب بقسم كبير من قوتهم فلم يُبقِ فيها الجناح الايسر من الجيش البريطاني الا بقيةً ما لبثت ان تفرقت شذرمذر ، وأسر العرب في هزيمة الاتراك تسعة آلاف اسير ، وغنموا تسعة آلاف بندقية وثمانية مدافع وأربعة وخمسين رشاشاً . وفي ٢٦ منه هجم الجيش العربي بعد ان انضم اليه عرب الرولة وعرب عنزة وعدد من الدروز على سكة الحجاز على ١٥ ميلاً جنوبي درعا ، فخربوا جسراً وقسماً من الخط .

وفي ٢٨ منه احتلت القوات النظامية درعا وفي ٣٠ منه تغلبت فرقة استرالية على نجدات الاتراك في قطنا ، وتقربت عند المساء الى أبواب دمشق وفشل الاتراك أي فشل ، وظل الجيش البريطاني يتبع المنهزمين حتى بلغ ضواحي دمشق يوم ٣٠ ايلول وكان ناوش المها جمون بعض الحاميات في المدن التي ذكرت ولاسيما في الناصرة (٢٠ ايلول) وقد نشب قتال فيها بين البريطانيين والالمان من الساعة الخامسة صباحاً الى الظهر ، وعندها أخلى ليمان سندرس الناصرة وركب سيارته الى دمشق .

وعلى هذا كان أول من دخل دمشق فرقة من الخيالة الاسترالية والفرقة البريطانية جاءت من درعا على طول الخط الحجازي ومن الغد (أول تشرين الاول) دخل البريطانيون والجيش العربي في يوم واحد ، وقد تأثر الجيش البريطاني بقايا المنهزمين من الجيش التركي بين ربوة دمشق وقرية دمر فهلك من الجند المنهزم نحو مئة وعشرين ، وسرقت خزينة الجيش التركي وكانت في القطار في مركبتين بين الشادروان ودمر فنهبها الفلاحون وغيرهم من المصطافين ، وطارد الفرسان البريطانيون والاستراليون المنهزمين من الاتراك ممن حاولوا المقاومة اولاً في سفح جبل قلمون قرب دومة فظن الترك ان الاهلين قاموا بمناصرة الجيش البريطاني فاستسلموا فخف اهل قرية حفير من أعالي الجبل لرد الاتراك دفاعاً عن قريتهم . وكان بعض سكان حوران اعتدوا في الايام التي سبقت سقوط دمشق

على بعض المنهزمين من الجيش لاخذ سلاحهم على الاكثر ، ولكن الامير طاهراً الحسني وابناء عمه الامير سعيد والامير عبد القادر كانوا الفوا من المغاربة سرايا من المطوعة واخذوا الف بندقية من الحكومة التركية فخرجوا الى اذرع وخففوا ويلات الجيش التركي وساعدوه على الهزيمة ، ولما خلت دمشق من حكومة كانت مسائل الامن فيها لاناس من اهل البلد والوجاهة في مقدمتهم احفاد الامير عبد القادر الحسني الجزائري فلم يقع ما يكدّر في النفس والاموال ·

وقبيل سقوط مدينة دمشق عقد الاتراك مجلساً حربياً حضره قواد الجيش من الترك والالمان والنمساويين والمجريين ورجال الشورى الحربي ، فكان يرى القسم الاعظم من المؤتمرين نسف جميع الاماكن الاميرية في دمشق ، وكان الالمان اعدوا لذلك العدة وقال بعض الراوين بل نسف مدينة دمشق ، الا ان القائد النمساوي اقنع رفاقه بان هذا عمل غير معقول ، لان الدمشقيين حاربوا مع الدولة العثمانية وقاموا بكل ما فرض عليهم باخلاص ، فليس من العدل وقد خسر الترك الحرب ان يعاملوا دمشق هذه المعاملة القاسية فربح القضية ، وكانت حجته داحضة · وكان جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير من رأي القائد النمساوي سراً فعاضده واشار الى من استلموا زمام البلد من الوطنيين ان يعلنوا استقلال الشام ، فرفعوا العلم العربي على دار الحكومة ضحوة يوم ٣٠ ايلول وبعد ان هنأ جمال باشا الصغير الحاضرين من الدمشقيين باستقلالهم ، غادر دمشق على سيارته الى رياق ، وكان آخر قائد تركي خرج من عاصمة القطر ، بعد ان ملكها الاتراك اربعمائة واربع عشرة سنة ·

وبعد يومين استدعى من فُوض اليهم الامن في البلد من وجوهها حضرة الامير فيصل بن الملك حسين قائد الجيش العربي ، وكان مرابطاً في الجيدور فدخلها ونزل في دار آل البارودي في القنوات وهناك شرع بتأسيس الحكومة العربية · وكان البريطانيون عهدوا الى اللواء علي رضا باشا الركابي من قواد الجيش التركي ومن أبناء دمشق بان يكون حاكماً عسكرياً لمدن الداخلية دمشق وحلب وما اليهما بالنظر لما ثبت للبريطانيين من حسن بلائه في خدمتهم ، و يقال انه كان أرسل اليهم مصوّر الحصون حوالي دمشق وكان وكل اليه الترك عملها ، وأرسله القائد التركي قبيل

سقوط دمشق ببضعة ايام ليجمع شمل المنهزمين من الجيش التركي في القنيطرة وأعطاه مبلغاً كبيراً من المال ، فادعى ان العربان سلبوه ماله وثيابه ، وانضم الى الجيش الانكليزي ، وهكذا ذهب من دمشق قائداً تركياً وعاد اليها بعد ايام حاكماً عربياً بريطانياً .

وأطال بعض اهالي بعلبك أيديهم على المنهزمين من جند الترك ، وأخذوا سلاحهم وسلبوهم ثيابهم وعتادهم وقتلوا نحو ثلاثين جندياً ، وذل الاتراك في الشام بعد ان كانوا أعزة ، وكان الاتحاديون العلة الاولى في هذه الذلة ، وذهاب هذا الملك العظيم ، وخدم الاتحاديون الدولة بادئ بدء اذ حموا الدستور كما قال كامل باشا لكنهم بتدخلهم في السياسة و بسط سيطرتهم على السلطة الاجرائية ، أصبحوا حكومة في حكومة ، وأضحوا خطراً على الدستور قلنا بل قد صاروا بعدُ خطراً على المملكة كلها ، ضاربوا بها في سوق السياسة الالمانية فخسروها .

* * *

سقوط بيروت والساحل والهدنة

وكانت الطيارات البريطانية يوم ٢٩ ايلول أمطرت قنابلها على مستودعات محطة رياق نقطة اتصال الجنوب بالشمال ونهب ملحم قاسم من اهالي بلاد بعلبك انابير رياق وحوش حالا في جماعة من رجاله ، فنسف الالمان ما بقي من المؤن والعتاد في المستودعات والانابير ، وانهزموا في السكة الحديدية الى الشمال ، ولم يتركوا احداً من الترك معهم فنجوا بانفسهم باستعمال الشدة ، وفي ذاك الحين قذف الالمان في بيروت المؤن والمواد الحربية في البحر ، وأصلاهم الحلفاء ناراً حامية خلال هزيمتهم ، ولم تنفعهم وتنفع الاتراك خطوط الدفاع التي كانوا جعلوها في الجبل المطل على بيروت ، كما لم تنفعهم والترك ايضاً الخطوط التي انشأوها في جبل المانع والمزة وقاسيون المحيطة بدمشق من غربها وجنوبها وشمالها وهكذا لم تصب دمشق وثغرها بيروت باذىً يوم الهزيمة على نحو ما كان العقلاء يحاذرون .

لم يجر استيلاء الحلفاء على بيروت الا يوم ٧ تشرين الاول اي بعد سقوط دمشق بثمانية ايام فأرسلت الحكومة العربية في دمشق برقية الى رئيس بلدية بيروت

بامر الامير فيصل غداة وصوله الى دمشق تأمره فيه برفع العلم العربي ، ووصل الى بيروت من دمشق اللواء شكري باشا الايوبي تحف به شرذمة من الفرسان ، واحتل دار الحكومة ، وبعد اربعة ايام وصل القائد الانكليزي وامر اللواء العربي بالعودة الى دمشق ، وأُنزلت الراية العربية وعين الكولونل بياباب الافرنسي حاكماً على بيروت ، وأخرج الفرنسيس جنداً الى البر بين تصفيق الاهالي ولا سيما الطوائف الغربية ، ثم صدر امر القائد اللنبي الى الامير فيصل ان يحتل جيشه حمص وحماة وحلب ، وكانت الجنود الانكليزية والاسترالية تتقدمه اولاً ، ففتحت حمص يوم ١٤ تشرين الاول ، وحماة يوم ١٦ ودخل الجيش العربي حلب يوم ٢٥ منه مساءً بعد مقاومة خفيفة ومناوشة الفرسان البريطانيين والاستراليين لبقايا الجيش التركي الذي دافع لاشغال الجيش المهاجم حتى يتسنى له الانسحاب من حلب بانتظام وسلام خشية الاسر، و يتم له نقل الموظفين وعيالهم والنقود والاوراق والسجلات ، وطلب الشريف ناصر بن علي قائد الحملة العربية الى قائد الفرقة البريطانية الجنرال مكاندرو ان يمده بسرية من جيشه ليضمها الى فصيلة عربية يمدّ بها السرية التي كان انفذها لاحتلال حلب فرفض الجنرال طلبه وبعد الالحاح عليه صرح بان القائد العام امره ان لا تطأ قدم جندي واحد من الجيش الانكليزي مدينة حلب الا بعد دخول الجيش العربي ورسوخ قدمه بها وهكذا لم يدخل الجيش البريطاني حلب الا بعد دخول الجيش العربي باربع وعشرين ساعة وتأليف الحكومة العربية الموقتة وصرح القائد مكاندرو في خطاب له في احدى المآدب بحضور المستر مارك سايكس والمسيو جورج بيكو بعد ان أثنى على شمم العرب وذكائهم ونبوغهم وشجاعتهم بقوله : « ومما يلفت النظر انهم بفرط بسالتهم واقدامهم سبقونا الى حلب بيوم كامل اربعاً وعشرين ساعة » .

احتل العرب قلعة حلب ودار حكومتها ، وقد فقدوا اربعة وخمسين جندياً ، وأحصوا اربعمائة قتيل تركي في الشوارع . وذعر الترك لانهم أصبحوا بين عدوين الجيش المهاجم والاهالي وانقض زعماء بادية حلب على الجيش التركي عندما كان يدافع على سلامته على أبواب حلب للسلب والنهب . وفي ٢٦ تشرين الاول بدأ الجيش العربي بمهاجمة الاتراك في القسم الشمالي الذي كانوا فيه من المدينة فأجلوهم

وتبعهم فرسان البريطانيين في اليوم التالي فواصلوا الزحف شمالاً الى ان بلغوا المكان الذي تتقاطع فيه سكة حديد بغداد وسكة حديد سورية ، وقد وقعت في قطمة معركة شديدة بين الاتراك والبريطانيين قتل فيها كثير من الفريقين انتهت بانهزام الاتراك الى الشمال والجيوش البريطانية تتأثرهم ، والاتراك يرتكبون الفظائع في القرى المستضعف أهلها ، ووقف البريطانيون على كيلو مترات قليلة من شمالي حلب فأبلغت انكلترا قائد جيوشها بعقد الحلفاء الهدنة مع الاتراك يوم ٣١ تشرين الاول ، وكان الاتراك يتذرعون بالهدنة منذ بدء الهزيمة الكبيرة في فلسطين ، ولكن بريطانيا العظمى سوفت في الامر ريثما أخرجت الترك من الشام كله بالقوة على ما يظهر وبعد الهدنة ظلت شراذم من الجيش التركي في حارم وانطاكية وبيلان واسكندرونة لم تستطع اللحاق بالجيش المنهزم فتفسخت وتخللتها الفوضى فانقلبت الى شبه عصابات تسلب وتنهب وتؤذي الاهلين ، الا انها لم تلبث ان انضمت الى المنهزمين وراء جبال طوروس او دخلت في الطاعة واستسلمت .

ومن شروط الهدنة مع الاتراك تسليم حامية الحجاز وعسير واليمن والشام وما بين النهرين وانسحاب الجيوش من قلقية عدا من يحافظون على الامن ، وكان الفريق فخري باشا محاصراً في المدينة المنورة في خمسة عشر الف جندي ، ولم يسلم الا عندما جاءه الامر من حكومته في الاستانة اي في كانون الاول . وبينا كان الامير فيصل لاول الاحتلال العربي في حلب ، وردت عليه برقية من وزارة خارجية بريطانيا العظمى بواسطة المارشال اللنبي قائد الحملة على الشام تطلب حضوره الى باريز ليشهد مؤتمر الصلح للدفاع عن قضيته ، وعينه جلالة والده ملك الحجاز وكيلاً عنه في مؤتمر فرسايل ، اذ لم تكن له صفة رسمية ثابتة تخوله حضور جلسات المؤتمر بصفة قانونية ، فقدم للمؤتمر مذكرة قال فيها اننا نعتقد ان سورية هذه المقاطعة الصناعية الزراعية التي يقطنها عدد وافر من السكان من طبقات مقيمة هي بلاد كافية متقدمة تقدماً كافياً من الوجهة السياسية يمكنها معه ان نقوم باعباء امورها الداخلية ، ونرى ايضاً ان الاستشارة والمعاونة الاجنبية ستكون عاملاً ثميناً جداً لنمونا القومي ، ونحن مستعدون

لصرف ما يلزم من النقود مقابل هذه المعاونة ، ولا يسعنا ان نفادي مقابلها بجزء من الحرية التي أخذناها قبلاً بانفسنا وبقوة سلاحنا .

* * *

سبب سقوط الشام بايدي الحلفاء — عجب العارفون لسرعة سقوط الشام في أيدي الجيش البريطاني ، وكيف كان تقدم الجيش المهاجم على مقدار سير خيول الفرسان ، ولا عجب فالجيش مهما بلغ عدده اذا كسرت معنوياته ورأى الافراد قادتهم يفرون ويختبئون ويرتعدون يدب فيه الفشل ، ولم يكن الجيش التركي في الشام والحجاز اكثر من مائة وعشرين الفاً ، بقي في المدة الاخيرة منهم مع ليمان ساندرس الالماني خمسون الف جندي على حين كان يلزمه مئتا الف ، وجميع مدافع الترك على اختلاف العيارات لم تتجاوز الثلاثمائة ، ومعظم ما يستندون عليه المدافع النمساوية ثم البطاريات الالمانية ، اما الاعتاد الحربية والقنابل منها بوجه خاص فكانت قليلة جداً عند العثمانيين ، لا يبيحون استعمالها الا عند الضرورة الماسة ، على حين كان البريطانيون يسرفون في إطلاق القنابل والقنابر وأي إسراف . وقد ألقى ليمان ساندرس التبعة على جمال باشا الكبير فقال في تقرير له الى وكيل القائد العام : ان كل ما في سورية من انسان وجماد وحيوان (كذا) قد تسمم من سوء إدارة جمال باشا وان الثبات فيها لا يمكن ابداً .

وفي الحق ان سوء الادارة قضى بان يجوع الجند المحارب ولدى الدولة أنابير الاطعمة الكثيرة لم ينتفع بها . وما كان يظن ان الجند التركي ، وبه يضرب المثل بالطاعة والشجاعة ان يبدأ بالهرب من هذه البلاد ، منذ بدت أمارات الفشل والبؤس ، فكانوا يهربون زرافات في الجبال الى آسيا الصغرى وهم لا يعرفون الطريق وأهل القرى يطعمونهم ويلبسونهم ويهدونهم السبل . على ان الثبات أمام الجيش البريطاني لم يعد فيه ادنى فائدة مادام حلفاؤهم البلغار قد طلبوا الصلح وأمارات الانهزام بدت بجميع أعراضها في الساحة الغربية في أوربا .

وقصارى القول ان هذه الحرب كانت على الشام من أشأم الحروب لانها حاربت وهي تحب السلم ، فكان حربها تبعاً للدولة ، وفقدت ابناءها واموالها وخرب عمرانها .

فقد منها نحو عشر سكانها في المعارك والجوع والامراض أي نحو ثلاثمائة الف رجل على اقل تعديل وخسرت من حيوانها وشجرها وذخائرها وبيوتها وجسورها ما يساوي الملايين من الدنانير ، و يصعب تعويضه الا في السنين الطويلة ، هذا عدا ما قتل من السوريين في الحرب مع الحلفاء فقد تطوع من الشاميين من غير المسلمين مع الحلفاء أكثر من عشرين الفاً منهم خمسة عشر الفاً كانوا في الجيش الاميركاني .

قبض الاتحاديون على زمام السلطنة العثمانية من سنة ١٣٢٦ (١٩٠٨) الى سنة ١٣٣٦ (١٩١٨) ولم تتخللها الا اشهر معدودة خرج الحكم فيها عن يدهم الى الاحزاب الاخرى، وكان من عملهم الاول اعطاء الحرية لامة لم تشترك في طلبها بل تولدت من فكرة بعض الضباط والاحرار ، ثم قضوا على تلك السلطنة العظيمة ، وجنوا جنوناً عظيماً بسياسة تتريك العناصر ، حتى خرجوا عن طور العقل ولم يحبوا أن يسمعوا بالعرب والعربية وحقوق العرب وبلادهم ، فضلاً عن مراعاتهم وهم نصف سكان المملكة ، وفي ارضهم اشرف معاهدها التي كان سلاطين العثمانيين يبسطون بواسطتها نفوذهم المعنوي على العالم الاسلامي . قامر أنور وطلعت وجمال بالمملكة العثمانية كأنها سلعة في السوق فخسروا رأس المال ، وكانوا يعللون آمالهم ان يضيفوا اليه أضعافاً مضاعفة ، و بسقوطهم دب الفشل في الدولة العثمانية نفسها ، و كيف لا يدب وقد خرجت رازحة بديونها ، فاقدة اكثر من نصف مملكتها .

* * *

رأي مؤرخ تركي في انقراض الدولة العثمانية	نسب احد مؤرخي الترك المعاصرين اسباب انقراض الترك العثمانيين الى عوامل كثيرة أهمها في نظره

(١) انقطاع البطولة من المسلمين وقيام الاتراك سداً امام النصرانية وبذلك جلبوا عليهم خصومة اوربا المسيحية جمعاء ، فكانت مطارق المسيحيين تتساقط على رؤوس الاتراك مدة قرون (٢) التغافل عن الوطنية التركية وعدم جعل التركية اساساً لسياسة الدولة فصانوا اديان من وجدوهم من القوميات وابقوا على السنتهم بل ايدوها وناصروها فمنح محمد الفاتح مثلاً الروم امتيازات مذهبية ، فأحدث بذلك دولة في دولة ، وارتكب خطأ فاحشاً ، وعوضاً عن أن يجعلوا البلاد متجانسة صيروها كبرج بابل ، وماقاسته التركية بل هذه الدولة

في هذا السبيل مما لا يستطاع تسطيره ، فان السلجوقيين حافظوا على جميع ما وجدوه في الاناضول من الاديان والقوميات الغريبة ، وجرى العثمانيون على مثالهم فحافظوا على ما وجد باعيانه ، فلم يعرفوا ما هو التمثل ، وكانت هذه العناصر كلما وجدت فرصة تستل من بناء الدولة حجراً وتذهب به ، وبصنعهم صارت الحال الى ما صارت اليه ، وقد اشتهرت ممانعة شيخ الاسلام زنبللي علي افندي لياوزخان (السلطان سليم) لما اراد أن يُسْلِمَ الروم ، فقاومه باسم الدين فبقيت هذه العناصر بحالها لفقدان الدعوة الى القومية التركية ووجود الشريعة . وهذه العناصر فتحت للاجانب سبيل التدخل في شؤون الدولة الداخلية فكانوا السبب في انقراضها ، فلم يهدأْ لهم بال في هذا الشأن ، واجتهدوا في الوصول اليه ، ومن اسباب هذه الذهنية المشؤومة الرأي الاخرق القائل بلزوم الابقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة . وهذا من اساليب العرب وأُصولهم (٣) تدخل الدين في مصالح الحكومة ، وعدم قيام بناء الدولة على ما يجب (٤) جهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم (٥) تربيتهم ابناء الصرب والروس والاولاح والارمن والعرب والارناؤد والكرج والجركس وغيرهم من العناصر ، ثم تسليمهم امور الدولة اليهم بدلاً من ان يأخذوا بايدي ابناء الترك ، وهؤلاء وان لم يكونوا اتراكاً كانوا يبذلون الجهد للقضاء على التركية واسدال الحجاب عليها ، وكان الملوك يعتصمون بالاسلام فأورثوا بذلك التعصب قوة (٦) كانت الكنيسة الروسية الارثوذكسية عاملة على الانتقام لمملكة بيزنطية فبشعور روسيا بهذا الانتقام ، وحرصها على جعل الاتراك روساً في لغتهم ومناحيهم ، كانت تحارب تركيا ابداً وهذا من جملة اسباب الانقراض .

الى ان قال ان الحكومة العثمانية تذرعت بالمعنويات ولم تلتفت الى الماديات ، وهذا من اعظم خطيئات الترك العثمانيين ، وكان عليهم ان يجمعوا الاتراك باسرهم تحت علم واحد ، و بدلاً من ان يجعل العثمانيون حرثهم نسقاً واحداً هبوا كالاسود الظمأَى الى اواسط افريقية يلتمسون السراب عبثاً ، ومن طرف آخر انصرفوا الى اوربا كالطيور التي جعلت قلوبها كالسباع ، فنطحوا برؤوسهم بلا موجب قلاع فينا ثم وقفوا ورؤوسهم دامية . ومن أعظم دواعي الاسف انهم فتحوا سبيل الرواج للسانين

العربي والفارسي فداس هذان العنصران لسانهم الخاص اي التركية وعبث بالامة الفقر والجهل الخ · ونحن نقول ان السبب الاعظم تغافل الدولة عن تقليد الغرب في الماديات والمعنويات فظهر على توالي القرون الفرق بين الخامل والعامل ، وكان تركيب الدولة من عناصر مختلفة ، ومعظمه كان في بدء امرها من غير المسلمين ، من جملة الدواعي في عدم تركيبها تركيباً مزجياً ، خصوصاً ومعظم تلك العناصر ارقى من الترك الاصليين عنصراً واكثر ذكاءً واعظم تاريخاً ، ولا عيش للمتوسط مع الذكي واذا اخضعه لسلطانه بالقوة فالى حين ·

العهد الحديث

«من سنة ١٣٣٦ — ١٣٤٣»

تجزئة الشام بين فرنسا وانكلترا

كانت نتيجة الحرب تجزئة البلاد بين فرنسا و بريطانيا ، فاستقلت هذه بفلسطين وماإليها، واستأثرت فرنسا بالساحل من صور الى ما وراء الاسكندرونة ، وبقيت الداخلية اي الكرك والصلت ومعان وعمان وحوران ودمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب مستقلة بادارة الامير فيصل، والموحون اليه البريطانيون . امااالقيادةالعامة فكانت بايدي البريطانيين ودعيت البلاد كلها بلاد العدو المحتلة عملاً باتفاق سايكس بيكو الذي عقد يوم ٩ ايار ١٩١٦ بشأن تقسيم البلاد العثمانية غير التركية الى مناطق نفوذ ومناطق سيادة ، وانشاء دولة او دول عربية متحدة في البلاد العربية ، و بموجبه تتناول الدول العربية داخلية البلاد السورية وقسماً من العراق . اما دولة سورية العربية فجعل فيها لفرنسا وحدها حق تقديم المستشارين والموظفين الاجانب بناءً على طلب الدولة السورية نفسها ، او دول الاتحاد العربي ، وقد خولت بريطانيا العظمى هذا الحق نفسه في دولة العراق ، ويقضي هذا الاتفاق بان تنشيء فرنسا في ساحل سورية وفي قلقية ، و بريطانيا في جنوب العراق وفي جملتها بغداد ، وفي مواني حيفا وعكا ، نظام الحكم الذي تريدانه ، ونوع الادارة الذي تستحسنانه ، وان تنشأ في فلسطين حكومة دولية .

وسار الحال على ذلك مدة الى ان تم الاتفاق (١٥ ايلول ١٩١٩) بين الحكومتين الافرنسية والانكليزية على ان تخرج بريطانيا عساكرها من الشام ، بشرط ان

لاتدخل العساكر الافرنسية الى المدن الاربع منها اي دمشق وحلب وحمص وحماة ، لان بريطانيا قطعت للعرب عهداً ان تؤلف لهم حكومة عربية ، وهكذا كان فان الجيش البريطاني تراجع الى شرقي الاردن وفلسطين . وعينت بريطانيا على فلسطين السير هربرت صموئيل اسرائيلي انكليزي مفوضاً سامياً ، وعينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً على سورية ولبنان ، ويعمل هذا القائد مستقلاً باسم دولته ، وكان من قبله من الفرنساويين يعملون حتى في لبنان بقيادة اللورداللنبي القائد البريطاني العام .

وجاء في هذا الاتفاق ان بريطانيا وفرنسا تضمنان لسكان ما بين جبال طوروس والخليج العجمي ، استقلالاً واسعاً يأمنون معه على حريتهم ، ويتمكنون من تجديد حضارتهم وكانت بريطانيا وفرنسا نشرتا بلاغاً قالتا فيه ان السبب الذي من اجله حاربت فرنسا وانكلترا في الشرق تلك الحرب التي هاجتها مطامع الالمان ، انما هو تحرير الشعوب التي رزحت قروناً طوالاً تحت مظالم الترك — تحريراً تاماً نهائياً واقامة حكومات وادارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الاهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد اجمعت فرنسا وبريطانيا على ان تؤكدا ذلك بان تعاونا على إقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في الشام والعراق — وهما المنطقتان اللتان اتم الحلفاء تحريرهما — وفي الاراضي التي مازالوا يجاهدون في تحريرها ، وان تساعدا هذه الهيئات وتعترفا بها عندما تؤسس فعلاً ، وليس من غرض فرنسا وبريطانيا ان تنزلا اهالي هذه المناطق على الحكم الذي تريدانه ، ولكن همهما الوحيد ان يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هذه الحكومات والادارات التي يختارها الاهلون من انفسهم ، وان تضمنا لهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ، وتسهلا عليهم ترقية الامور الاقتصادية في البلاد ، باحياء مواهب الاهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ، ووضع حد للخلاف القديم الذي قضت به السياسة التركية ، تلك هي الاغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الاقطار المحررة اه .

* * *

فتنة الارمن واعتداؤهم علي العرب

كانت الدولة العثمانية في السنة الاولى للحرب اجلت من الاناضول الى بلاد الشام عشرات

الالوف من الارمن ، بعد ان أَعملت فيهم السيف وقتلت منهم مئات الالوف صبرا بطرق مختلفة ، لان بعض ابناء جنسهم قطعوا خط الرجعة على الجيش العثماني اثناء حربه في جبهة روسيا ، فصدر امر الحكومة العثمانية ان يقتل الارمن قتلاً عاماً ، يقال انه هلك فيه نحو مليون نسمة منهم ومن لم تستطع الدولة قتلهم بعثت بهم الى بلاد العرب ، رجاءَ ان تجد سبيلاً آخر لقتلهم ، و يقال انالالوف التي جلتها الى ديار الشام كانت توعز من طرف خفي بقتلها ، ولكن العرب أَظهروا من الشمم والكرم ونصرة الضعيف ما فطرت عليه أَخلاقهم فلم يمس الارمن باذى حتى فيأقصى الشرق من الشام حيث تكثر الجهالة والهمجية ٠

ولما دخلت جيوش الحلفاء الشام كان في جملة كتائب فرنسا متطوعة من الارمن فوقع في نفوس بعضهم ان ينتقموا من العرب عما جنته أَيدي الاتراك على ابناء مذهبهم ٠ فقابلوا احسان العرب اليهم بالاساءَة ٠ وبدأُوا ببيروت فأَطلقوا بنادقهم على بعض البيروتيين علناً وقتلوا بعض الوطنيين ثم أَخذوا حيث ينزلون يبدون من امارات الغضب ما يتناول الابرياء مباشرة ، وقد تمردت هذه الكتائب حتى على الحكومة التي قبلتها متطوعة في صفوفها مثل الكتيبة التي تمردت في الاسكندرونة (١٩١٩) حتى اضطرتالقيادة الافرنسية انتنقلها الى أَذنة ، ولم تقف معاملة الارمن للعرب بالسوء عند هذا الحد بل تكونت منها أَسباب لفتنة أَهلية في حلب انتهت بقتلٍ وجرح وأُحكام بالقتل و إِهانة أَعيان البلاد ٠ وقد سأَلنا صديقنا السيد امين غرّيب وكان في الشهباءِ قريباً من هذه الوقعة فتفضل و كتب الينا ما نثبته بنصه ، وقوله ثقة في هذا الباب قال :

كان الجيش الانكليزي محتلاً مدينة حلب وقد وقفت طلائعه في مسلمية وما حولها بسبب الهدنة بين الحلفاء من جهة والدول الوسطى من جهة ثانية ٠ وكانت تركيا بحسب الشروط قد أَخذت تسرح جيشها ، فالجنود العرب كانوا يعودون الى الشام بطريق أَذنة حيث يمرون بالجنود الارمن الذين عسكروا في أَذنة ونواحيها ، وكان هؤلاء الجنود الارمن قادمين مع الحلفاء (وأُرجح ان قيادة امورهم كانت في أَيدي الفرنساويين) فكان كل عربي يمر بالارمن لابساً ثياب الجيش التركي انحل

يهيج منظره العسكري عاطفة النقمة في قلوب الارمن اذ يتذكرون فظائع الاتراك بهم و باهلهم . ولا يعذرونه بانه عربي ، جاهلين الفرق بين هذا و بين التركي فيعاملونه بكل خشونة . و كنا في حلب نستقبل كل يوم عشرات ومئات من اولئك العرب مسرَّحين وهم مهشمو الوجوه مجروحون مضروبون بايدي الارمن ، فكان هؤلاء الجنود ينتشرون في حلب و ينشرون بين أهلها أخبار تعدي الارمن عليهم انتقاماً منهم لما فعل الاتراك بهم ، وكان كثير من هؤلاء الجند من الحلبيين المسلمين ، هذه اول مقدمة لحادثة حلب .

السبب الثاني — كان الانكليز عند دخولهم حلب قد أخذوا الارمن اللاجئين اليها ووضعوهم في أماكن مخصوصة عنوا فيها باعاشتهم و ترتيب امورهم وتحسين حالتهم فرأى الارمن من الانكليز حماة يدفعون عنهم ذلك الشر المستطير والضيم العظيم فصاروا كمن انتقل فجأة من الظلمة الحالكة الى نور كهربائي ساطعة ، وتحولوا حالاً الى جواسيس متطوعين للانكليز ينقلون اليهم الاخبار المتنوعة ، وجرأهم هذا الانقلاب في حالتهم من تعاسة وشقاء الى حرية وإكرام فنشأت فيهم غطرسة غير معهودة لدى الحلبيين فقابلها هؤلاء بالاشمئزاز الطبيعي فازدادت نارها اضطراماً ، وصارت الخشونة في الحديث على رأس كل لسان أرمني تقريباً ، فتكاثرت الحوادث البسيطة في جميع انحاء الشهباء .

السبب الثالث — الورقة المصرية ، فان الانكليز نشروها في حلب عند قدومهم وقد تناقصت في ذلك الحين قيمتها الحقيقية عن قيمتها الاسمية ، وكان الارمن يتناولونها من دوائر الاعاشة الانكليزية ويذهبون لصرفها عند الفوّالين و باعة الحمّص مثلاً ، فكان الارمني يأكل صحن فول بغرشين ثم يبرز للفوال ورقة بليرة و يطلب منه حسم الغرشين واعطاءه الباقي من المال المتجر ، وكانت قيمة الورقة ستين غرشاً ، فكان المسكين يضطر اما الى خسران كل موجودات محله وهي لا تزيد عن اربعين غرشاً واما الي مواجهة شرطي كان غالباً يعطف على خصمه الارمني تنفيذاً للقانون ، وتعددت هذه الحوادث وتنوعت حتى امتلأت منها القلوب وغلت من حرارتها الخواطر .

جاء يوم الجمعة في ٢٨ شباط ١٩١٩ وهو يوم السوق التجارية هناك ، فكان

مسلم يبيع حماراً وقد ساومه عليه ارمني فاختلفا وتصايحا وتشاتما ثم تلاكما فكانت هذه الشرارة التي أشعلت النار في الهشيم . وفي سوق الجمعة وما حولها من الاماكن التي يكثر الارمن فيها حصل التعدّي عليهم وفي أقل من ساعة بلغ عدد القتلى ٥٢ والجرحى مئة ، وكلهم قتلى وجرحى بالمدى والخناجر وسواطير اللحم لا بالرصاص . وقد اجتهد الارمن يومئذٍ اجتهاداً عظيماً كي يشركوا الحكومة العربية في الجناية عليهم بسبب وجود بعض الجنود والشرطة الاهلية في اماكن التعدي وعدم لقيانهم منهم عوناً . على ان هؤلاء الافراد حيث وجدوا انما كانوا يقصرون او يتعدون بدافع التأثر الشخصي المسوق اليهم مع التيار العام بين الاهالي ، لا باوامر من رؤسائهم ، اما عدد قتلى المسلمين الحلبيين فلم يرد ذكره أمامي لكنه بحسب ما سمعت لا يتجاوز العشرة .

وقد أقيمت ٩٢ دعوى على المتهمين بهذه الحوادث ، وآخر ما بلغني ان قد حكم على نحو ثلاثين بالقتل فقتلوا في اوقات مختلفة وصدر الحكم على كثيرين بالسجن . اما الثلاثون عيناً من أعيان حلب فقد قبض عليهم الانكليز يومئذ بتهمة تحريض الاهالي على ذبح الارمن ، لكن هذه التهمة لم تثبت أمام التمحيص الذي اجرته لجنة من المحققين كنت عضواً فيها . ولهذا لم تقع عليهم محاكمة بتاتاً ، لكنهم جعلوا قيد التوقيف مدةً ريثما سكنت الحال ، واذكر ان القائد الانكليزي لما أراد ان يسرحهم القى عليهم كلاماً ملخصه : انكم زعماء والزعيم لا يعذَر على جهله مايدور بين جماعته . اننا لم نجد عليكم ما يوجب لكم عقاباً قانونياً ، لكننا لا نبرئكم من التبعة في وجود أسلحة مع بعض أناس منتمين الى زعامتكم ، فعليكم كلما علمتم بعد الآن ان احد الاهالي يحمل سلاحاً على شخصه او في بيته اعلامنا بامره ، والا فنحن نسبب لكم التحقير حتى لا يبقى في أذهان الناس اثر لاعتقاد الزعامة فيكم » وهلم جرّاً .

* * *

اعمال الحكومة العربية وحكومة الصهيونيين } لما جلت الجيوش البريطانية عن المدن الاربع ، أخذت الحكومة العربية بامارة الامير فيصل بن الحسين تعدّ لها جيشاً من أهل البلاد ، وكانت بريطانيا تؤدي كل شهر لحكومة المدن الاربع مائة وخمسين الف جنيه مصري ، لتستعين بها على تنظيم شؤونها ،

وكان من هذا المبلغ يصرف جزءٌ مهم على بث الدعوة وتنظيم العصابات ، فأخذت بريطانيا تفكر في قطعها ، ولكن الحكومة الوطنية زادت في معدل الجباية والرسوم حتى تسد العجز يوم انقطاع الاعانة الكبرى ، ودخل في السياسة الوطنية شبان متحمسون ، واكثرهم من غير ابناء هذه المنطقة الشرقية منطقة المدن الاربع ، وأصبحت لهم منزلة عند الامير يبرمون وينقضون فأبعدوا عنه كثيراً من رجال الحل والعقد في البلاد ، وأصبح الامير يعمل هو والشبان ، والمستند في ذلك على طائفة من أرباب الفتوة والعوام ، وكثرت الاحزاب السياسية في دمشق حتى زادت على ثمانية ، وكلها بالطبع تريد استقلال الشام ، ومنها مايدعو الى استقلال جميع العرب ، وكثرت المنازع واشتد التنازع بين أبناء الوطن ، وكلهم يريد له الخير ولا يهتدي الى طريق الصواب . لان عمال بريطانيا وفرنسا أخذوا يعملون في الشام ، وكل منهم يريد الاحتفاظ بحقوق دولته وإثبات الارجحية لها وتوطيد اقدامها .

وقد تأفف الناس من السياسة التي جرى عليها الامير فيصل في الاعتماد على الغرباء عن منطقة المدن الاربع ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكريها من دون سبب فأخذوا ينصحون له سراً بالعدول عن هذه الخطة ، وأوفد أعيان الدمشقيين ومفكروهم وفداً يبين له ما يجب السير عليه حرصاً على المصلحة فلم يلتفت الى كلامهم . وقال في بعض مجالسه : ان اولئك الغرباء الذين يعتمد عليهم قد خدموه اكثر من الدمشقيين وان هؤلاء لا مأرب لهم الا المال . على ان الايام أثبتت عكس ما قال ولكن السياسة تسود الابيض وتبيض الاسود .

وكانت المنطقة الساحلية اي التي دعيت باسم المنطقه الغربيـة ، قد أقامت لها حاكماً افرنسياً على لبنان لاول عقد الهدنة ، وأخذت فرنسا تحتل السواحل وما اليهـا الى قلقية ، ولم تمض على ذلك مدة حتى بدأت العصابات التركيـة تسيء الى الجيش الافرنسي في قلقية وشمالي الشام فقتل من الفريقين مئات . وكانت فلسطين منذ رحل الترك عنها في قبضة الجيش البريطاني فلما مضت السنة الاولى للهدنة أصبحت بريطانيا تفي للاسرائيليين الصهيونيين بما وعدهم به وزيرها بلفور مدة الحرب ، اذا عاونوا بريطانيا باموالهم بان تجعل لهم من فلسطين وطناً قومياً . فجعلت اللغة العبرية

لغة رسمية في فلسطين بمثابة العربية والانكليزية ، وأخذت الوظائف تنتقل من ايدي المسلمين والمسيحيين الى ايدي الاسرائيليين ، وخص الاسرائيليون بالرعاية على ما لم يكن لهم به عهد ، فشق ذلك على اهل البلاد الاصليين ، واجتمع المسلمون والمسيحيون وألفوا جمعية تطالب بريطانيا بالعدول عن هذا الوعد البلفوري ، وكثرت الوفود منهم الى اوربا والى مصر مركز القيادة العامة للجيوش البريطانية ، فشعرت بريطانيا بصعوبات حقيقية في ادارة فلسطين (آب ١٩٢١) وحدثت فتنة في يافا والقدس وغيرها من المدن الفلسطينية وتوقفت الاعمال ، والقوم لا عمل لهم الا ارادة بريطانيا على الرجوع عن وعدها للاسرائيليين ، وقد ملأ ابناء فلسطين من غير الاسرائيليين ، وهم ثمانية اضعاف اليهود ، العالم صياحاً وعويلاً ولم ينفس لهم كرب ، ولم يدركوا لهم غاية . وهكذا كان من شبح الصهيونيين ما أخاف المسلمين والمسيحيين ، فاتحدوا اتحاداً صادقاً وجامعتهم في اتحادهم ، وحدة المصلحة على طراز كان فيه شيء من الغرابة .

ولما تركت الحكومة العربية في دمشق وشأنها على اثر انسحاب الجيوش البريطانية الخط الذي عينته معاهدة سايكس بيكو في فلسطين ، رأى الامير فيصل ان يذهب (١ ايلول) الى لندرا وباريز ليفهم ساستها حقيقة اماني الامة السورية ويعرف موقفه من معاهدة بريطانيا وفرنسا المنعقدة في ١ ايلول ١٩١٩ وخلاصتها تسليم قلقية والمنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة اي ساحل سورية الى الادارة الافرنسية ، فسحبت بموجبها الجيوش البريطانية الى ما وراء الخط الوهمي الذي عين الحدود بين المنطقتين المنوه عنه بمعاهدة سايكس بيكو ، اما المنطقة الشرقية وبلاد العدو المحتلة اي المنطقة العربية فتبقى الحكومة بدمشق قابضة على زمامها ، بشرط ان تقدم لها الدولة الافرنسية المساعدة الضرورية التي نصت عليها معاهدة سايكس بيكو .

فلم يستطع رجال بريطانيا ان ينيلوا الامير فيصلاً رغائبه ، وأحالوه على فرنسا لان الانتداب في الشام أصبح لها دون سواها ، وفي فلسطين تم الانتداب لانكلترا وكذلك العراق . فبذل الامير غاية جهده حتى يفهم رجال السياسة في بريطانيا وفرنسا ما هي المسألة السورية ، وبعد الجهد العظيم لم يرَ الا الاتفاق مع رئيس الوزارة الافرنسية المسيو كليمانسو وتعهد له ان يكون مع فرنسا ويرضى بانتدابها على الشام ، واعترفت

فرنسا لاهل الشام على اختلاف مذاهبهم بالاستقلال وحكم أنفسهم بانفسهم ، وذلك في اللائحة التي تم توقيعها بين الحكومة الجمهورية وصاحب السمو الملكي الامير فيصل يوم ١٦ كانون الاول ١٩١٩ واعترف الامير بان السوريين لا يستطيعون في الوقت الحاضر لاختلال النظام الاجتماعي الناشئ عن الاضطهاد التركي والخسائر المحدثة اثناء الحرب ان يحققوا وحدتهم ، وينظموا إدارة الامة دون مشورة ومعاونة أُمة مشاركة ، وطلب باسم الشعب السوري هذه المهمة من فرنسا ، وقد جاء في المادة الخامسة من هذه اللائحة ان صاحب السمو الملكي الامير فيصل يتعهد بان يسهل بالمشاركة مع فرنسا تنظيم دروز حوران بشكل استقلال إداري داخل الدولة السورية ، تكون مجهزة باوسع استقلال يلتئم مع وحدة الدولة ، وجاء في المادة السابعة انه يعترف بالعربية لغة رسمية في الادارة والتدريس وتعلم اللغة الافرنسية كما تعلم لغة مساعدة وبصورة إجبارية ومختارة .

وتعهد الامير بان يقضي على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الافرنسي ، وعلق اعترافه بالانتداب الافرنسي جهاراً على إدماج لبنان في الشام ، ثم عاد الى الشام (٣ شعبان ١٣٣٧ — ايار ١٩١٩) فاستقبلته السلطتان الافرنسية والبريطانية استقبال الملوك ، وكان استقباله في دمشق فخماً للغاية فخطب في بيروت خطبة رضي عنها الفرنساويون ، ولما جاء دمشق خطب خطبة تخالفها إجمالاً وترضي المنادين بالاستقلال التام الناجز ، وبدأ التقلقل في سياسته والتناقض في أقواله ، لانه كان بين عاملين العامل الافرنسي والعامل الانكليزي وهذا أشد وأقوى وان لم يكن ظاهراً للعيان ، وذلك بالنسبة لحالة والده ملك الحجاز ، ولان انكلترا اذا غضبت تنقطع عنه المعاونة المالية الشهرية ، وبدونها يستحيل القيام بشيءٍ من اعمال المقاومة والدعاية .

***

المؤتمر السوري ومبايعته فيصل ملكاً على الشام

وكانت الحكومة العربية بدمشق دعت مؤتمراً تألف من اكثر ابناء الشام ومنها فلسطين ، لوضع القانون الاساسي للبلاد وتعيين شكل لحكومتها ، فقرر اعلان ملكية الامير

فيصل (١٦ جمادى الثانية ١٣٣٨ — ٧ آذار ١٩١٩) فبويع له بالملك على الاصول باسم فيصل الاول ، وأعلن شقيقه الامير عبد الله ملكاً على العراق ، وان يكون ولي عهده اخوه الاصغر الامير زيد ، بايع أهل الحل والعقد الملك الجديد فرحين مغتبطين ، ولم يحضر قنصل بريطانيا حفلة التنصيب وحضرها معتمد فرنسا فرحاً مسروراً ، وكان محبًا للعرب مجاهراً باستقلالهم ، وتألفت وزارة قالت اولاً انها لا تقبل بالانتداب الافرنسي الذي كان قرره على الشام مؤتمر سان ريمو في ١٦ نيسان (١٩٢٠) ٠ فدهش المفكرون لهذا التبدل في السياسة ، وذهبت في ذلك الظنون كل مذهب ، فمن قائل ان الامير نودي به ملكاً بايعاز انكلترا لانها ذكرت خدماته وخدمات والده واخوته لها في الحرب ، فأرادت ان تكافئهم وتقوم بما وعدتهم به ٠ ومن ذاهب الى ان فرنسا رأت ذلك من مصلحتها ، لانها كانت عرضت على الامير ان يقبل بالانتداب الافرنسي على الشام ما عدا فلسطين وهي تدخل له لبنان في سلك ملكه فلم يقبل ٠ ثم تبين بعد ايام ان المسألة ليست منبعثة الا عن آراء الاحزاب لان من اساطينها من كان يذهب منذ حين الى ان اوربا اذا رأت أهل البلاد ينادون بالامير فيصل ملكاً عليهم ، لا تنازعهم في ذلك لان البلاد بلادهم وهم أحرار فيها ٠ ويكون ساسة اوربا أمام امر واقع لايجرأون ان ينقضوا ما أُبرم ! ! وفي ١٨ آذار اي بعد البيعة بعشرة ايام أُبلغت فرنسا وانكلترا الامير فيصلاً بانهما لا تعترفان بصحة قرار المؤتمر السوري الذي بايعه ملكاً ، ودعي الى الحضور الى اوربا لعرض قضيته أمام مجلس عالٍ ، فاعتذر بان أعمال مملكته الجديدة لا تسمح له بمغادرة البلاد ، وأرسل من قبله رسولاً الى لندرا وطلب الى فرنسا وانكلترا معاونتهما ليعترفا له باستقلال الشام ٠ وكان الامير يرى من معتمد فرنسا لدى حكومته عطفاً ومعاونة ، وكذلك من معتمد ايطاليا التي أرسلت الى دمشق قنصلاً برتبة سفير صغير ليحسن تمثيل دولته أمام الدولة السورية الفتية ٠ اما ملكية الملك فيصل فان انكلترا كانت على ما قيل تميل الى الاعتراف بها ولكن فرنسا عارضتها في ذلك ٠

☆ ☆ ☆

العصابات بين الساحل والداخل

واخذت العصابات في المنطقة الشرقية تتحمس فأرسلت الدولة المحتلة في المنطقة الغربية (كانون الثاني سنة ١٩٢٠) كتيبتين من الجند بدلالة بعض نصارى جديدة مرجعيون ودير ميماس والقليعة فضربوا قصر الامير محمود الفاعور امير عرب الفضل في الخصاص من ارض الحولة فلما رأى عرب الفضل انهم المقصودون بالذات حملوا على الجند حملة منكرة كانت فيها لهم الغلبة وقتل كثير من الجند الافرنسي وقليل من العرب وعندئذ هجم نحو مئة وخمسين رجلاً من العرب وارباب القرى المجاورة على جديدة مرجعيون فأحرقوا نحو اربعين داراً ونهبوا بعضها وقتلوا نحو عشرين رجلاً من اهلها . وادعى العرب انه قتل من الجند نحو اربعمائة ولم يقتل منهم سوى سبعة اشخاص وادعى الفرنسيس ان المهاجمين من العرب كانوا نحو اربعة آلاف معهم ٢٥ مدفعاً رشاشاً ومدفعان من مدافع الصحراء وادعى العرب انهم لم يكونوا اقل من ثلاثمائة ولا مدافع لهم ولا رشاشات ولم يكونوا ستة الى واحد كما ادعى الفرنسيس بل كانوا اقلية .

وبعد خمسة اشهر (١٥ حزيران) تكررت هذه الحوادث في عين ابل والقليعة والجديدة نفسها ، وضربت الحكومة المنتدبة على أهل جبل عامل مائتي الف ليرة ذهباً جزاءً عن العصابات في جبلهم . وذكر الريحاني ان الجباة الماهرين جمعوا من هذا الجبل اربعمائة وخمسة وثمانين الف ليرة دفعوا منها تعويضاً لاهل الجديدة خمسين الف ليرة . . .

ووقعت وقائع كثيرة في بلاد بشارة وانطاكية وتل كلخ ، كانت العصابات العامل الاقوى فيها ، كما ان المنطقة الغربية حاولت انشاء عصابات مثل عصابات المنطقة الشرقية لتدفع الشر بالشر ، وارصدت في بعض الروايات ثلثمائة الف ليرة ذهباً لهذه الغاية ولكن عصابات المنطقة الشرقية كان عملها اعظم وافظع واكتفت بها الحكومة المحتلة ولبثت ترتقب نتائج عملها وربما جسمت امرها وهولت فيه اكثر من الحقيقة . ومما حدث وقائع النصيرية والاسماعيلية (نيسان ١٩١٩ — ١٣٣٧) فاغار النصيرية علي الاسماعيلية في جبل الكابية في قرى عقر زيتي وخربة الفرس وجمعه شبه وغيرها

من قرى الاسماعيلية ، وفي ناحيتي الخوابي والقدموس ، وسكانهما اسماعيلية ، فنهبت القدموس على بكرة ابيها وخربت بعض بيوتها ، وكانت المعركة دامية بين الطائفتين قدر بعضهم قتلاها بمائتين وزاد آخرون الى اكثر من ذلك ، فزحفت كتيبة من الجيش الافرنسي على قرية الدويلية فاحرقتها ، واحرقت قريتي كاف الجوع والسلورية ثم سارت الى المريقب مقر الشيخ صالح العلي زعيم الثورة ومن المعتقدين عند النصيرية ، وكان جمع القلوب حوله بدهائه ، وعشائره تبلغ خمسة آلاف ، ومعهم عشائر المتاورة ، فتألفت كتلة مؤلفة من اثني عشر الف مقاتل من اهالي جبال النصيرية وتعاهدت على قتال الجيش الافرنسي ، فاحرق الجيش بيوت الشيخ صالح فهاجم هذا الحملة ودامت المعركة بينهما سبع ساعات ، ثم تراجعت الحملة الى القدموس ومنها الى بانياس وطرسوس .

ومن الاحداث خلال هذه السنة ما وقع في شباط (١٩١٩) بين امراء الاسماعيلية وجماعتهم من الفلاحين من الاختلاف الذي انقلب الى فتنة ، اضطر معها الامراء ان يستنجدوا بمشايخ النصيرية ليعينوهم على ابناء مذهبهم فعاونوهم حتى انتصروا على جماعتهم ، واراد الفلاحون من الاسماعيلية بعد كسرتهم ان ينتقموا لانفسهم فهاجموا قرى النصيرية القريبة من بلادهم ، وارتكبوا انواع القسوة وحرقوا الدور ونبشوا قبور الاولياء من شيعتهم فاضطرت السلطة كما قال الكولونيل نيجر الى التدخل واشتعلت نيران الفتنة ولم تخمد الا في تموز ١٩٢١ قال : وكادت هذه الفتنة تعم الجبل كله ، لو لم يعلن استقلال بلاد النصيرية ، وذكر في تقرير له عن تلك البلاد ان المفاوضات كثرت بين جبال النصيرية وانقرة اي الحكومة التركية ، وانقطعت بعد عقد الصلح بين فرنسا وتركيا ، وان البنادق التي جمعتها السلطة من الجبل بلغت خمسة عشر الفاً منها ماوزر حديث جداً ، ومنها انكليزي ، وكان الشيخ صالح زعيم العلويين يراسل انقرة على الدوام . وذكر الجنرال غورو في احدى خطبه انه اشترك مع عصابات مرجعيون زعيم وخمسة ملازمين و٣١٧ جندياً عربياً ، واعانتهم الحكومة العربية باربع رشاشات ثقيلة وثلاث خفيفة ، وخمسين صندوق ذخيرة ، وان مذابح عين ابل وفتنة العامليين كانت بتحريض من المنطقة الشرقية اي حكومة فيصل في دمشق ، والغالب

ان عمال الافرنسيين كانوا يبالغون في اخبار العصابات ويؤكد الخبيرون ان العسكر العربي ما اشترك مع العصابات اصلاً ولا في وقعة من الوقائع ·

على ان بريطانيا وهي الصديقة المحببة الى حكومة الامير فيصل لم تخل من اعتداء العصابات عليها ، فانها اعتدت على اطراف سمخ في المنطقة البريطانية ، كما اعتدت على قطار في الشمال يحمل عسكراً بريطانيا · ومما جرى خلال تلك الفترة اتفاق بريطانيا وفرنسا اتفاقاً عسكرياً على ان تحتل الثانية بعلبك ورياق وحاصبيا وراشيا فزحفت الجنود الافرنسية لاحتلال هذه الاقضية وكانت من عمل الحكومة العربية الفيصلية ، وبعد مناوشة في وادي جريبان دامت اربع ساعات بين الجيش العربي والجيش الافرنسي دخل هذا بعلبك ، ثم سعى الامير فيصل فاخرجهم من تلك المقاطعة ثانية ·

ترامت اخبار العصابات الى الغرب وتجسمت بالطبع على العادة في نقل الاخبار ، وشكا العقلاء من اهل البلاد وخافوا عاقبة هذه السياسة ، واسفوا لتقاتل ابناء الوطن ولتجدد نعرة الدين ، ولم يكن قناصل الدول غافلين عما يتم وكانوا ينقلون اخبار الوقائع في الجملة على وجه الصحة واخذت العلائق تتوتر بين الامير فيصل وحكومة الانتداب في الساحل ، وكانت فاتحة اعمال الجنرال غورو في الشام ان طلب الى الامير فيصل ان يعطيه البقاع لينقل على الخط الحديدي ما يحتاج اليه الجيش الافرنسي في جهات عينتاب فابى الامير اجابة الطلب ·

* * *

استفتاء البلاد في الدولة التي تريد انتدابها

زينت بريطانيا للحلفاء ارسال وفد يستفتي اهل الشام ولبنان، في الحكومة التي يختارونها للانتداب عليهما فجاء الشام (حزيران ١٩١٩) وفد اميركي منتدب من الدول ليدرس حالة البلاد ويعرف ما يرضيها من الحكومات فبدأ عمله من الجنوب الى الشمال ، وجاء دمشق فاجتمع العلماء والرؤساء والقادة ، فكانت الكلمة في المدن الاربع مجمعة على طلب الاستقلال التام ورفض المعاونة الفرنسية وطلب المساعدة الاميركية او البريطانية فقط ، وكذلك مدن الداخلية ، اما السواحل فالموارنة والكاثوليك طلبوا فرنسا · ويقول الريحاني ان الاقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الافرنسي ولم تشمل هذه الاقلية

الطوائف المسيحية كلها قال : ومما يدعو الى الاسف ان قد كانت اللجنة الاميركية عاملاً آخر من عوامل الشقاق لانها في طريقة الاستفتاء عززت من حيث لا تدري مبدأ العصبيات الدينية والطائفية ٠

وقد قالت هذه اللجنة الاميركية انها زارت ٣٤ مقاطعة من مناطق العرب والانكليز والفرنسيس ، (فلسطين وساحل سورية وداخلها) وان مجموع أهل سورية ٣٢٤٧٫٥٠٠ نسمة منهم ٢٣٦٥٫٠٠٠ من المسلمين و ٥٨٥٫٥٠٠ من المسيحيين و ١٤٠٫٠٠٠ من الدروز و ١١٠٫٠٠٠ من اليهود و ٤٥٠٫٠٠٠ من الطوائف الاخرى ٠ وهو احصاء تقريبي وانه بلغ مجموع العرائض التي تلقتها اللجنة ٩١٠٧٩ عريضة وفي كل واحدة خمسون توقيعاً على الاقل ، وان مطالب الاهالي تنحصر بطلب انشاء مملكة ملكية ديمقراطية دستورية لامركزية ٠

ولما جاءت اللجنة الاميركية الى دمشق ، اصدر المؤتمر السوري قراراً فحواه طلب الاستقلال التام لسورية ، والاحتجاج على المادة الثانية والعشرين من قانون جمعية الامم ، ورفض المساعدة الافرنسية وطلب مساعدة الولايات المتحدة لمدة عشرين سنة وإن لم تقبل هذه فبريطانيا العظمى بنفس هذه الشروط ، وقال : ان العزم معقود على تأسيس حكومة ملكية سورية ديمقراطية يرأسها الامير فيصل ، وتقوم على أسس القومية وتحفظ حقوق الاقلية ٠ وكانت الاكثرية المطلقة في بلاد الحكومة العربية بجانب اميركا في مسألة الانتداب ، وفي الساحل كانت بالطبع بفرنسا ولما كانت اميركا لاتقبل بان تنتدب على بلد لاشأن لها فيه فالانتداب يكون لبريطانيا ، وهذا ما كان يريده الامير فيصل لتكون البلاد العربية كلها ذات انتداب واحد ، وتكون روحها واحدة وهي الروح البريطانية وخالفه فريق صغير فقال بان في تعدد الانتدابات فرجاً للشام يقرب ايام استمتاعها بحريتها ، ناجية من اشراف الدول المنتدبة ، وقد كانت ثقة الامير بالانكليز السكسونيين في القضية السورية عظيمة جداً ٠ كتب الى صاحب هذه الخطط من باريز يوم ٤ آذار ١٩١٩ كتاباً خاصاً جاء فيه : « واذا استثنينا بعض من يريد الاستعمار فجميع اصوات العالم معنا فلا يشق عليكم ما يبلغكم من بعض الجهات

فهي قراقع وضرب دفوف لا خوف منه هذا بشرط ان نكون موجدي الفكر والعمل . الامة الاميركية والبريطانية معنا وسنصل الى ما نحن نتمناه » .

* * *

افكار الامير فيصل والعبث بالسياسة | تجلت افكار الامير فيصل بمجيء اللجنة الاميركية كل التجلي وكانت الدعوة اولاً منذ يوم رفع العلم العربي على البلاد الداخلية ان الاستقلال تام للبلاد العربية تتناول الوحدة الشام والحجاز والعراق وسائر الاقطار العربية في الجزيرة ، ومافتئت الدائرة تضيق حتى اخذوا يدعون الى الشام بحدوده الطبيعية ، ثم سكتوا عن فلسطين لان العلم البريطاني كان يخفق عليها منذ خروج الاتراك منها ، ثم اكتفوا بالدعوة لاستقلال سورية ، ثم تخلوا عن لبنان واكتفوا بالدعوة الى استقلال المدن الاربع وهذه ايضاً لم تسلم لهم على ما يراد لها . وذكر الريحاني انه كان لفيصل رأي في تقسيم البلاد الى المقاطعات وفقاً لحالتها الطبيعية والعقلية والتهذيبية صرح به خصوصاً للوفد اللبناني الذي جاء دمشق يهنئه بعودته من باريز ، وليؤكد له ان فريقاً كبيراً من اللبنانيين يتمنون الانضمام الى سورية . وقد اخذت الحكومة العربية بعد ان نودي بالملك فيصل ملكاً على الشام تزيد في الضرائب واخذت بالتجنيد (كانون الاول ١٩١٩) وجُعل البدل النقدي عن الخدمة العسكرية ثلاثين ليرة عثمانية لستة اشهر حتى زادت وارداتها من ١٬٨٠٠٬٠٠٠ جنيه الى ٢٬٣٠٠٬٠٠٠ وذلك لتستعين بهذا المال على مقاومة فرنسا ، وقد دفع الناس الاموال تخلصاً من الخدمة العسكرية ، وكان في البلاد نقد كثير بقي من الحرب العمومية ، ومنه ما صرفته الحكومتان البريطانية والعربية عقيب الاحتلال ، وكيف يقاوم جيش جديد جيش حكومة كبرى وهو قليل العدد والعُدد ، فيه ظواهر ومظاهر لا حقائق يعول يوم البأس عليها ، حتى باتت المسألة اشبه بالهزل منها بالجد .

لما سألت الوزارة امراء الجيش بحضور الملك فيصل عما عند الجيش العربي من الذخائر والعتاد وفي كم يوم تنفد اذا اشتبكت الحرب ، اجابوا انها تنفد في ساعتين وقد لا تنفد في يومين . فسألتهم الوزارة وعلى ماذا تستندون في الحرب بعد نفاد الذخائر ، فاجاب بعضهم انهم يأملون في اول ملحمة ان يدحروا الجيش

الافرنسي الزاحف ويستولوا على ذخائره وعتاده وعلق بعضهم آماله على الجيش العربي في حلب . وقال آخر : اننا ننسحب الى رؤوس الجبال ونعتمد على مواقفنا الحربية . ونحارب حرباً دفاعية بالمناوشة . ولما سألتهم الوزارة على ماذا تعتمدون في هذه الحرب ، وعلى اي شيء تتكلون في المقاومة ، اجابوا على حماسة الامة ومعاونتها فاجابهم احد الوزراء : دعونا من البحث في المعنويات فانا نقدرها مثلكم واخبرونا عن قوتكم الفعلية المادية وكم يمكنكم المقاومة فقالوا : ست ساعات اذا اشتد لظى الحرب دفعة ، ولم نوفق لدحر العدو وهزيمته .

وهكذا كان الامناء على مصلحة الامة يفكرون ويتناقشون قبيل ان ساقت فرنسا جيشها من الساحل الى الداخل ، اما العامة ومن كان يحمسهم فقدر عن مبلغهم من الخيالات ولا حرج . ولقد قال يوماً احد دعاة العامة ممن اضروا كثيراً بحماستهم قضية الاستقلال في مجلس عقد بدمشق من خاصة القوم ليقرروا الحرب مع فرنسا او الصلح وتأليف عصابات تغزو المنطقة الغربية : « ان فرنسا عجزت بعد الحرب العامة ان ترسل الى الشام بضعة انفار من جيشها ، وليس لديها مال وما تهددنا به من قوتها لا تستطيع انفاذه ، فالاولى ان نتكل على الله ونبدهها بالحرب . » فأجاب صاحب هذه الخطط وكان في الجلسة من جملة المدعوين : « لست من امراء الجيش حتى اعرف ماعنده من القوى المادية ولكنني اعرف فرنسا وقوتها ولا اكون الى المبالغة كثيراً اذا قلت ان فرنسا تستطيع ان تكتسح الشام من جنوبه الى شماله اذا ارسلت علينا عوران حربها الاخيرة فقط ، فيجب علينا ياسادتي ان لانغش انفسنا ونتذرع بالمحال » .

☆ ☆ ☆

حملة فرنسا على المدن الاربع } كانت الحكومة العربية في ايدي العامة والهازلين من امراء جيشها وخطط الاحزاب متضاربة واعضاء كل حزب متعادون متشاكسون بينهم وكان الجنرال غورو المفوض السامي في سورية ولبنان يعزز جيشه في الساحل و يستدعي من فرنسا فرقاً من الجند فارسل يوم ١١ تموز ١٩٢٠ الى الملك فيصل كتاباً مطلعه : بينما كانت السكينة سائدة في سورية اثناء الاحتلال الانكليزي ابتدأ الفساد يوم حلت جيوشنا محل الجيوش البريطانية ولا

يزال آخذاً بازدياد منذ ذاك الوقت . وارسل اليه ايضاً يوم ١٤ تموز ١٩١٩ بلاغاً يدور على خمس مواد وهي ان يعطى لفرنسا الخط الحديدي من رياق الى حلب ، وان تلغي حكومة فيصل القرعة العسكرية التي اخذت تجمعها و يقبل الانتداب الافرنسي والنقود السورية و يضرب على ايدي الاشقياء . فطلب الملك مهلة اربع وعشرين ساعة فانتهت مدة الانذار الاول في ١٨ تموز الساعة الحادية العشرة والنصف تقريباً ثم مددت اربعاً وعشرين ساعة أُخرى ثم مددت ثانية وانتهت يوم ٢٢ تموز . ووقع تأخير في ارسال الجواب بالايجاب اي بقبول مطالب فرنسا وكان الداعي اليه انقطاع الاسلاك البرقية فامر الجنرال غورو جيشه بالمسير الى دمشق بقيادة الجنرال غوابيه يوم ٢١ تموز فسار الى البقاع واحتل رياق واخذ يصعد اكمات مجدل عنجر وكان الجيش العربي اتخذ له حصوناً في تلك الاكمات وكان تجمع بعض عامة دمشق وبضع مئات من البدو عسكر البيشة الحجازي واخذوا يخفون الى مقابلة الجيش الافرنسي الزاحف فوصلوا الى جبال ميسلون وفي يوم ٢٢ تموز خرجت كتيبة عربية من حمص مغيرة على الجند الافرنسي في تل كلخ فانهزمت الكتيبة وأُخذ منها ١٥١ اسيراً بينهم ضابطان وثلاثة مدافع رشاشة .

وفي ٢٢ تموز اعلم الجنرال غورو الملك فيصل انه مستعد ان يتوقف عن الزحف اذا قبل بمواد الانذار و بالشروط التالية (١) تنشر حكومة دمشق منشوراً كتب مسودته الفرنسيس ويبينوا فيه السبب الذي حملهم على اعطاء الاوامر للجنود بالزحف على دمشق والسبب الذي توقف من أجله ذلك الزحف . (٢) الموافقة على بقاء الجنود الافرنسية حتى نهاية الخط الذي وصلوه وقتئذ ليوم تنفيذ جميع شروط الانذار . (٣) تسليم خط السكة الحديدية من رياق الى التكية للفرنسيس وبقاؤه بايديهم في هذه المدة . (٤) سحب جميع الفصائل الشريفية الى شرقي هذا الخط وجعل الدرك تحت رعاية الفرنسيس بالمنطقة التي تم احتلالها . (٥) تتوقف حكومة دمشق عن ارسال المعاونات للعصابات المنظمة التي تعمل في المنطقة الافرنسية . (٦) نزع السلاح من أهالي دمشق ومن الجنود الذين سرحوا . (٧) قبول بعثة افرنسية بدمشق تقف على صورة تنفيذ شروط الانذار ، وترسم خطة للمباشرة بتطبيق الانتداب الافرنسي على الشام .

كان الجيش الافرنسي الزاحف على دمشق مؤلفًا من عشر كتائب مشاة وست كتائب فرسان وسبع بطاريات من الجنود الافرنسية والسنغالية والمراكشية والجزائرية والجيش العربي مؤلفًا من بضعة الوف ولكن على الورق لا بالفعل مشتتًا في حلب وحمص ودمشق وليس له وحدة في القيادة وصدر الامر الى الجند المرابط في حصون المجدل من الجيش العربي بالتسليم وفض الجيش ثم عاد فصدر الامر ثانية الى جماعة الحصون ان يبقوا على المقاومة ولم يكن عددهم يزيد على مئة وعشرين جنديًا واصبح الحكم في دمشق للغوغاء الذين كان يحمسهم زعماؤهم وهجموا على القلعة لاخذ السلاح منها فنهبوا الذخائر فاضطرت الحكومة لحفظ الامن ان تستعمل فيهم القوة فقتل منهم نحو مئتي انسان وبات الناس في كرب عظيم وهكذا حدث تبلبل ، ولم تصل برقية الملك فيصل الى المفوض السامي للجمهورية الافرنسية بقبول شروط فرنسا كلها الا بعد أن تقدم الجيش الافرنسي ووصل الى ميسنون من طريق دير العشائر الى الميماس وقطع خط الرجعة على العرب فدارت الحرب في عقبة الطين بين الجيش الزاحف وبين سرايا الجند العربي وجند البدو والمتطوعة وكان الجيش العربي أربعمائة جندي ومئتين من الهجانة يصحبهم ويتبعهم من الاهالي والعربان عدد يختلف بين الاربعة والخمسة آلاف على رواية الريحاني فقتل في أربع ساعات بقنابل الطيارات وقذائف البنادق والرشاشات كثير من الفريقين وفي مقدمة الوطنيين يوسف بك العظمة ناظر حربية الملك فيصل وكان من اكبر القائلين بالمقاومة وعرف انه غلط في تقدير القوة وسبق السيف العذل بعد صدور امر الملك بفض الجيش وتراجع القوة المنظمة في الجملة فآثر الانتحار في خط النار واستشهد في ساحة الحرب محافظًا على شرفه العسكري ، وقد قتل الجيش الزاحف طائفة من الاهالي الذين حاربوه بعد ان سقطوا أسرى في يده لان قانون الجندية يبيح قتل غير الجند اذا اشتركوا في المعمعة وفي رواية انهم أجهزوا على الجرحى الوطنيين ايضًا وحفروا قبورهم بايديهم قبل ان يرموا بالرصاص . وترك الجيش العربي في ساحة الحرب ١٥ مدفعًا قيل ان بعضها كان معطلاً قبل ان ينصب في اماكنه و٤٠ رشاشًا وذخائر كثيرة . حدثني ثقة زار ساحة ميسنون غداة الوقعة رواية عن ضابط سنغالي برتبة وكيل

ان قتلى الوطنيين في ميسلون من ١٢٠٠ الى ١٥٠٠ وانه قال له الضابط : أُقسم بالله انه لم يلوث احد السنغاليين يده بدم احد من الوطنيين . قال محدثي : ان كل من رآهم مجندلين من قتلى الجيش الداخل هم من السنغاليين ليس فيهم احد من الجنس الابيض .

وعاد المنهزمون من ساحة الحرب فدخل الجيش الافرنسي من الغد الى دمشق (٢٥ تموز) وابلغ رئيس البعثة الافرنسية الكولونيل تولا الملك فيصل ان يغادر دمشق عملاً بقرار حكومة الجمهورية باسرع ما يستطاع في السكة الحديدية الحجازية مع عائلته وبطانته على قطار خاص أعارته اياه فأذعن وعين قبيل رحيله علاء الدين بك الدروبي رئيس وزارة على ان يختار بنفسه من يشاء من الوزراء ، اعطاه تقليد الوزارة قبل سفره ليملأه بالوزراء الذين يختارهم دليل الثقة به . فلم يلبث ان الف وزارته ومن الغد القى خطاباً في دار الحكومة حط فيه من كرامة ولي نعمته الملك فيصل فاشمأز ارباب الوفاء من مصانعته ، ولم يلبث ان أرسل اليه برقية يقول فيها ان السلطة العسكرية تبلغ جلالتكم انها تطلب خروجكم من حوران وانها وضعت تحت امركم قطاراً فان لم تفعلوا ضربت قنابل طياراتها قرى حوران .

سقطت دمشق يوم ٢٤ تموز بعد وقعة ميسلون ، وسقطت حلب يوم ٢٣ بيد الجنرال دي لاموت عقيب مناوشة طفيفة ، وحمص وحماة يوم ٢٨ منه بدون صعوبة فقبضت فرنسا على قياد المدن الاربع وحكم الديوان الحربي الافرنسي على ٥٨ رجلاً من الوطنيين اكثرهم من حاشية الملك وبعضهم من أهالي جبل عامل وتركت الحكومة المنتدبة لهم المجال حتى انهزموا ومنهم من لحق بالملك ومنهم من سار الى شرقي الأُردن او فلسطين او مصر .

لم يسمع للعقلاء رأي قبيل هذه الحوادث ، وكثير منهم كان يكتم فكره لئلا يرمى بضعف الوطنية ، ومنهم من لم يسعهم السكوت فصرحوا وأُوذوا وهجوا، ونال العامة منهم بايعاز الزعماء . ولكن كان اهل المصالح الحقيقية في البلاد يحاذرون التهور ، ويودون لو تتفاهم الحكومة الوطنية مع حكومة الانتداب ، ولطالما نصحوا سراً للقائمين بالدعوة الى الاستقلال ان يترووا في الامر ولا يعمدوا الى المقاومة الفعلية لاعتقادهم

مضرة ذلك وان يجعلوا سلاحهم المناقشة بالحسنى لئلا تنزل فرنسا المدن الاربع حرباً ، وان يقبل مستشاروهم وبعض مطالبهم الخفيفة ، وان يرسل الى باريز ولندرا وفد من ارباب المكانة والمعرفة يطلب شروطاً موافقة للانتداب في الشام وهو واقع لا محالة ، اذ ليس في يد الملك فيصل ولا في يد ابيه الملك حسين عهد وثيق من دول الحلفاء يثبت له او لابيه ملكية الشام ، وغاية ما ربحه الملك حسين من اتحاده مع الحلفاء في الحرب استئثاره بملك الحجاز . وكان الحلفاء وعدوا ان يمنحوا العرب استقلالهم ويساعدونهم على نيله وبهذه الوعود انضم نحو ثمانين الفاً من العرب الى صفوفهم وقاتلوا معهم الاتراك بقيادة الامير فيصل الذي كانوا ينظرون اليه نظرهم الى قائد من قوادهم ، ولكن الحلفاء لما تم لهم الظفر لم يفوا بوعودهم على مايرضي العرب .

بعد وقعة ميسلون المحزنة فصلت إدارة البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا عن احكام المدن الاربع واستقل الجنرال دي لاموت باحكام حلب وديرالزور والاسكندرونة وظلت دمشق وحمص وحماة وحوران دولة ذات وزارة وكانت عجلون والصلت وعمان ومعان جعلت حكومة برأسها سموها حكومة شرقي الأُردن ثم دعيت حكومة الشرق العربي بامارة الامير عبد الله شقيق الملك فيصل وهكذا دخلت المدن الاربع في الانتداب الافرنسي كما دخل الساحل لاول عهد دخول الحلفاء منذ السنة الماضية . وخطب الجنرال غورو في دار الحكومة بدمشق ان فرنسا ما جاءت الى هذه البلاد مستعمرة وستبرونها أمينة على تقاليدها ، راغبة في ان تضمن استقلالكم في عهد الوصاية الحر ، وقال : ان العصاة التي كانت تهاجم الجيش الفرنساوي لم يكونوا من الاشقياء فقط بل كان يقودهم ضباط الجيش النظامي وتمد بالاسلحة والاعتاد والمال ومع ان فتكها لم يكن شديداً في جنود فرنسا فان أضرارها كانت عظيمة على الشعوب الغير المسلمة اذ هدمت بيوتاً ودمرتها تدميراً وأحرقت القرى والدساكر ونهبت الاموال والمواشي وكانت أعمال الحكومة الشريفية الرسمية لا تقل بازاء فرنسا عداءً عن أعمال عصاباتها اه . وكان نشر منشوراً في الطيارات على أهالي سورية قبيل وقعة ميسلون قال فيه : « قيل لكم ان فرنسا ترغب في استعماركم وانها تريد استعبادكم وما ذلك الا افك مبين . ان فرنسا قبلت الانتداب التي عهد به اليها مؤتمر السلم على

سورية وهي عازمة على ان تدع الموظفين الوطنيين يزاولون أشغالهم بشرط ان لا يعملوا بسلطتهم ضدها فيخونون هكذا العهود والمواثيق المقطوعة » ·

* * *

تعريف الانتداب وسياسة الاتراك فيما يتعلق بالشام

أما الانتداب فلفظ حديث يراد به الاشراف او الكفالة وهو لا يخرج عن الحماية الا باعتبارات قليلة · وقد جاء في صك عصبة الامم في تعريفه ان الشعوب التي جعلت تحت حكم الانتداب المحدد والموقت والذي طلبوه من أنفسهم هم مستقلون وان المنتدب عليهم هو المرشد الموقت ريثما يصبحون قادرين على حكم أنفسهم بانفسهم · وقال بوانكاره من ساسة فرنسا : لسنا في الشرق لنضم بلاداً الينا ولا نضع حمايتنا وإنما نحن هناك بموجب انتداب تلقيناه من عصبة الامم تنفيذاً لمعاهدة فرسايل · وقال دبيوي من علماء القضاء في فرنسا : الانتداب انفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى فهو عبارة عن حماية مستترة · وفي المجلة النيابية ان مدة الانتداب تقسم الى ثلاثة أدوار ابتدأ الدور الثاني في ٢٩ ايلول ١٩٢٣ وينتهي في ٢٩ ايلول ١٩٢٦ وهذا الدور يسمونه بدور تنظيم الانتداب وفي انتهاء الدور الثاني يجب ان يكون هناك حكومات وطنية وعندها يدخل الانتداب في دور التصفية وبعد انتهاء الدور الثالث للانتداب تعقد معاهدة تحالف موقتة تقوم مقام النظام الحالي وتحدد باتفاق مشترك حقوق المنتدبين والمنتدب عليهم وسلطتهم وهذا يعد انتهاء للانتداب · ولم يحدد مدة معينة للانتداب في سورية ولبنان وفلسطين ·

جعلت معاهدة صلح فرسايل (١٩١٨) الانتداب ثلاث طبقات فما رُمِزَ له بحرف (ا) هو الانتداب الخفيف مثل انتداب فرنسا في سورية ولبنان والانتداب البريطاني في فلسطين والعراق ويقضي على الدولة المنتدبة على هذه الاقطار ان تقصر مهمتها على تقديم مساعدتها لها · ومن الانتداب ما رمز له بحرف (ب) وهو الانتداب ببعض الشروط · ومنه ما رمز له بحرف (ج) وهو انتداب امة على بلادها تعدها جزءاً من أملاك الدولة المنتدبة · فجعلت الشام من الصنف الاول من الانتداب اي انه اعترف باستعدادها للاستقلال اذا دربت عليه زمناً ·

قال الرئيس ويلسون رئيس جمهورية الولايات المتحدة في شروطه الاربعة عشر : أما الامم الاخرى التي هي تحت النير التركي فيكفل لها كيان آمن ويمكَّن لها حتى ترتقي في استقلالها من غير ممانعة ، وقيل انه كان يضمر ان يجعل الانتداب على الشام للارجنتين وعلى فلسطين للبرتقال ، وانه كان يؤثر ان يقوم بهذه المهمة دول بعيدة عن الوسط الاوربي بعيدة عن المطامع ، لها القدح المعلى في تمدين الشعوب ولكن هذا الرأي يصعب تحقيقه من وجوه . ولم يسمع ان احداً من اهل السلطات الاجنبية في الشام قال ان هذه البلاد غير مستقلة منذ سقطت في ايدي الحلفاء وقال احد كبار رجالهم ان ما عملته فرنسا في الجزائر في القرن الماضي يتعذر جداً عمله في هذا القرن والناس هنا غيرهم هناك ، والاحوال في الشام غير الاحوال في الجزائر . وفي المادة الاولى من نص الميثاق الوطني التركي الذي تبايع الاتراك على العمل به بعد سقوط الدولة العثمانية ما نصه : ان البلاد التي تسكنها اكثرية عربية من بلاد المملكة العثمانية تلك البلاد التي كانت تحتلها الجيوش المحاربة حين عقد الهدنة في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٨ ينبغي ان تعين هي نفسها مصيرها باستفتاء الرأي العام فيها استفتاءً حراً . وهكذا كان كرم الاتراك مع اخوانهم العرب اجازوا لهم ان يعلنوا استقلال الشام عند آخر ساعة من سقوط عاصمة البلاد بيد الحلفاء ورخصوا لهم ان يعينوا مصيرهم بانفسهم في ميثاقهم الوطني وهم يومئذ لم يكونوا يملكون لانفسهم حولاً ولا طولاً ، ولما عُرضت المسائل العثمانية على بساط البحث في مؤتمر لوزان لم يجر ذكر الشام الا من حيث الحدود التي تم الاتفاق عليها بين فرنسا وتركيا بصورة لا تزال سرية عرف منها انه اقتطع جزء عظيم من التخوم الشمالية في الشام أُضيفت الى آسيا الصغرى بدون حق . هذا والاتراك كانوا ظافرين باعدائهم اليونان الذين كانوا استولوا على معظم ولايات ادرنة وازمير وبروصة بعد الحرب العامة فقويت جمهورية تركيا التي جعلت مقرها في انقرة بدلاً من الاستانة وهزمت جيش اليونان شر هزيمة وذلك في شهر آب ١٩٢٢ فاخذ الاتراك من اليونان ٤٥ الف اسير وقتلوا اكثر من ١٥٠ الفاً وقتل الاتراك اليونان في بلادهم ما خلا الاستانة قتلاً عاماً وكان ظفراً داوى به الاتراك جراحهم بعد هزائمهم في الحرب العالمية .

نصت المادة ٩٤ و٩٥ من معاهدة الصلح التي عقدت في مدينة سيفر يوم ١٠ آب ١٩٢٠ بين الحلفاء والمشتركات معهن من الدول وبين الدولة العثمانية ان المتعاقدين على اتفاق بان الشام والعراق وفلسطين عملاً بالفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من الجزء الاول (عهد جمعية الامم) انه معترف بها موقتاً دول مستقلة على شرط ان تبذل لها النصائح والمعونة من دول منتدبة عليها تقودها في ادارتها الى الزمن الذي يستطعن ان يسرن بانفسهن وان المنتدب على فلسطين يكون مسؤولاً عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة بريطانيا يوم ٢ تشرين الثاني ١٩١٧ ووافقت عليه الدول المحالفة بشأن تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على ان لا تمس الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين ولا تمس الحقوق والانظمة السياسية التي يستفيد منها اليهود في كل بلد . وكان الحلفاء تفاوضوا مرات بشأن الشام فرأوا ان تكون فلسطين دولية ولكن الاتراك لما هاجموا ترعة السويس عرف الانكليز مكانة هذا القطر الحربية فرأوا ان يجعلوها منحدراً لمصر و يفصلوا بين عرب الشام وعرب مصر فاخذوا يطالبون بحيفا وعكا ثم بفلسطين كلها وتعهدوا لليهود ان يجعلوها لهم وطناً قومياً وتعهد الحلفاء تعهدات مبهمة بشأن الشام حتى يعاونهم برجاله ونفوذه .

* * *

تأثر الحورانيين بعوامل الفيصليين ومقتل وزيرين وقتل اليهود في فلسطين	غادر الملك فيصل دمشق في زمرة من عماله واكثرهم من السوريين ، وخرج من الجنوب غداة جاء الجيش الفرنساوي من الغرب ،

فاخذت الحكومة المحتلة تجمع السلاح من البادية والحاضرة ، ووضعت على المدن الاربع غرامة حربية قدرها مئتا الف ليرة عثمانية ذهباً ، ولكن اهل حوران لم يخضعوا للامر ومردوا على الحكومة وبث فيهم بعض اعوان الملك فيصل فكر الثورة ، فرأى رئيس الوزارة علاء الدين بك الدروبي ان يذهب بنفسه لالقاء النصائح عليهم مستصحباً معه وزيرين من وزارته احدهما عبد الرحمن بك اليوسف رئيس مجلس الشورى ومن كبار اعيان دمشق ، فهاجمهم بعض الحوارنة في محطة خربة الغزالة وانزلوهم من القطار وقتل الدروبي واليوسف بايد اثيمة ، وقتل بعض ركاب القطار ، مع ان رئيس الوزارة

كان عارفًا بافكار الحوارنة من جهة حكومة دمشق ، ووصمهم لها بالخيانة لانها سلمت البلاد للاجانب . وانجلت وقعة حوران عن جمع غرامة قدرها مئة وعشرون الف ليرة عثمانية ذهبًا منها دية الوزيرين لكل من أسرتهما عشرة آلاف ليرة وحكم على بعض المتهمين بمقتل الوزيرين فزادت حوران لذلك خراباً فوق خرابها .

وفي آب ١٩٢٠ زار المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل الشرق العربي ومما قاله في خطاب له في الصلت : ان الحكومة الفرنسوية كررت تأكيداتها بانها لا تريد ان تتدخل باي شكل كان في شؤون هذه المقاطعة وبما ان الحكومة الفرنسية قد عززت نفوذها في دمشق فقد اصبح من الضروري فصل هذه المقاطعة عن ادارة دمشق . تسألونني عن نوع المساعدة التي تريد انكلترا ان تقدمها لكم فاجيبكم انها لا تريد ان تضمكم الى الادارة الموجودة الآن في فلسطين بل تنشئ لكم ادارة منفردة تساعدكم على ان تحكموا انفسكم بانفسكم ، وسترسل اليكم عدداً قليلاً من الضباط السياسيين ورجال القضاء ذوي الخبرة الواقفين وقوفًا تامًا على اللغة العربية واحوال الشعب العربي فيسكنون البلدان الكبرى في هذه المقاطعة وانتم تعرفون اكثرهم شخصياً وسيساعدونكم في تنظيم الدفاع تجاه اي هجوم خارجي وتنظيم الشرطة لصيانة الامن في الداخل وترقية التجارة وتأييد العدالة وانفاق ما تدفعونه من الضرائب بامانة تامة على مصالحكم واحتياجاتكم و يستشيرونكم في الغاية التي تدفع لاجلها الاموال واصلاح الطرق وترميمها وانشاء المدارس وتقديم المعاونات الصحية . الى ان قال : وستكون التعليمات العمومية التي ترسلها الحكومة البريطانية الى موظفيها هنا مبنية على قاعدة مساعدة اهالي البلاد ليحكموا انفسهم بانفسهم، فمراعاة هذه المبادئ المؤسسة على العدل والشرف اللذين تمتاز بهما الادارة البريطانية في جميع انحاء العالم هي الاسس الصالحة لكل حكومة صالحة .. اه . » وفي كتاب «عامان في عمان» : وقد قوبل هذا البيان من اهالي المنطقة بفتور دل عليه ان زعماءهم جمدوا بعد ان سمعوه جمود الحيرة لا يدرون اشر أريد بهم ام اراد بهم ربهم رشداً ... ولما سئلوا عما يجول في نفوسهم وقف احدهم وقال : يظهر ان اوربا عدلت عن فكرة اعتبار الكفاآت في الامم ورجعت الى القرعة فهي بينما تمنع سورية ولبنان وفلسطين الاستقلال تعترف به لشرقي الاردن ...!

واشتد الهياج بين الصهيونيين واعدائهم من سكان البلاد في حيفا في نيسان ١٩٢٠ ونشبت الفتنة في القدس سفكت فيها الدماء ونهبت مخازن اليهود ولولا مهارة الادارة البريطانية لامتد لهيب العداء الى سائر مدن فلسطين لما ملئت به النفوس من الغيظ من الصهيونية والصهيونيين ٠

* * *

استقلال لبنان وحكومة العلويين ومجلس فلسطين ودولة شرقي الاردن ودولة جبل الدروز وخراب البلاد وتقسيمها

وفي اول ايلول ١٩٢٠ أعلن استقلال لبنان في حرج بيروت بحضور الجنرال غورو وأعيان البلاد ، وأضيف الى لبنان الاصلي الذي عرف بحدوده بعد سنة الستين جبل عامل ووادي التيم والبقاع وبعلبك وطرابلس وعكار والحصن وصافيتا فاحتج فريق من أهالي بيروت وطرابلس مع بقية البلدان المنضمة من الداخل الى متصرفية جبل لبنان قائلين ان هذا الضم جرى بدون رضا الاهالي وبغير استفتاء ، وان ذلك مخالف لتصريحات وزارة الخارجية في فرنسا و بريطانيا القائلة بان البلاد التي انسلخت عن الدولة العثمانية مستقلة وللاهالي الحرية التامة في تقرير مصيرهم وتأسيس حكوماتهم الوطنية ، وان الحلفاء لا يرغمون سكان تلك البلاد على قبول نظام معين ٠

وجعل للبنان حاكم فرنساوي ، لان فرنسا رأت ان الاختلاف بين طوائفه لا يمكن معه ارضاؤهم كلهم ، اذا عين أحد أبناء الطوائف الاخرى حاكماً ، فعادت نغمة الطائفية الى الجبل بصورة أشد مما كانت على عهد الترك وقسمت مقاعد الحكم على الطوائف ، وأُقيم للبنان الذي دعي لبنان الكبير مجلس نيابي تنفذ المفوضية العليا للجمهورية الافرنسية في سورية ولبنان ما تراه صالحاً من مقرراته ، وقسم لبنان الى ألوية وأقضية يدير شؤونها موظفون وطنيون و يدير الحكومة المركزية في بيروت عدة مديرين او وكلاء او وزراء يتقلد زمامها الوطنيون ، ولكل مدير منهم مستشار افرنسي ٠ وتمت للموارنة في لبنان أُمنيتهم التي طالما نشدوها من حكم فرنسا لهم ، ونجت الشام من تهديد بطريركهم وكانت انتدبته طائفته الى مؤتمر الصلح لينظر في استقلال

لبنان ، فقال وقد هُدد بان لبنان يبقى محصوراً في حدوده القديمة اذا أصر على الرفض : « اننا نفضل الموت جوعاً في ظل صخورنا على ان نكون تابعين لدمشق » .

واقتطعت بلاد النصيرية وأصبح يقال لها بلاد العلويين جعلت حاضرتها اللاذقية وحاكمها فرنساوي و إدارتها اشبه بانتداب الدرجة الثانية ممارمز له بحرف (ب) وكان تقسيم البلاد على هذا المنوال مبدأً خرابها الاقتصادي بل من أهم العوامل فيه فاضطرت الى تأليف عدة وزارات ومجالس و إدارات ومنها ما لا عمل له في الواقع ونفس الامر الا قبض الرواتب من مال المكلفين ، وشوهد الاسراف في اموال الحكومة على مقياس واسع وقد حاولت الحكومات غير مرة ان تقتصد وما برحت الاموال تصرف في الامور المستهلكة اكثر من الامور المستحصلة ولا نسبة بين رواتب كبار الموظفين وصغارهم .

وفي تشرين الاول ١٩٢٠ انتخب في فلسطين مجلس شورى مؤلف من عشرين عضواً نصفهم من رجال الحكومة والنصف الآخر نصبتهم الحكومة ، وهم اربعة من المسلمين وثلاثة من المسيحيين وثلاثة من الاسرائيليين ، ووظيفة هذا المجلس استشارية فقط . فقامت فلسطين مسلموها ومسيحيوها محتجين على هذا المجلس . وفي تشرين الثاني ١٩٢٠ قدم الى عمان الامير عبد الله بن الملك حسين ملك الحجاز لاسترجاع دمشق من فرنسا و إرجاعها الى السلطة الشريفية فأرضته بريطانيا ان جعلته اميراً على بلاد عبر الاردن على ان لا يمس أراضي الانتداب الافرنسي باذى ، وقد حدثت بعض حوادث على التخوم بين حوران والبلقاء وتألفت هناك عصابات لغزو الاراضي التي جعلت تحت الانتداب الافرنسي وبعد ان قصدت احدى العصابات اغتيال الجنرال غورو المفوض السامي في ٢٣ حزيران ١٩٢١ على ٤٠ كيلومتراً من دمشق في طريق القنيطرة ، ولم ينالوه باذى بل قتل أحد ضباطه ، طوي بساط العصابات والمؤامرات وكان امر هذه العصابات مما دبر في الشرق العربي .

وفي الخامس والعشرين من حزيران (١٩٢١) أعلن استقلال جبل الدروز وكان من قبل بين عاملين العامل البريطاني والعامل الافرنسي فلما جاء الجيش الافرنسي الى دمشق كان من أهل الجبل من يرحبون بالفرنسايين فنالوا إستقلالهم (٥ نيسان ١٩٢١)

وأصبحت بلادهم وهي نحو مائة وخمس عشرة قرية دولة برأسها جعلت السويداء عاصمتها ، ونصب على الجبل امير من أهله ومستشار فرنساوي ، فانتزع ايضاً من حكومة دمشق التي جعلت دولة لها حاكم ، وذلك بعد اربعة أشهر من استلام الفرنسيس زمام الامر في دمشق ، وجعل لهذه الدولة مديرون بدلاً من وزراء وجعل لكل من دولة لبنان الكبير ودولة العلويين ودولة حلب ودولة دمشق ودولة جبل الدروز الواقعة تحت الانتداب الافرنسي علم خاص لكل دولة منها ؛ يحمل في مطاويه العلم الافرنسي المثلث الالوان ، كما جعل لفلسطين علم آخر واقتصر شرقي الاردن على العلم العربي ، وبذلك أصبحت الشام سبع دول وكانت على آخر عهد الترك ثلاث ولايات (دمشق وبيروت وحلب) وثلاثة ألوية مستقلة (القدس — لبنان — ديرالزور) .

✲ ✲ ✲

متاعب لبريطانيا وفرنسا واعتداآت

وفي شباط ١٩٢١ عقد مؤتمر في حيفا مؤلف من رجال فلسطين مسلميهم ومسيحييهم نظم احتجاجات على وعد بلفور وطلب تأليف حكومة وطنية وانتخاب جمعية تأسيسية ينتخبها السكان العرب . وفي ١٥ آذار خرج الزعيم السيد فؤاد سليم من اربد في مائة وعشرين فارساً للقبض على بعض الاشقياء من عرب الشقيرات وعلى كليب الشريدي وولده عبد الله وابن أخيه رشيد الجروان الشريدي من زعماء الكورة في جبال عجلون فأحاطت بالقوة العسكرية أهالي ست قرى بقيادة كليب الشريدي وابنه وساعدتهم الغابات ووعورة الاراضي وسقط ربع الجنود بين قتيل وجريح وفقد ثلث الخيل ثم استسلم الباقون للعرب الثائرين الذين سلبوا الضباط والعسكر عتادهم واسلحتهم والبستهم . قال الزعيم المشار اليه : وقد توفقنا بعد سنتين من هذه الحادثة المشؤومة للتغلب على أهل الكورة والاقتصاص منهم فقضينا على روح الثورة وأرغمناهم على احترام الحكومة الوطنية وخسرت الكورة في ثورتها الثانية خسائر كبيرة وذل اهلها بعد ان كادت روح التمرد التي نشرها كليب الشريدي في رجال قومه ان تنفخ في عجلون ايضاً وفي سائر الجزء الشمالي من الشرق العربي روحاً من التصدي للحكومة والاستخفاف بها .

والقى المندوب السامي في فلسطين في ١٨ نيسان ١٩٢١ خطاباً في عمان حاضرة الشرق العربي ومما قال فيه ان الحكومة البريطانية تقدر الخدمات التي قدمتها جيوش العرب في الحرب وترغب في ان تتوطد في زمن السلم دعائم التحالف الذي بني في خلال الحرب، وقال : يساعد الضباط البريطانيون منذ شهر آب الماضي في إدارة شؤون البلاد الواقعة وراء نهر الاردن وسيواصلون العمل بصفتهم مستشارين بالنيابة عني للامير عبد الله وموظفيه في انحاء البلاد المختلفة . وقال ان الضباط البريطانيين الذين يقومون بهذه المهمة في جميع انحاء المنطقة يعطفون على السكان وعلى آداب اللغة العربية وان الحكومة البريطانية عولت على ان لا تكون البلدان الواقعة فيما وراء نهر الاردن مركزاً للعداء سواء ضد فلسطين او سورية .

وفي أول أيار ١٩٢١ نشبت فتنة بين الصهيونيين وأبناء البلاد في يافا انجلت عن قتل ٤٨ رجلاً من العرب وجرح ٧٣ منهم وقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ .

وفي سنة ١٩٢١ دخل الاتراك الى عينتاب وأخرجوا الكتائب الافرنسية منها بعد حرب شديدة وقتل منها أناس و باغت عربان الزور الفرقة الافرنسية والسورية وقتلوا بعض ضباطها فحلّ بهم العقاب، فتخلت فرنسا عن قلقية باجمعها وانحصرت قوتها بالشام من حدود كليس في الشمال، وكانت العصابات مؤلفة من بعض الاشداء من أبناء البلاد في جهات حارم و كفر تخارين وادلب وجبل الزاوية والمعرة وصهيون تقاوم الجيش الافرنسي وجرت بينها وبينه معارك هائلة قتل فيها كثير من الفريقين وكان بعض رؤساء تلك العصابات من الاتراك .

وقد فقدت فرنسا من جندها هناك وهنا بضعة الوف وقال الجنرال و يغاند المفوض السامي للجمهورية الافرنسية في حفلة ازاحة الستار عن النصب التذكاري الذي أُقيم لقتلى جيش الشرق في بيروت سلخ ذي القعدة ١٣٤٢ (حزيران ١٩٢٤) : بعد الهدنة سكت المدفع في اوربا الا في الشام وكانت الامهات الافرنسيات يعتقدن بانهن سيشاهدن اولادهن الى جنبهن فاضطرت فرنسا الى ارسال اولادها الى ساحات القتال في مرعش واورفة وميسلون حيث تم تحرير سورية بقيادة سلفي الجنرال غورو وقد بلغ عدد القتلى نحو تسعة آلاف و ٢٥٠ ضابطاً فيمكن ان تذكروا اولاد كم

واولاد اولاد كم بذلك اه · ولم يقتل هـذا العدد في ارض الشام بل معظم من قتل في قيلقية ·

* * *

توحيد حكومات سورية وعدم رضى الاهلين } لم يرتض اهل الداخل وفريق عظيم من سكان الساحل هذا التمزيق الذي حلَّ بالشام ، فكثر الناقمون والناقدون ، وزعم بعض ولاة الامر من المنتدبين ان هذا التقسيم كان برضى الاهلين ونزلت فرنسا على رغائبهم وبعد التجربة الاولى رأَت المفوضية العليا ان تعيد المدن الاربع الى جمعها بعد الشتات فاعلن الجنرال غورو في اليوم العشرين من حزيران ١٩٢١ في دمشق اساس الوحدة السورية بانشاء مجلس اتحادي لها مؤلف من دول العلويين وحلب ودمشق فقط ، على ان يكون اساساً للوحدة والقى خطاباً مثل خطاب دمشق في مدينة حلب يوم ٢٨ منه بحضور مندوبي الدول الثلاث ومما قال فيه : وكان العمل الاول الذي قامت به فرنسا لتوطيد اتحاد كم وحريتكم الوطنية تأسيس الحكومات المستقلة وكانت الغاية من ذلك مراعات النزعات الخاصة ووضعها في قالب يتألف منه مجموع متناسب الاجزاء · قال ولم يفتني قط وجوب إحكام الصلات بين هذه الدول التي ينبغي ان يؤلفِ مجموعها سورية المستقلة اي سورية التي طالما رغبت فرنسا في انشائها قال : والواجب اولاً تنظيم هذه الدول ومنحها قسطاً اوفر من الحرية ، وتأسيس صلة اتحاد بينها ، ولا اذكر لبنان بين دول الاتحاد لان تقاليده الخصوصية تقضي عليه بالسعي على انفراد وراء التقدم وبمشاركة قليلة في الاتحاد السوري لا تتناول الا الوجهة الاقتصادية دون سواها ، الى ان يقرر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الاتحاد ·

وبديءَ من قابل بجعل بعض فروع الادارة اتحادية كالبريد والبرق والعدلية والمعارف العالية والتمليك وجعل للاتحاد مجلس مؤلف من خمسة عشر عضواً خمسة عن كل دولة ، واجتمع المجلس في حلب في السنة الاولى وفي التالية نقل مقره الى دمشق بصورة دائمة ، ويختار هؤلاء عضواً رئيساً من بينهم فعين لهذا الغرض السيد صبحي بركات الخالدي واختار لدوائر الاتحاد مع العرب جماعة من الاتراك والارمن والروم فتأثر الوطنيون لذلك لان اللغة العربية لغة البلاد لم تُرْعَ لها حقوقها

وحرم الوظائف بعض اهل البلاد وتولاها بعض من ليس لهم بهذه الارض صلة ، ولا بالعرب والعربية قرابة ٠ وفي خريف ١٩٢٢ ذهب الى انكلترا الامير عبد الله بن الحسين امير شرقي الاردن وفي ١٧ ايار عزمت بريطانيا العظمى ان تعترف باستقلال بلاده الواقعة في عبر الاردن وان تجعل لها حكومة دستورية وتعقد معه اتفاقاً على ان تتعهد حكومته بالاعتراف بالحقوق الدولية ٠ وانشأت حكومة الشرق العربي تمنح لقب باشا لمن تريد تشريفهم او تأليف قلوبهم من المشايخ وغيرهم والتف حول امير تلك البلاد بعض جماعات من الوطنيين الذين كانوا اشتغلوا مع اخيه الملك فيصل في دمشق ولم يلبثوا ان انفضوا من حوله بطرق اتخذتها حكومته ، وكان يتقاضى لها معاونة سنوية من بريطانيا ١٥٠ الف جنيه ولنفقاته الخاصة ٣٥ الفاً من الجنيهات ثم انزلت المعاونة الى ٨٠ الفاً ومخصصاته الى عشرين الفاً ٠

وفي صيف سنة ١٩٢٣ كثر اعتداء دروز الشوف على جيرانهم المسيحيين في لبنان واغتيل بعضهم ، فقابلهم المعتدى عليهم بالمثل ، واختل الامن في اواسط لبنان وكاد يتعدى الى بلاد بعلبك ، فعنيت حكومة الانتداب بجمع السلاح من الايدي وعاقبت الفاعلين ، ووضعت غرامات على بعض القرى التي خالفت اوامر الحكومة فاستقامت الامور ٠

وفي سنة ١٩٢٣ و١٩٢٤ كثر اغلاق الحوانيت في دمشق وحمص وحماة احتجاجاً على كثرة الضرائب ، وتقريب بعض اشخاص من الحكومة المنتدبة يوسعون مجال الخلف بين المنتدبين والمنتدب عليهم ، ويسودون الناس بوشاياتهم للاحتفاظ بكراسيهم واغلقت دمشق خمسة عشر يوماً متتابعة احتجاجاً صامتاً على انتخاب اعضاء المجلس التمثيلي بالاكراه واستعمال الحكومة وسائط الارهاب في المدن والقرى ٠

***

صك الانتداب وموافقة الدول الكبرى عليه واشكال جديدة من الادارة

وجاء في معاهدة لوزان (٣٠ شباط و٢٤ تموز ١٩٢٣) التي عقدت بين الدول وبين تركيا ان الحدود التركية السورية قد ذكرت في المادة الثامنة من الوفاق الافرنسي التركي المؤرخ بيوم عشرين تشرين

الاول ١٩٢١ — والغالب ان هذا الاتفاق المعروف باتفاق فرانكلين بويون ولم ينشر للناس خلافاً لما ادعته السياسة في العهد الحديث بعد الحرب من انه لا تعقد بين الدول محالفات سرية بعد الآن — واثبت مجلس جمعية الامم في جلسته المنعقدة يوم ٢٩ ايلول ١٩٢٣ ان الانتداب على الشام (سورية ولبنان) والانتداب على فلسطين قد دخلا كلاهما في دور التنفيذ ، وقد جاء في المادة الاولى من هذا الصك ان الدولة المنتدبة تضع نظاماً اساسياً لسورية ولبنان في خلال ثلاث سنوات تبتدئ من تاريخ الشروع بتطبيق الانتداب ، و يعد هذا النظام الاساسي بالاتفاق مع السلطات الوطنية ، و ينظر فيه بعين الاعتبار الى حقوق جميع الاهلين في الاراضي المذكورة والى مصالحهم وامانيهم ، و ينص فيه على اتخاذ التدابير التي من شأنها ان تسهل لسورية ولبنان سبيل النمو والتقدم المتوالي كدولتين مستقلتين ، وتسير ادارة سورية ولبنان طبقاً لروح هذا الانتداب ريثما يشرع في تنفيذ النظام الاساسي ، وتؤيد الدولة المنتدبة الاستقلال الاداري المحلي فيهما ، بكل ما تسمح به الاحوال . وجاء في المادة الثانية انه يمكن للدولة المنتدبة ان تبقي جنودها في الاراضي المار ذكرها لاجل الدفاع عنها ، و يمكنها ايضاً الى ان ينفذ النظام الاساسي و يعاد الامن الى نصابه ان تنظم القوات المحلية اللازمة « المعروفة بالميليس » للدفاع عن تلك الاراضي ، وان تستخدمها في هذا السبيل وفي حفظ النظام ، ولا يجند افراد القوات المذكورة الا من اهل الاراضي المذكورة ، وبعد ذلك تصبح تلك القوات تابعة للسلطة المحلية مع الاحتفاظ بما يجب ان يبقى للدولة المنتدبة من حق السلطة والمراقبة عليها ، ولا يجوز استخدامها لغايات غير التي تقدم ذكرها الا بترخيص من الدول المنتدبة . وما من شيء يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في الانفاق على القوة العسكرية النازلة في اراضيها من قوات الدولة المنتدبة ، ويحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستخدم الموانى والخطوط الحديدية ووسائل المواصلات في سورية ولبنان لنقل جنودها وجميع المعدات والمؤن ومواد الوقود . وفي المادة الثامنة ان الدولة المنتدبة تضمن للجميع حرية الضمير التامة كما تضمن حرية القيام بجميع الشعائر الدينية التي تتفق مع النظام العام والآداب ولا يجوز ان يتبع شيء من التمييز وانتفاء المساواة بين سكان سورية ولبنان بسبب اختلاف الجنس او الدين او اللغة

وتقوم الدولة بانماء التعليم العام باللغات الوطنية الشائعة في اراضي سورية ولبنان .

وعقد مؤتمر في الكويت في خريف سنة ١٩٢٣ لتسوية الحدود بين سلطنة نجد والعراق وشرق الأُردن والحجاز وكان مؤلفًا من مندوب من كل هذه الدول مع مراقب انكليزي للسهر على مصالح بريطانيا ثم تأجل اجتماعه في كانون الاول ٩٢٣ واستؤنف انعقاده في شباط سنة ١٩٢٤ فادى الموقف الذي وقفه الملك حسين صاحب الحجاز يومئذ الى فشل المفاوضات. وصادقت الولايات المتحدة (١٩٢٤ — ١٣٤٣) على صك الانتداب الافرنسي في سورية ولبنان الذي وضع موضع التنفيذ منذ ٢٠ ايلول ١٩٢٣ وقد جاء في المادة الخامسة منه للاميركان الحرية التامة في انشاء المعاهد والصروح والملاجيء العلمية والدينية والفنية في جميع اراضي الانتداب الافرنسي مع التعليم باللغة الانكليزية ولم تعترف الولايات المتحدة بالانتداب البريطاني الا في اواخر شباط ١٩٢٥ مشترطة ان يكون للرعايا الاميركيين مثل الحقوق التي للرعايا الانكليز .

طبقت مواد الاتحاد في حلب ودمشق بعض الشيء مع وجود الدولتين دولة حلب ودولة دمشق ، اما دولة العلويين فلم تتحد بغير الامور العدلية . وفي يوم ٢٦ حزيران ١٩٢٤ (٤ ذي القعدة ١٣٤٢) أعلن المفوض السامي الجنرال ويغاند في حديقة الامة بدمشق الوحدة السورية وتأليف الدولة العربية السورية من حكومتي حلب ودمشق فقط ، فخرجت دولة العلويين ودولة جبل الدروز كما خرجت دولة لبنان الكبير بالطبع من باب الوحدة ، فأصبح بذلك عدد دول الشام ستًا بدلا من سبع اي ان المدن الاربع عادت فألفت حكومة واحدة على نحو ما كانت زمن الحكومة الفيصلية ولكن بتشذيب بعض أطرافها اذ نزع من جسمها دولتا الشرق العربي وجبل الدروز وخطب القائد قائلاً : ان هذه الدولة الجديدة الفخورة بماضٍ يحوي أعظم ما نظره الشرق والتي ستضم اليها أهم مدن الاسلام التي كانت منبع الترقي الفكري في جميع الازمان ... ان مثل هذه الدولة تقدر ويجب ان تكون في الشرق الاوسط مركزًا مشعًا وجذاباً . والسلطة التشريعية تكون بيد مجلس نيابي والسلطة الاجرائية تسلم الى شخص يدعى رئيس الحكومة السورية بالانتخاب ويكون له مجلس وزراء يجتمعون

تحت رئاسته يكون كل واحد من هؤلاء الوزراء مسؤولاً شخصياً عن دائرته أمام مجلس الامة ·

وفي حزيران ١٩٢٤ (ذي القعدة ١٣٤٢) القى أحد رجال بريطانيا بياناً قال فيه : ان مهمة بريطانيا في فلسطين هي انشاء وطن قومي لليهود من ناحية وصيانة مصالح السكان غير اليهود من ناحية أُخرى ، وقد سعت بريطانيا لمعاملة السكان على قدم المساواة ، ولكنها صادفت متاعب كثيرة بالنظر لعدم تجانسهم ، وانشأت إدارتين مختلفتين احداهما في غربي الاردن حيث يوجد الوطن القومي لليهود والآخر في شرقي الاردن حيث للعرب الاغلبية ، ولكنها تسعى دائماً الى التوفيق بين مصالح اليهود والمسلمين ·

* * *

غزوة النجديين عبر الاردن واستيلاؤهم على مكة

حكومة عبر الاردن اوشرقي الاردن اوالشرق العربي هي بمثابة حاجز يمنع فلسطين من اعتداء البادية ، وقد كثر اعتداء عرب البلقاء وما اليها مثل عشائر الحويطات وبني عطية على تجار نجد يسلبونهم بضائعهم وجمالهم ، وشكت حكومة السلطان عبد العزيز بن سعود صاحب نجد الى حكومتي الحجاز والشرق العربي فلم يسمع لها شكوى ، فأرسل صاحب نجد نحو الف وخمسمائة مقاتل من رجاله في ١٠ آب ١٩٢٢ وهاجموا ام العمد في البلقاء ، وقتلوا أهل الطنيب وأعملوا السيف والنار في عرب بني صخر واشترك الأديات من عرب البلقاء في قتال النجديين ، وتلاحقت أفخاذ بني صخر ورجالهم من العيسى والزبن والخريشة ، وجاء بعض بني حميدة النازلين الى الجنوب الشرقي من مادبا حتى وادي الموجب ، واشتركوا في رد هجمات الوهابيين أهل نجد فازاحوهم الى بئر عمري وهناك تشردوا في الاودية والتلال ، وقيل انه قتل منهم نحو ثلثمائة وقتل من اهل الشرق العربي كثيرون وقد تأثرت الدبابات الانكليزية الوهابيين الى عمري فعادوا وجنودها يزعمون انهم لم يهتدوا الى الطريق · وجاء النجديون ثانية بقيادة درزي بن دغمي السمير زعيم الرولة المتدينة ، وأغاروا على عرب الحويطات في وادي موسى ، وعلى أطراف معان ، ونشبت معركة أبلى فيها الحويطات

بلاء حسناً وعاونهم بعض بني عطية النازلين حوالى معــان الى تبوك ، وجاء النجديون في ١٤ المحرم ١٣٤٣ الى الكاف (قريات الملح) الواقعة على الحدود بين نجد والشام في ٢٢٠٠ ٢٦٠٠ مقاتل كما قدرتهم حكومة الشرق العربي واستولوا في طريقهم على الكاف واخذوا حاميتها وهي أربعون جندياً وضابطان وقتلوا المفرزة البريطانية النازلة في محطة الطيران في الزيزاء وعددها اثنا عشر جندياً وضابط ، ووصل الجيش الى مضيق رأس العين محلة عمان ، نخرج أهالي الصلت وعمان ومنهم شراكس وشش‍ن من النازلين في قرى الناعور وعين صويلح ووادي السير اشتركوا مع الجند العربي في القتال من الصباح الى العصر حتى تراجع النجـدبون الى محل يبعد ثلاث ساعات عن قصر المشتى لجهة الشرق وكان تأثير الطيارات البريطانية في النجديين كثيراً هاجت لاصوات قنابلها ابلهم ، وقد قتل النجديون من قابلهم بالسلاح من أهالي الزيزاء واللبن وام العمد والطنيب والقسطل ومادبا ويادودة والرجيب وسحاب والموقر وعمان ، وادعت حكومة الشرق العربي أن النجديين خسروا الف قتيل وجريح على اقل تعديل وأن عدد قتلى عرب المنطقة مادبا وعمان لا يتجاوز المئة والعشرين وان خسائر الجنود والبدو المرافقين لهم بلغت عشرين رجلاً وامرأة ، وقد عزز الجيش البريطاني في فلسطين قوة الشرق العربي باربع دبابات وستمائة جندي . وقال العارفون من الاهلين أنه قتل من أهالي المنطقة نحو ستمائة ولم يتجاوز قتلى النجديين المئة وأربعين قتيلاً وأن قتلى بني صخر فقط ثلثمائة قتيل . وبنو صخر هم المقصودون من هذه الغزوة لان اعتداءاتهم على تجار نجد كثيرة وقد عاونهم العيسي والزبن والخريشة والحديد والمجارمة والدعجة وذكروا انه كان في جملة النجديين كثير من عرب حرب النازلين بين الحرمين لانهم مغاضبون لملك الحجاز فالتحقوا بالاخوان نكاية به . وذكر بعض الواقفين على مجرى السياسة ان الجنيهات الانكليزية وجدت بكثرة في جيوب الاخوان الذين غزوا بلاد الاردن للمرة الاولى وان حملتهم لم تتقــدم نحوها الا بعــد زيارة المستر فيلبي المندوب الانكليزي في الشرق العربي لبلاد نجد . وفي اليوم الاول من كانون الثاني ١٩٢٥ (١٣٤٣) اعلنت الوحدة بين دولتي دمشق وحلب فقط وعينت الوزارة برئاسة صبحي بك بركات الخالدي على ان لا تسأل وزارته أمام مجلس النواب

شأن سائر الوزارات في العالم ولا تسأل الوزارة عما تفعل وتستمد قوتها من المفوضية العليا وللمستشارين القول الفصل في كل الامور ، وهكذا الحال في نظار لبنان الكبير فهم غير مسؤولين الا عند المفوضية العليا ·

وأعلن الجنرال سارايل المفوض السامي الجديد يوم وصوله الى بيروت اول هذه السنة إخراج الحاكم الافرنسي الذي كان يتولى لبنان الكبير وان يباشر المجلس النيابي اللبناني بانتخاب حاكم وطني فاختلفت آراء النواب فحل المجلس وبوشر انتخاب جديد ، وأخذ التعصب الديني بعض نواب الامة اللبنانية فآثروا حكم غريب على واحد من قومهم مهما كانت نحلته ، اما حاكم العلويين فقد ظلّ افرنسياً ، ومن المظاهر الغريبة ان تستحكم اللغة الافرنسية في مجلس لبنان الكبير استحكام اللغة التركية من مجلس وزراء سورية وان يعد بعض اولئك النواب والوزراء التفرنس والتترك من امارات الظرف والفضل في بلاد أرضها وسماؤها عربيتان ، وهي مستقلة بالاجماع ، واللغة اول اداة في ادوات الاستقلال وحجر الزاوية في بنيانه ·

وفي كانون الثاني ١٩٢٥ (رجب ١٣٤٣) رأى بعض المفكرين في حلب وحماة وحمص ودمشق ان الوقت ملائم لعرض مطالب الشاميين على المفوض السامي الجنرال سارايل الذي عينته في هذا الشهر حكومته الاشتراكية المعتدلة التي تولت الاحكام في السنة الماضية في فرنسا ، فتألفت وفود من الأعيان والمفكرين من المدن الاربع وقصدت الى بيروت وعرضت مطالب الامة على المفوض السامي ، وخلاصتها ان الحلفاء اعترفوا باستقلال الشام في ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ وانه يحق لها حق تقرير مصيرها وانه فككت اجزاؤها وأنشئت فيها دويلات صغيرة قضي بها على وحدة البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وان القائمين بالامر أثاروا النعرتين الطائفية والدينية ، ومنحوا المدارس الاجنبية ذات البعثات الدينية المساعدات المادية والمعنوية ، ليفصموا عرى الرابطتين الوطنية والقومية ، وليتمكنوا بهذا التفريق من القضاء على استقلال البلاد ووحدتها ، وان البلاد السورية بحدودها الطبيعية هي وطن واحد بلغتها وقوميتها وعاداتها وأخلاقها وتقاليدها وتاريخها فلا مسوغ لتجزئتها وجعلها دويلات عديدة ، وان أسلاف المفوض السامي اتخذوا اختلاف المذاهب

والمساومات السياسية معاول لتقويض بناء الوحدة السورية ، فسلخوا القسم الشمالي منها وأعادوه الى الحكومة التي أنقذ منها في بادئ الامر ، ولم تزل طامعة بالاستيلاء على القسم الآخر فحرموا هذا الوطن حدوده الطبيعية وخطوط دفاعه ، والحدود اذا لم تكن عسكرية طبيعية لا سبيل الى ضمان استقلالها .

وان المنتدبين السابقين لم يكتفوا بان يحفظوا للبنان الصغير امتيازاته ، بل عمدوا الى ضم أرجاء أخرى من داخل البلاد وساحلها مما يزيد عن مساحته الاصلية مرتين ، ويزيد على عدد سكانه مرة وجعلوه في صورة دولة لبنانية مستقلة ، كما سلخوا جبل الدروز وجبال العلويين وجعلوها دولتين . وطلبوا تأليف لجنة تأسيسية واعطاء حق التشريع للامة والحرية الشخصية وحرية الاجتماع والجمعيات والصحافة والغاء القرارات الاستثنائية والمحاكم الاجنبية وان تدار الاوقاف الاسلامية والخط الحجازي الذي هو وقف إسلامي بمعرفة الحكومات الوطنية ، وان تمنع الهجرة الارمنية الى الشام لان عدد المهاجرين الى هذا القطر بلغ مائة وثمانين الفاً زاحموا الوطنيين في الاعمال الصناعية والتجارية مزاحمة لا تحتمل الى غير ذلك من المطالب مثل الورق السوري ورفع الحواجز الجمركية وذلك بان تعقد اتفاقات مع الحكومات المجاورة كما عقد بين سورية وفلسطين للتبادل التجاري ، وطلبوا الغاء الديون العمومية وإبطال الضمانات الكيلومترية التي تعطي لبعض الخطوط الحديدية لانها تربح ولا تحتاج الى هذه المعاونة ، وان توحد النظم الادارية ، ويلغى قانون العشائر ويجعل حد لتدخل المستشارين في صغار الامور وكبارها ، وتسند الوظائف الى أهل الكفاءة من بني الوطن الاصليين ويقتصر على استخدام الوطنيين في جميع الوظائف المحلية .

وقد وعد الجنرال المفوض السامي وفود المدن الاربع بدرس مطالبهم وانفاذ ما في وسعه ووسع حكومته انفاذه ، وأشار الى ان الواجب عليهم ان ينظموا صفوفهم ويؤلفوا أحزاباً تسير بعقل وروية لا يتخذها بعض أرباب الاغراض سلماً لبلوغ غاياتهم . وقد عاد الجنرال سارايل في خطاب له القاه في حمص (أيار ١٩٢٥) خاطب به أعيان البلاد بقوله : اعملوا على توحيد كلمتكم قبل اهتمامكم بالاستقلال ، فان الاستقلال انما يحصل عليه المتفقو الرأي ، الى هذا أوجه نظركم ، اتحدوا أولاً فان

الباني انما يباشر وضع الاساس قبل ان يهتم بالتوريق والدهان اه . و بالفعل تأسس في سورية حزبان حزب من جميع طبقات الشعب واسمه حزب الشعب وآخر يناصر الحكومة الحاضرة واسمه حزب الوحدة كما تألفت في لبنان أحزاب .

* * *

صاحب الوعد للصهيونيين ومطالب الفلسطينيين والسوريين وكوائن

وفي يوم ٢٥ آذار ١٩٢٥ (١ رمضان ١٣٤٣) جاءَ القدس لورد بلفور الوزير البريطاني صاحب الوعد للصهيونيين بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود الذي صرح به في تشرين الثاني ١٩١٧ باسم بريطانيا العظمى فاحتج المسلمون والنصارى فيها على مجيئه وأضربوا عن الاعمال إضراباً تاماً ، وكان مجيئه للاحتفال بافتتاح المدرسة الجامعة العبرية في بيت المقدس ، وقد أُرسلت برقيات الاحتجاج من أَطراف الشام على من فصل بعمله فلسطين عن أُمها الشام وجاء مساء يوم ٨ نيسان الى دمشق فأظهر الدمشقيون نفرتهم منه ومن وعده ، وأُغلقت المدينة صباح الغد محتجة على وعده وبعد الظهر تجمع جمهور لا يقل عن خمسة آلاف في ساحة الشهداء أَراد الدرك منعهم من التجمع بالتهديد والضرب فرشقه بعض الفتيان بالحجارة ، فاضطر الدرك الى استعمال السلاح في الهواء فجرح عشرون شخصاً هلك منهم اثنان واضطرت الحكومة اللورد ان يخرج الى بيروت فأَركب البحر والبيروتيون يحتجون عليه كاحتجاج الدمشقيين ولم يستطع ان يرى اللورد من دمشق غير جدران الفندق ومن بيروت الا الطريق الى السفينة فقط .

وفي يوم ٢٩ رمضان ١٣٤٣ (٢٣ نيسان ١٩٢٥) خطب الشيخ عبد الحميد العطار في آخر جلسة من جلسات المجلس التمثيلي في مضار توظيف غير العرب في وظائف دولة سورية فقال : ان العصر عصر القوميات ، لا تقوم الامم الا تحت لوائها ، ولذلك نرى جمهورية تركيا أَخرجت من خدمتها حتى الآذنين من غير جنسها ، وان الواجب على حكومة سورية أَن تخرج من خدمتها التركي والارمني والرومي فقبل المجلس اقتراحه بالاجماع وقوبل بالتصفيق .

وفي ٢٨ ايار (١٩٢٥) انذرت بريطانيا العظمى الملك حسين بن علي ان يغادر

العقبة خلال سبعة اسابيع — وكان جاءها بعدان سقط الحجاز الا قليلاً في ايدي جيش السلطان عبدالعزيز بن سعود ملك نجد — لتستلمها حكومة شرق الاردن وتضمها مع معان الى البلاد التي تديرها لانها ضمن الانتداب البريطاني وتحافظ عليها من الوهابيين الذين فتحوا مكة والطائف واخذوهما من يد الملك حسين فأجاب جلالته انه لا يسعه بالنظر للعهود المقطوعة له من الحلفاء ولاسيما بريطانيا ان يتنازل عن هاتين البلدتين الحجازيتين (العقبة ومعان) وانه لا يعترف بالانتدابات المخالفة لتلك العهود وابان المحاذير التي ستنجم عن عملها هذا الذي سيدعو الى هياج عظيم في العالم العربي وبعد ايام سار الى قبرص ليقيم فيها . وفي حزيران قتل الاشقياء قائدين افرنسيين في طريق دير الزور كانا يسيران في سيارة فبعثت السلطة طيارات امطرت عشائر البواسرية التي فقد الضابطان في أرضها وابلاً من القذائف فهلك منهم اكثر من ثلاثين نفساً وتلف كثير من الخيل والابل والغنم . ثم حكمت على خمسة من الاشقياء بالقتل . وفيه جاء وفد من اعيان دروز جبل حوران وراجعوا السلطات الافرنسية يطلبون انضمامهم كما كانوا سابقاً الى حكومة دمشق على ان يكون لهم بعض الامتيازات المحلية اذ ثبتت لهم مضرة الانفصال . كما ان وفداً من اللاذقية قابل بعض رجال تلك السلطة وابانوا له الاضرار التي نشأت من فصل بلاد العلويين عن امها سورية وطلبوا ارجاعهم الى حكمها .

وفي شهر نيسان ١٩٢٥ جاء فلسطين وزير المستعمرات البريطانية فقابلته وفود الامة يتقدمها وفد اللجنة التنفيذية ووفد الحزب الوطني وتكلم غير واحد من رجال الوفد معرباً عن ظلامة الفلسطينيين وضرر الوطن القومي فرد الوزير على اقوالهم ومما قاله انه رأى فلسطين أسعد من الاربعين مستعمرة التي يهتم بشؤونها وقد قدمت له الوفود تقريراً هذا ملخصه :

اً — ان عرب فلسطين قد قدموا تقارير كثيرة وارسلوا وفدهم الى لندن مرتين وفي كل ما قدموه بينوا التناقض الغريب الذي يظهر في مسلك الحكومة الانكليزية في بلادهم على الرغم من ا — نص عهد جمعية الامم . ب — العهود المقطوعة للملك حسين . ج — البلاغ المنشور من القائد اللنبي قائد الحملة الفلسطينية . د — بعض مواد صك الانتداب . ه — البيانات الرسمية والشبه الرسمية الصادرة من الوزارات .

٢ً — ان السياسة التي تسير عليها الحكومة في فلسطين جرت البلاد الى حالات اقتصادية صعبة لا يمكن للبلاد ان تستمر على تحملها ودوام الحال على هذا الشكل دون ان يجد العرب آذاناً صاغية عادلة يؤدي حتماً الى سقوط البلاد في هوة اشد عمقاً من الحالة الحاضرة اذ انهم ا — يكلفون بضرائب باهظة للانفاق على ترتيبات واسعة لا تتحملها البلاد لتنفيذ السياسة الصهيونية التي لا يمكن ان تتفق مع مصالحهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية · ب — قد حرموا ادارة بلادهم وتمتعهم باستقلال ذاتي على حين ليسوا أقل مستوى من سكان البلدان العربية الاخرى مثل العراق وشرق الأردن التي تتمتع بحكم ذاتي نيابي · ج — وقد حرموا حتى مما كانوا يتمتعون به من بلديات ومجالس ادارة ومجالس عمومية منتخبة ومن ارسال اعضاء الى البرلمان في العهد التركي · د — قد فتحت ابواب بلادهم لهجرة يهودية ضخمة تحتوي على كثير من العناصر غير الصالحة لحياة البلاد وتحملها اقتصادياً واجتماعياً · ه — قد جعل للعناصر اليهودية ارجحية ظاهرة في ادارة البلاد الرئيسة وفي تسيير المصالح اليهودية القومية والاجتماعية هذا واهم اقلية ضئيلة في البلاد عدداً ومصلحة ·

(٣ً) — ان العرب في فلسطين وهم يطلبون حقهم في الحكم التشريعي لم يريدوا قط ان يغمطوا حقوق اليهود الذين يساكنونهم ولكنهم يريدون ان يتمتعوا بحقهم باعتبار انهم اكثرية ساحقة في العدد والمصلحة ، وباعتبار انهم وعدوا بوعود صريحة وباعتبار ان عهد جمعية الامم يخولهم ذلك مع حفظ حق اليهود الوطنيين في الاشتراك معهم في الادارة والتشريع بحسب نسبتهم ·

٤ً — ان العرب يعتقدون انهم لن يطمئنوا في بلادهم و يروا في الحكومة البريطانية النية الحسنة التي طالما أعلنتها بالنسبة اليهم اذا ظلت مستمرة في طرز الادارة والسياسة التي سارت عليها في فلسطين الى الآن مع أنهم يريدون دائماً أن يكونوا على وفاق تام معها في مصالحها النزيهة ويعتقدون أنه قد آن للحكومة البريطانية ان تقلع عن تجربتها العقيمة وان تعيد نظرها بصورة جدية في هذه السياسة التي جعلت البلاد وأهلها في حالة اضطراب روحي وانحطاط اقتصادي وقلق ·

٥ً — وها نحن نقدم لها مطالب البلاد بصورة صريحة واضحة أن تبدل علاقة الانتداب السيئة ٠

١ً — تأسيس حكومة وطنية مسؤولة امام مجلس نيابي منتخب من الاهالي الفلسطينيين بحسب التمثيل النسبي ٠

٢ً — تسن جمعية وطنية منتخبة القانون الاساسي الذي يضمن بقاء الاماكن المقدسة بيد أهلها القديمين على أن لا يغير شيء فيها وحفظ حقوق الاجانب ومصالح الدولة المساعدة المتفقة مع مصالح البلاد وضمانة مشاركة اليهود الوطنيين بالحكم والتشريع بحسب النسبة على ان يراعى في وضعها تحمل حالة البلاد الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ضمانة التعهدات الدولية التي تحملتها الدولة المساعدة وهي التعهدات الصحيحة وحفظ الآثار وحرية الأديان ونحوها على النمط الوارد في المعاهدة المعقودة بين الحكومة الانكليزية والعراق اه ٠

✲ ✲ ✲

تاريخ الصهيونية وعملها الاخير ولما كانت الصهيونية من أهم المسائل التي تشغل بال الشاميين عامة واخوانهم أهل فلسطين خاصة وكان لها مساس بسياسة البلاد وتاريخها عهدنا الى احد الواقفين على اسرارها[1] وكتب الينا بالفصل الآتي قال : اليهود قبيلة سامية نزحت من العراق الى فلسطين وسكنت فيها حيناً ، ثم هاجرت الى مصر فمكثت هناك مدة طويلة وانقلبت اليها ، وفتحتها فتحاً عسكرياً وتسلطت على بعض شعوبها ٠ وقد أسسوا شبه حكومة ثم مالبثوا ان دب فيهم الفساد ، فانشطروا الى قسمين شمالي وجنوبي ، وامسوا عرضة لمهاجمة حكومات مصر وآشور وبابل لان بقعتهم في الطريق الوحيد بين الدول المتزاحمة ، ثم تغلبت تلك الدول عليهم فسبوهم واخرجوهم من فلسطين ، وهنا بدأت نفوسهم تحن اليها ، وتشوقوا الى اعادة مملكتهم القديمة واحياء قوميتهم المنقرضة ، وقد كبر هذا الرجاء في نفوسهم ، واشتعل الامل في صدورهم وحاولوا مرات استردادها من ايدي الرومانيين ففشلوا ، وخرب تيطس هيكلهم

(١) كاتب هذا الفصل الباحث الثقة السيد عمر الصالح البرغوثي في القدس ٠

وشتتهم في اطراف الارض، ولكنهم سرعان ماتمخضت نفوسهم وثاروا بقيادة بار كوخبا ومساعدة الحاخام عقيبا فاخفقوا وعجزوا عن الانفلات من حكم الرومانيين الثقيل ٠

ورغم هذه الصدمات أصبحت فكرة الرجوع الى فلسطين عقيدة دينية عندهم ، برزت في آدابهم الشعرية والنثرية ، وأظهروا من الحنين الى فلسطين والتلهف على زوال مجدهم ، ما خلد ذكرهم في تاريخ الادب ٠ وقد قام كثيرون وتظاهروا بانهم جاءهم المسيح و بشروا بالرجوع الى ارض الميعاد فلم ينجحوا لان الاحوال الخارجية التي عاش فيها اليهود قروناً حالت دون بلوغهم امنيتهم وحرمتهم الشعور بالروح القومية ، لو لم تتوالى عليهم عواصف الاضطهادات في اوربا التي أيقظتهم ودفعتهم الى إظهار الصهيونية [1] الحديثة التي أوجدها عاملان « الاول » الشعور بالقومية ، « الثاني » مضادة اليهود العامة ٠ اما القصد من الصهيونية فهو عزل الشعب اليهودي عن الشعوب الاخرى ، وجعل فلسطين وطناً خاصاً بهم ، يقوم على القومية و يعترف لهم اعترافاً دولياً مضموناً ضماناً شرعياً ٠

وقد بدأت تظهر الصهيونية بمظهرها الحقيقي سنة ١٨٥٢ م حين حض هولنكسورث الانكليزي على اقامة حكومة يهودية في فلسطين لاجل حماية طريق الهند البرية ٠ وسافر السر موسى منتفيوري الى فلسطين وطلب من محمد علي باشا المصري اسكان اليهود في البلاد فرفض طلبه ٠ وقام كثيرون من الادباء والسياسيين واقترحوا اقتراحات مختلفة منها جعل فلسطين حكومة يهودية ، او عمل خط حديدي في العراق واسكان اليهود على جانبيه او ايجاد مأوى لهم في شرق الاردن ٠

وقد حام كاليشر في كتابه مطلب صهيون حول استعمار فلسطين واستملاك الارض وانشاء مدرسة زراعية وتأليف حامية اسرائيلية عسكرية !! ومزج الفكرة القومية بالروح الدينية وصرح فيه ان الخلاص الذي نوه به الانبياء يأتي متتابعاً بمساعدة اليهود انفسهم ٠ وسافر مراراً لترويج هذه الفكرة والف الجمعية الاولى الاستعمارية في فرنكفورت

---

(١) صهيون جبل جنوب القدس ثم شمل المدينة واصبح علماً عليها ٠ والنسبة اليه تدل على الجماعة الذين يرغبون في الرجوع الى فلسطين ٠

سنة ١٨٦١ وحمل بعض الحاخامين على الاشتراك معه واعلن بعضهم ، ان الاستعمار في فلسطين من الامور المقدسة فألهبت تقوى اليهود هذه الجملة البراقة والفوا بضع جمعيات استعمارية في الممالك الاوربية وأُسست المستعمرة الصهيونية الاولى (عيون قارة) في فلسطين ١٨٧٤ .

الا ان العمل شرع فيه بصورة جدية سنة ١٨٩٧ عندما عقد المؤتمر الاول واشترك فيه ممثلو خمسين جمعية صهيونية و برزت الروح الاستعمارية بشكل جلي فقاومتها الحكومة العثمانية بوضعها الصعوبات والعراقيل أمام هجرتهم وقيدتهم بقيود جعلت هجرة اليهود الى فلسطين في حكم المستحيل الا قليلاً .

وكلما كانت تنتعش الروح اليهودية القومية يشتد كره الامم لهم وهم لا يعبأون بذلك زاعمين انها موجة ستضمحل أمام الرقي العلمي المنتشر هناك ، فانتهت عاقبة هذا الرجاء بالفشل اذ وقعت عليهم اضطهادات ومذابح في كل الاقطار ، فاندفع الزعيم الصهيوني الكبير تيودور هرتسل والف كتابه الوطن اليهودي سنة ١٨٩٥ . وقد جاء فيه ان مضادة اليهود التي هي في نمو مستمر خطر على العالم باسره ، لان اليهود شعب لا يمتزج بغيره والامتزاج الحقيقي يكون بالزواج المتبادل ، واقترح فيه انه يعطى لهم متسع من الارض في فلسطين او الارجنتين ليجتمعوا بها ويقيموا لهم وطناً خاصاً بهم واذا سمح لهم بفلسطين فانهم يرون من الواجب ان تكون محلات العبادة المختصة بالطوائف الاخرى ملكاً ممتازاً لهم .

وأشار بتأليف جمعية تشرف على الاعمال العلمية والسياسية وتأسيس شركة يهودية كالشركات الانكليزية والفرنساوية الصناعية « الاستعمارية » العظمى يكون رأس مالها ٥٠ مليون ليرة انكليزية وتتخذ لها مركزاً رئيساً في لندن ، ويعهد لهذه الشركة بالاعمال التي تهيئها اللجنة التنفيذية اليهودية وتسعى الطائفة الجديدة لترويج المهاجرة بطريقة منتظمة ولم يعبأ هرتسل بقوانين الكنيسة فطلب فصلها عن السياسة ولما اختلط بقومه شعر بضرورة الموافقة الدينية لان ميل اليهود كان متعلقاً بفلسطين تعلقاً دينياً ويستحيل عليه ان يحولهم عن ذلك .

ولما زار هرتسل بلاد الانكليز لم يقبل اليهود على دعوته كما أقبل أهالي اوربا

الآخرون الذين ناصروه بالمال والرجال . واول من اعتقد بصحة مشروع الوطن اليهودي جمعية زيوف في النمسا التي طلبت تأليف جمعية يهودية عامة واقترحت تأسيسها في لندن ثم عرفوا هرتسل ان جمعيتهم قبلت مباديه . وهنا يظهر ان الذين استهوت قلوبهم فكرة تأليف الجنسية اليهودية هم الذين اعتبروا هرتسل زعيماً ومخلصاً لهم . ولكن المتدينين قاوموه عندما عرفوا ان بعض زعماء دعوته لادينيون . وتصدى له رؤساء الحاخامين في روسيا والمانيا والنمسا وانكلترا وقالوا : ان الصهيونية حركة بعيدة عن اليهودية وانها مخالفة لاوامر الله تعالى . وقال الكاتب الشهير لوسيان وولف : ان الصهيونية حماقة ، وقال غايكر : ان الصهيونية تؤدي الى حرماننا حقوقنا الدنية في الممالك الخارجية . اما بعض مسيحيي اوربا فقد أظهروا عطفاً على الصهيونية وطفقت بعض جرائدهم تحض اليهود على استعمار فلسطين اتماماً لنبوات التوراة فصادفت دعوتهم رواجاً وتكاثر دافعو الشاقل [1] الذين انضموا الى الصهيونية على مقاومة انصار الدين لها وقد عقدت بين سنة ١٨٩٧ — ١٩١١ عشرة مؤتمرات، فان عقد المؤتمرات قصد بها هرتسل احياء الشعور القومي وايقاظه بين اليهود ونشر الدعاية الصهيونية ، وقد نجح بفكرته هذه وتوفق لعقد المؤتمر الاول في مدينة بازل (سويسرا) سنة ١٨٩٧ فاشترك فيه أعضاء كثيرون بعضهم يمثل جماعات وبعضهم جاؤا عن انفسهم وقد قرروا ما يلي :

(١) تعليم اللغة العبرية ونشر آدابها وانشاء مدرسة كبرى في يافا او القدس .

(٢) انشاء مدارس يهودية في كل الاحياء الاسرائيلية لتعليم اللغة العبرية وتأليف لجنة تعتني بالآداب العبرية .

(٣) انشاء صندوق توفير يهودي وقد وضعت قاعدة غرض الصهيونية وهي ايجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين مضموناً ضماناً شرعياً دولياً وتتخذ الوسائل للوصول الى هذا الغرض .

---

(١) الشاقل هو الشلن او الفرنك : وكل من تصهين لا يحق له ان يَنتَخِب او يُنتَخَب حتى يدفع شلناً في السنة .

(١) ترقية حال الزراع اليهود والتجار في فلسطين ·
(٢) تحالف اليهود تحالفاً محلياً او عمومياً حسب قوانين بلادهم المختلفة ·
(٣) تقوية الشعور اليهودي ·
(٤) بذل المساعي الادبية للحصول على المنح الضرورية لضمان الغرض الصهيوني
وقد أسست فروع عديدة للقيام بهذه المشاريع وجمعت ٤٠٠٠٠٠ ليرة انكليزية ·

وافتتح المؤتمر الثاني في مدينة بازل ايضاً سنة ١٨٩٨ وتألف من أعضاء الجمعية الصهيونية العاملة وبعض الزعماء من البلاد الاخرى واشترك فيه عدد من حاخامي روسيا المعترف بهم رسمياً نواباً عن اليهود المتدينين ، وورد عليه اربعون برقية من الحاخامين المتعصبين يعلنون بها اعتقادهم بالصهيونية ، فانضم الى الجمعية الصهيونية نفر كبير من اليهود ، وقد أسس هذا المؤتمر جمعيةً استعمارية غرضها توسيع نطاق الاستعمار بشرط اكتساب رضى الحكومة التركية وتألفت عمدة من تسعة اشخاص برئاسة ولفسون وقد اقترح الرابي ارنريس جعل اللسان العبراني لغة لليهود عامة وقبل اقتراح جاستر فيما يتعلق بالتهذيب ·

وانعقد المؤتمر الثالث في بازل أيضاً سنة ١٨٩٩ وصرح فيه هرتسل بان مساعيه كانت متجهة للحصول على امتياز من السلطان عبد الحميد ولكنه لم يتوفق · ثم تليت تقارير اللجنة العاملة فظهر منها ان معدل زيادة الجمعيات الصهيونية في روسية ٣٠ ٪ وفي البلدان الاخرى ٢٥ ٪ و بلغ عدد دافعي الشاقل اكثر من ١٠٠ الف نفس أي ان ٢٥٠ الفاً من اليهود تصهينوا في ذلك الوقت ·

وانعقد هذا المؤتمر في كوينس هال في لندن سنة ١٩٠٠ ! وقصدوا بانتخاب هذا الموقع التأثير في الرأي العام الانكليزي لان بعض الانكليز ارتاحوا الى الدعوة الصهيونية وناصروها لما لها من الارتباط بالكتاب المقدس · و بلغ عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا ١٠٤٣ جمعية وفي انكلترا ٣٨ وفي الولايات المتحدة ١٣٥ وفي بلغاريا ٤٢ جمعية ··· الخ ·

أما آمال الصهيونيين في فلسطين فقد كادت تقضى عليها لان الباب العالي أصدر تعليمات في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٠٠ تمنع مهاجري اليهود من الاقامة في فلسطين

اكثر من ثلاثة أشهر اذ عرف ان الحركة الصهيونية انتعشت وهي آخذة في التهام فلسطين واستملاك بقاعها والاستيلاء على واردها وصادرها ، فاحتجت ايطاليا على هذه التعليمات بانها مجحفة وانها هي لا تفرق في بلادها بين رعاياها المسيحيين واليهود . وكذلك عرضت هذه المسألة على وزير الولايات المتحدة المستر هاي فأصدر امره في ٢٨ شباط سنة ١٩٠١ الى سفيرهم في الاستانة ليحتج باسم حكومتهم فرفض الاتراك كل تدخل بهذا الشأن . ثم توجه هرتسل الى الاستانة ومعه داود ولفسون واوسكار مارموزك وقابل السلطان عبد الحميد في ايار سنة ١٩٠١ مرتين منفرداً عن رفيقيه وأنعم عليه السلطان بالوسام المجيدي الاول وعاد الى لندن وقابل جمعية الميكابيين في ١١ حزيران سنة ١٩٠١ وأعرب لهم عن ثقته في نجاح مهمته لدى السلطان .

وانعقد المؤتمر الخامس في كانون الاول سنة ١٩٠١ وقبلت فيه القواعد الرئيسة وصودق عليها وهي : (١) عقد مؤتمر عام مرة كل سنتين . (٢) يعقد اثناء هذه الفترات اجتماعات يحضرها أعضاء الجمعية العاملة الكبرى وزعماء البلدان المختلفة . (٣) تأسيس هيئة إدارية في الامكنة التي يبلغ عدد دافعي الشاقل فيها خمسة آلاف نفس اذا هم طلبوا ذلك .

واكملت الاستعدادات لفتح المصرف واعطاء اعانة للمكتبة اليهودية في القدس وتأليف دائرة معارف عبرية وتأليف ادارة عامة تشتغل بشؤون الامة اليهودية . وانعقدت جلسة طويلة بشأن التهذيب انتهت بالقرار الآتي : المؤتمر يحبذ التمسك بالروحيات وتعليم الطائفة اليهودية على قواعد عنصرية دينية وعلى كل صهيوني ان يعمل لهذه الغاية .

ثم انفض المؤتمر وانصرف كل من الزعماء لمتابعة غايته فذهب هرتسل الى القدس على رأس بعثة صهيونية فقابلوا امبراطور المانيا غليوم الثاني اثناء زيارته القدس وفاوضوه بمهمتهم فأجابهم : ان كل المساعي لترقية زراعة فلسطين والتي تعود بالمنفعة على الدولة التركية وتحترم سيادة السلطان توافق هواه ورضاه » . فامتعض هرتسل وذهب الى الاستانة وقابل السلطان عبد الحميد وكانت خطته ترمي الى التفاهم على اساس تنظيم المالية العثمانية وان يقنع جلالته باخلاص الصهيونيين لانهم يعملون علانية

لافي الخفاء وان اليهود عنصر خاضع للقوانين لايخالفون رغائب القوة الحاكمة ٠ وطلب اليه ان يمنح اليهود سلطة واسعة للحكم البلدي الذاتي ويدفعون مقابل هذا الامتياز مبلغاً وافراً ويدفعون ٣٠٠٠٠٠ الف غرش مرتباً سنوياً مثل جزيرة ساموس ذات الاستقلال الاداري بجندها الخاص ورايتها الخاصة ومجلس نوابها الخاص اي حكومة ذات استقلال داخلي ٠ ففشل في سياسته ومفاوضته وظل اليهود يباشرون بعض الاعمال الاقتصادية والزراعية في فلسطين بكل تكتم ٠

وبعد ان أخفق سعي هرتسل مع الاتراك وجه نظره الى الحكومة الانكليزية آملاً أن يحصل على مقاطعة بجوار الارض المقدسة يأوي اليها موقتاً المهاجرون اوالمضطهدون فاستحسن طلبه و باشر مفاوضة لورد كرومر فعرض عليه استعمار شبه جزيرة سينا وارسل الفريقان بعثة سنة ١٩٠٣ لترتاد الارض ٠ وقد كاد هذا المشروع يتم لولا قلة المياه وان حكومة مصر رفضت اعطاء شيء من ماء النيل ٠ وقد قالت دائرة المعارف الانكليزية المطبوعة سنة ١٩١٠ (ترى لو سمحت تركيا بالارض المقدسة هل كانت المسيحية الكاثوليكية والارثوذكسية تسمح بها لليهود حتى ولو استثنيت الاماكن المقدسة) ولما حبط هذا المشروع عرض عليهم شامبرلن وزير خارجية انكلترا شرقي افريقية على أثر حرب البوير وبعث الى كنز برغ كتاباً رسمياً في ١٤ آب سنة ١٩٠٤ ٠ فاقترح هرتسل الدخول في المفاوضة بشرط احداث وطن يهودي في شرقي افريقية ٠

وعقد المؤتمر السادس في بازل في آب سنة ١٩٠٣ و بحثوا في اتخاذ افريقية وطناً قومياً ، فقوبل هذا الاقتراح بالرفض وقد قال هرتسل : ان شرقي افريقية ليست صهيون ولا يمكن ان تكون كذلك وقال مكس نوردو : لو اتخذنا شرقي افريقية وطناً لتعذر علينا الا ان نكون في دار عزلة ٠

وفي هذا الوقت انعقد مؤتمر صهيوني في زمارين فلسطين برياسة اوسيشكن شهده خمسون عضواً وستون معلماً وكان هذا المؤتمر مصغر مؤتمر بازل فأسسوا جمعيات ادارية لتهيمن على المستعمرات وتراقب شؤونها ٠ وفي ١١ تشرين اول سنة ١٩٠٣ اذن ملك ايطاليا بمقابلة مرغوليوث ومحادثته بمصالح الصهيونيين ثم قابله هرتسل وقابل المسيو تيتيوني ناظر الخارجية وزار البابا والكاردينال دل فال ٠ وفي ٣ تموز توفي هرتسل بعد ان اعلى

شأن الغاية الصهيونية وثبتها ووحد كلمة العاملين على اختلاف مذاهبهم ، وحوّل المسألة اليهودية من خيرية زراعية الى اقتصادية سياسية ، فأحدث موته دهشة في العالم الصهيوني واختلفوا في من يعينون خلفاً له في رياسة الجمعية العاملة (اللجنة التنفيذية) .

وفي ٢٧ تموز ١٩٠٥ انعقد المؤتمر السابع وانتخب الدكتور مكس نوردو رئيساً له وكان تقرير اللجنة الفلسطينية خير التقارير التي قدمت لهذا المؤتمر ، لانه تضمن خبر انتشار جريدتهم ونشاط حركتهم ، وقد أعيد البحث في استعمار شرقي افريقية ، ولكنه قرر اخيراً ، بان المؤتمر الصهيوني السابع لايتحول عن قاعدة موتمر بازل الرئيسة وهي اعداد وطن لليهود في فلسطين مؤمناً تأميناً شرعياً ومعترفاً به اعترافاً علنياً وانه يرفض رفضاً باتاً كل استعمار خارج فلسطين .

وقد بحث ايضاً في عمل الجمعية الصهيونية في مستقبل فلسطين وتقرر بشأنها ما يلي : تطبيقاً للحركة الادارية السياسية ولأجل تقويتها يجب أن تروج على الاسس العلمية مقاصد الروح الصهيونية بموجب القواعد الآتية : (١ً) التنقيب عن الآثار . (٢ً) ترويج الزراعة والصناعة على المبادئ الديمقراطية الممكنة . (٣ً) تحسين الحالة الاقتصادية والتهذيبية وتنظيم يهود فلسطين باحداث نهضة فكرية جديدة (٤ً) الحصول على الامتيازات كمشتري الارض المملوكة والمتروكة والمزارع وغير ذلك .

وفي سنة ١٩٠٥ تأسست جمعية بصليل لترقية الحرف والصناعة في القدس . وفي سنة ١٩٠٧ عقد المؤتمر الثامن في لاهاي وتأسست مدرسة الجمناز اليهودية في يافا . وأسس مضرف داود ولفسون لبناء دور للعمال في فلسطين . وفي سنة ١٩٠٨ أسست اللجنة التنفيذية للجمعية الصهيونية في فلسطين واتخذت يافا مركزاً لها . وفي سنة ١٩٠٩ عقد المؤتمر التاسع في مدينة همبورغ وتقرر تأسيس مستعمرة يهودية على قواعد الاشتراك والتضامن .

وفي سنة ١٩١١ أنشئت الجمعية الاستعمارية لارض اسرائيل (فلسطين) وعقد المؤتمر العاشر في بازل . وكانت بين سنة ١٩٠٥ — ١٩١١ الفكرة اليهودية الوطنية جامدة وشعر قوادهم ان استرداد الارض المقدسة شيئ بعيد المنال حتى ان الحصول

على قطعة من الارض كان يعد امراً عسراً · وفي سنة ١٩١٣ عقد المؤتمر الحادي عشر وكانت ابحاثه جامدة وقد توالى على الحركة الصهيونية في هذه الفترة الخذلان والاضمحلال ، ولولا الحرب لعدلوا عن غايتهم القومية وارجأوا البحث في فلسطين الى حين ، والحقيقة انه منذ وفاة هرتسل حتى اعلان الحرب كان دور القهقرى في تاريخ الحركة الصهيونية ·

* * *

الاوضاع الصهيونية

(١) المصرف اليهودي الاستعماري — ليست مقاصد هذا المصرف مالية فقط بل سياسية ايضاً وبما انه اكتسب حقوق الشركات ذات الامتياز فقد اتخذ اداة لهيئة الصهيونية العملية وغايته العمل في فلسطين او سورية او في بقعة أخرى اياً كانت اذا كانت مصلحة اليهود تستدعي ذلك · ولكن تعدل هذا النص وقيد بهذه الجملة « العمل في فلسطين وسورية وسائر انحاء تركيا آسيا فقط » وفتح فرع لهذا المصرف · وأُسس سنة ١٩٠٥ فروع مالية لشركة انجلو فلسطين في القدس و يافا وحيفا والناصرة لنفس هذه الغاية ·

(٢) البنك الملي اليهودي — وغايته توفير رأس مال دائم ليكون ملكاً للطائفة اليهودية ليستخدم في اغراضها الخصوصية مثل مشترى الارض في فلسطين و يشترط ان لا يمس رأس ماله حتى يبلغ مليون شلن اوخمسين الف ليرا و يجب بقاء نصف هذه القيمة في المصرف · وتجمع امواله من استعمال طوابع البريد الاضافية التي تلصق على رسائل الصهيونيين ومن الدعوات والهبات الاختيارية وما شابه ذلك ·

العمل التهذيبي — كان توحيد التعليم اليهودي من اهم اغراض الصهيونية الرئيسة لذلك شرعوا في تأسيس غرف قراءة ومنتديات للخطب وللدروس الليلية في اماكن مختلفة وفي سنة ١٩٠٣ انشأوا مدارس في داغستان واسسوا مدرسة البنات القومية في يافا وقد نظم سنة ١٩٠١ حاييم و يزمان منهاجاً تاماً لجامعة عبرية وفتح لها فرع للآداب في القدس بعد الحرب وعملوا لها بضعة احتفالات ولم تزل في مهدها ·

جمعيات الطلبة — لما انتشرت الفكرة الصهيونية تغلغلت في نفوس الطلبة اليهود في فينا وروسيا وغلبسيا ورومانيا وتواصوا بالمحافظة على الشعور اليهودي وتعزيز الآداب

العبرية وكان شعارهم الى الامام · وانصرف اهتمامهم لاستعمار فلسطين وتألفت بعد ذلك جمعيات عديدة من طلبة المكاتب وانتقوا اسماء وطنية تشير الى نهضاتهم السابقة وفتح لها فروع في فلسطين وانتشرت في كل انحائها ·

الجمعيات الرياضية — دعيت رياضية ولكن غايتها في الحقيقة عسكرية لاسيما وان اسماءها ترمي الى هذا الغرض ، وقد امتدت بسرعة الى الاستانة وبرلين وصوفيا وبخارا وهمبورغ ···الخ · وانتشرت فروعها في فلسطين تحت اسماء مختلفة وقد ظهرت بودارها والتمرين على حمل السلاح والحركات العسكرية وتنظيم الجند ·

الصحافة — ان للصحافة اليهودية اثراً كبيراً في نشر الدعوة الصهيونية ، فلهم صحف عديدة في روسيا والنمسا والمانيا وانكلترا وايطاليا وغيرها من الممالك ، وهي تكتب المقالات الطويلة انتصاراً لقضيتهم ودفاعاً عن صهيونيتهم وقد كان لهم بضع صحف في فلسطين لاقيمة لها ·

انتشار الصهيونية — راجت الفكرة الصهيونية عند كثير من اليهود فانضم اليها اشخاص ما كانوا يعرفون شيئاً عن الغاية الصهيونية وتبرع فريق منهم دون ان يكلفوا الى ذلك حتى وكدت لا تجد فئة من اليهود والا وبينهم صهيونيون فتطرفوا باظهار دعوتهم وجاهروا برفع رايتهم الزرقاء البيضاء في احتفالاتهم فاحتج العرب على ذلك على غير طائل فاننا لا نزال نرى اللونين الازرق والابيض وفي نصفه المثلث المتقاطع ترس داود يرفرفان في كل ايام اعيادهم على صدورهم او على مرتفعات معاهدهم أو على طرفهم وساعهم ·

الاحزاب الصهيونية — بذل اليهود جهوداً كبيرة لاستعمار فلسطين غير انه حصل تباين في آرائهم فانفصل بضع فرق عن جامعتهم وبرزت في المؤتمرات وكثيراً ما كانت المنافسة عنيفة بين هذه الفرق التي سنذكرها هنا : (١) فرقة الحكومة — وهي اتباع هرتسل ومنهاجهم ما صرح به رئيس المؤتمر في جلساته العديدة من وجوب تأسيس وطن لليهود في فلسطين والبلاد المجاورة لها يضمن ضماناً شرعياً مع تمسكهم بقرار مؤتمر بازل بلا زيادة ولا نقصان · (٢) فرقة الوسط المزراحية — وهم عصبة اليهود المتدينين الذين ألفوا فرقتهم اثناء انعقاد المؤتمر الخامس وهي فرع من حزب الراديكال

(المتطرفين) وقد تزايد أعضاء هذا الحزب وعقدوا مؤتمراً خاصاً سنة ١٩٠٤ وانتشروا في انكلترا واميركا وروسيا والمانيا · وكانوا مظاهرين هرتسل في جميع المناقشات وغرضهم يرمي الى ان يكونوا هيئة صهيونية ارثوذكسية أمينة للتوراة والتقاليد في كل ما يتعلق بالحياة اليهودية · (٣) فعال زيون الحزب الديموقراطي — هو حزب اليسار الذي يوجد بين صفوفه عدد من مشاهير الاشتراكيين وعددهم قليل ولكنهم برهنوا على اقتدار وحذق وتغلبوا على حزب مندلستون في المؤتمر ، وكان مركزهم في النمسا وسويسرا ، ويوجد منهم فرقة متطرفة اسمها (فرقة العملة الاشتراكية الصهيونية) ويظن ان هذه الفرقة تخدم غرضها الاشتراكي اكثر من عملها الصهيوني · (٤) الزيون زيونست — توجد فرقة بهذا الاسم ضمن الجمعية العمومية نشأت على أثر المناقشات التي دارت في المؤتمر السادس وزعيم هذه الفرقة اوسيشكن واضع مبادئ الفرقة الجديدة والمصرح بان سياسة هرتسل فشلت والحركة الصهيونية تحتاج الى العمل السريع في فلسطين بدون انتظار منحة او امتياز و يجب مشترى الارض حالاً بقسم من مال المصرف القومي · (٥) التريتوريالين — قوام هذه الفرقة هم الذين رغبوا في المؤتمر قبول استعمار شرقي افريقية ثم عدلوا خطتهم وقرروا ان يستحصلوا على أي أرض في كل بلد بشرط ان ينالوا فيها استقلالهم الاداري · وظهرت فرق أخرى لم تنل شهرة مثل الفرق التي تقدم ذكرها · ومنها فرق الصهيونيين السياسيين الذين عقدوا اجتماعاً خاصاً سنة ١٩٠٥ (٦) الصهيونية السياسية الحقيقية — وهم يعتقدون ان طلب الحكم الاداري لليهود مبالغ فيه و يريدون ان يهتم الصهيونيون في سرعة مشروع استعمار فلسطين والبلاد المجاورة ، وهنالك فرق صغيرة ·

* * *

الصهيونية في الحرب كان مركز القيادة الصهيونية العامة في برلين مؤلفة من ستة أعضاء رئيسهم البروفسور واربورغ ، وكان أربعة منهم في برلين وواحد في بطرسبرج (لينينغراد) والآخر في اميركا الشمالية ، فلما أعلنت الحرب العظمى سنة ١٩١٤ توقفت أعمال الصهيونية السياسية وأصبحت مهددة ولم يلبثوا ان نقلوا إدارتهم العامة الى كوبنهاغن ونقلوا الادارة المالية الى

هولاندة وتظاهروا بالحياد التام أمام جميع الدول وتربصوا ليروا اين تكون الغنيمة لينصرفوا اليها ، أما عضوهم في الولايات المتحدة فقد أخذ يجمع حوله الصهيونيين والف لجنة عاملة . ورغم جميع هذه الاستعدادات السياسية فان مركز الحركة الصهيونية لم يكن في كوبنهاغن ولا في امستردام ولا في نيويورك بل كان في لندرا اذ كانت محور العالم ، وفازوا بحمل بعض الدول على الاعتراف بحقوقهم التاريخية في فلسطين رغم ما كانت عليه الروح الصهيونية من الضعف في بلاد الانكليز . ولم تعلن تركيا الحرب في تشرين الثاني سنة ١٩١٤ حتى انتبه الرأي العام اليهودي وتأكدوا ان المسألة الشرقية سيعاد البحث فيها فانتعشت آمالهم وابتهجت نفوسهم يوم صرح رئيس الوزارة الانكليزية المستر اسكويث قائلاً : « ان جرس جنازة تركيا قد دُق لا في اوربا فقط بل في آسيا أيضاً » فاستبشروا بان تأسيس دولة يهودية في فلسطين أصبح ممكناً ومعقولاً وبرز الدكتور حاييم ويزمن استاذ جامعة منشستر واندفع حتى أصبح قائد الحركة الصهيونية العامة ، كان هذا الدكتور صهيونياً ولكنه لم يشغل وظيفة مهمة في ترتيباتهم السابقة على انه كان دائماً يميز نفسه في المؤتمرات ، وكان يحض بشدة على العمل في داخل فلسطين ويذكر ما يترتب عليه من الفوائد ، ويقاوم بعنف جميع الذين كانوا يطلبون ان تقتصر الجهود الصهيونية على السياسة فقط . وهوالداعي الى تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وهو الذي اعتبر دخول تركيا في الحرب عهداً جديداً لفلسطين وفرصة نادرة يجب ان يستفاد منها .

فطار اسمه وتناقلت أخباره الصحف حتى انه طلب اليه ان يقابل المستر لويدجورج ناظر المالية حينئذ فأُجيب بشرط ان يشهد الاجتماع السر هربرت صموئيل رفيق لويد جورج في الوزارة فقبل ذلك بكل سرور وقابله وبسط له آراءه وآماله بجعل فلسطين بلاداً يهودية فارتاح الى هذا الطلب ، ثم انصرف ويزمن وعمل على الاجتماع بالمستر بلفور فآنس منه كل تشجيع وهكذا فتح الدكتور ويزمن باباً للمفاوضات التي أدت فيما بعد الى تصريح بلفور المعلوم والى اتفاق سان ريمو والى الاعتراف من الدولة الوصية بتسهيل تأسيس الوطن القومي اليهودي . وقد كان ويزمن يعمل بنفسه دون مشورة او مساعدة احد غير بضعة نفر من صغار الصهيونيين ، فرأى ان

يدعو الى لندن الدكتور شليمو والمستر سكولوف العضوين الروسيين في المؤتمر الصهيوني ليساعداه في العمل وانضم اليهم فيلسوف الصهيونية المستر اشير كنزبرغ المعروف « باحاد هعام : احد القوم » والمشهور بتعصبه لنشر العلم والتهذيب بين الصهيونيين فألفوا لجنة غير منتخبة لكنها ربما كانت موثوقة من اكثر الصهيونيين واتخذوا هدفهم ملامسة الحكومة البريطانية واكمال المفاوضات التي باشرها ويزمن على ان الدكتور شليمو مات بعد قليل واقتصر كنزبرج على اعطاء المشورة فوقع حمل المفاوضات والنيابة عن الامة اليهودية على عاتقي ويزمن وسكولوف ولكنهما كانا يطلعان قواد الصهيونية في اميركا وروسيا وغيرهما من البلاد على كل ما يجري معهما ويأخذان موافقتهم على الاشياء المهمة ٠

وكانت حكومات الحلفاء تبحث عن كيفية تقسيم البلاد المنفصلة عن الامبراطورية التركية اذا انتصرت ، وبحثت في مسألة فلسطين ايضاً ، وكان عقد اتفاق سري بين فرنسا وانكلترا عرف باتفاق سايكس بيكو أُمضي في ربيع سنة ١٩١٦ ومآله ان تأخذ فرنسا شمالي فلسطين وانكلترا ميناءي حيفا ويافا وتجعل فلسطين وما فيها من الاماكن المقدسة تحت حكم خاص للاحتفاظ بمصالح دول الحلفاء الدينية وهذا الحكم يقرر بالاتفاق بين روسيا وفرنسا وانكلترا ٠ ولم تذكر المسألة الصهيونية في هذا الاتفاق ولم يرد ذكر ما وراء الأُردن والبحر الميت وخليج العقبة ولكن كان من المنتظر ان تدخل هذه المناطق في الدولة العربية او الحلف العربي الذي كان في النية ايجاده بموجب معاهدة سرية عقدت مع شريف مكة السلطان حسين ومفوض بريطانيا مارك سايكس الذي كان عضواً في مجلس النواب الانكليزي وله معرفة بسورية وفلسطين وما يجاورهما من البلدان ، وكان غير ميال الى الصهيونية وعندما اعترضه الدكتور ويزمن وسكولوف وأفهماه شيئًا عن آمال الصهيونيين ، تأثر من كلاهما واخذ يعطف على قضيتهما ، بل صار عضداً متيناً لهما وبينما كان يفاوض زعماء العرب والارمن ويبحث في أمانيهم الاستقلالية كان يعتقد ان فلسطين يهودية ليست عربية وهي أشبه بحلقة بين أَرمينية الحرة والدولة العربية ! ٠

اما الحكومة الانكليزية فانها فوضته رسميًا بمفاوضة زعماء العرب والارمن والصهيونيين

فعقد اجتماعاً رسمياً مع الصهيونيين في شباط سنة ١٩١٧ ولم يشترك فيه احد من العرب وقد شهده الدكتور و يزمن وسكولوف وهربرت بنتويش وكاون وساقر وهربرت صموئيل المندوب السامي السابق لفلسطين وجمس روتشلد . وبعد البحث الطويل توطدت العلائق بين الصهيونيين والحكومة الانكليزية ووضعت القضية الصهيونية على أساس قانوني وفوض ويزمن وسكولوف ان ينوبا عن الصهيونيين فيما بعد ، وابلغت الحكومة الانكليزية هذه المفاوضة الى الحكومة الافرنسية ، وذهب سكولوف الى باريس ليبين لفرنسا اعتراض الصهيونية وعلاقتها بالحالة السياسية الدولية الراهنة ، وقابل ناظر الخارجية المسيو كامبون وأخذ منه هذا التصريح « ان الحكومة الافرنسية لا يمكنها الا ان تشعر بالعطف على غرضكم الذي يتوقف نجاحه على فوز الحلفاء وانه مسرور باعلان هذا التأكيد » .

ثم توجه سكولوف الى رومة واستحصل تأكيداً بالعطف على الحركة الصهيونية من رئيس الوزارة الايطالية والبابا ، وفي هذه الاثناء انقلبت الوزارة الانكليزية وتولى لويد جورج رئاسة الوزارة الجديدة وبلفور نظارة الخارجية ودخل فيها من الوزراء الذين هم أصدقاء الصهيونيين مثل اللورد ملنر والجنرال سمطس واللورد روبرت سسل .

وبعد فترة طويلة نشطت الحركات العسكرية في فلسطين وتقدمت بسرعة فائقة حتى احتلت القدس سنة ١٩١٧ فرنّ صداها في لندن وأجابها تصريح بلفور الشهير الذي ضمن في كتاب أُرسل الى اللورد روتشلد وهذا نصه : « تنظر حكومة جلالة الملك البريطانية بعين الرضى الى انشاء وطن قومي في فلسطين ، وتبذل الجهد في سبيل ذلك على ان لا يجري ما يضر بحقوق غير اليهود في فلسطين الدينية والمدنية او ما يضر باليهود من الحقوق والمقام السياسي في ما سواها من الممالك » .

فقابل اليهود هذا التصريح بالترحيب واصطبغوا جميعهم بالصبغة الصهيونيه وقاموا بمظاهرات في كل مكان واكتسب هذا التصريح موافقة دول الحلفاء الكبيرة فوافقت عليه فرنسا والمانيا واليابان سنة ١٩١٨ اما الولايات المتحدة فانها لما لم تكن اعلنت الحرب على تركيا لم توافق عليه ولكن الرئيس ويلسون ارسل في آب سنة ١٩١٨ كتاباً الى

رئيس لجنة الصهيونيين الاميركيين هذا نصه : « راقبت برغبة شديدة العمل الاساسي الذي قامت به لجنة ويزمن في فلسطين بمساعدة الحكومة البريطانية وهاءنذا اتخذ هذه الفرصة لاظهر امتناني بتقدم الحركة الصهيونية في الولايات المتحدة وفي بلاد الحلفاء منذ تصريح بلفور المتضمن موافقة انكلترا على تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ووعد الحكومة الانكليزية بانها تساعد ما استطاعت وتضمن الوصول الى هذه الغاية بشرط ان لا يضر هذا العمل بحقوق غير اليهود (العرب) المدنية والدينية من سكان فلسطين او يعبث بحقوق اليهود خارج فلسطين ٠

اما لجنة ويزمن التي أشار اليها الرئيس ويلسون فهي لجنة صهيونية أرسلتها الحكومة الانكليزية الى فلسطين سنة ١٩١٨ ومنحتها سلطة واسعة ، اي ان تكون هذه اللجنة الهيئة الاستشارية للسلطات البريطانية في كل ما يتعلق بالمسائل التي تمس اليهود او التي تمس الوطن اليهودي القومي بموجب تصريح حكومة جلالة الملك ٠ وتنحصر أغراضها في ما يأتي : (١) ان تكون حلقة اتصال بين السلطات البريطانية واليهود في فلسطين ٠ (٢) ان تشترك في توزيع الاحسان على أهالي فلسطين وان تساعد على إرجاع المنفيين من فلسطين واللاجئين اليها ٠ (٣) ان تساعد على تقدم المستعمرات اليهودية وعلى تنظيم السكان اليهود في فلسطين كافة ٠ (٤) ان تساعد المعاهد اليهودية في فلسطين لاعادة عملها ونشاطها ٠ (٥) تسعى لإحكام العلاقة الودية بين اليهود وغيرهم من سكان فلسطين العرب ٠ (٦) تجمع ما تراه مناسباً من المعلومات وتقدم تقريراً فيما يمكن عمله لترقي الاستعمار اليهودي وتقدم البلاد عموماً ٠ (٧) تبحث فيما اذا كان في الامكان تأسيس جامعة عبرية في فلسطين وتختار محلها ، فاختارت جبل سكوبس (الطور) وافتتحتها بوضع الحجر الاساسي بحضور رؤساء الحكومة ٠

ولما غلبت تركيا وحلفاؤها وعقد مؤتمر باريز ، دخلت النهضة الصهيونية في طور جديد فذهب ويزمن وسكولوف الى باريز ليمثلا الصهيونيين ويبينا مطاليبهم وجاء غيرهم من صهيونيي البلاد المختلفة ، وقد سمع مجلس الحلفاء الاعلى اقتراحاتهم في جلسته المنعقدة في ٢٧ شباط سنة ١٩١٩ وهذه هي : اولاً — وجوب اعتراف الدول بحق اليهود التاريخي في فلسطين وشد أزرهم لاعادة بناء وطنهم القومي ٠ ثانياً — ان

تسلم سلطة الحكم العليا في فلسطين الى جمعية الامم وان يعهد الى انكلترا بالوصاية عليها وتكون مسؤولة أمام جمعية الامم . ثالثاً — ان يضاف الى صك الانتداب لحكومة فلسطين الشروط الآتية :

(١) ان توضع فلسطين في أحوال سياسية وادارية واقتصادية يضمن معها تأسيس الوطن القومي اليهودي ، وان يؤول ذلك في النهاية الى ايجاد حكومة مستقلة بشرط ان لا يعمل شيء يعبث بحقوق غير اليهود (العرب) في فلسطين او بحقوق اليهود التي يتمتعون بها خارج فلسطين .

(٢) وللوصول الى هذه الغاية تقوم الدولة الوصية : (ا) بتشجيع الهجرة اليهودية واسكان اليهود في الارض الفلسطينية مع المحافظة على حقوق السكان الحاليين الثابتة من غير اليهود (العرب) .

(ب) تعضيد وكالة يهودية في فلسطين وفي العالم للاشراف على بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين وان يعهد بمراقبة التعليم اليهودي الى هذا المجلس .

(ج) بعد الاقتناع بان قانون هذه الوكالة لا يتضمن جلب الربح الخاص يجب ان يفضل على غيره باعطاء المشاريع الاقتصادية وتمنح له الأولوية في كل امتياز في الاعمال العامة اوفي استثمار الثروة الطبيعية التي تجد الحكومة من الضرورة اعطاءها لها .

(٣) تساعد الدولة الوصية جهد استطاعتها على توسيع الحكم الذاتي للمقاطعات او المراكز الممكن إقامتها بالنظر الى حالة البلاد .

(٤) تعطى الحرية التامة في ممارسة العبادات الدينية لجميع الاديان في فلسطين دون تمييز بين السكان مهما اختلفت جنسياتهم او حقوقهم المدنية .

ولم يقدم اقتراح بادارة الاماكن المقدسة التي رأوا تركها لرأي الدول الكبرى .

وقد طلب ان يدخل ضمن حدود فلسطين المجرى الاسفل لنهر الليطاني وهضاب جبل الشيخ الجنوبية (منابع الاردن) ومن الشرق الجولان ونهر اليرموك وما يليهما من المناطق الجنوبية التي كانت من نصيب فرنسا في اتفاقية سايكس بيكو واعتبرت هذه المناطق أساسية لتقدم الاستعمار في البلاد وأدلوا بحجج تاريخية . فسمع مجلس الحلفاء أقوال الصهيونيين ولم يصدر قراراً حاسماً لانه كان مشغولاً بمسائل أهم من معضلة فلسطين .

كان اليهود واثقين بالحكومة الانكليزية وما خامرهم الشك في صداقتها ولم تحدثهم نفوسهم انها تتأخر عن مناصرتهم او إنجاز ما وعدتهم به ولكنهم قلقوا لانها لم تكن هي وحدها صاحبة الحل والعقد ولذلك كانت هذه الفترة حرجة جداً في تاريخ اليهود فاما ان يقضى لهم او يحكم عليهم . ولقد كان من المنتظر إحداث تغييرات تلائم المطاليب الصهيونية لان الحكومة الافرنسية صدقت على وعد بلفور، ومعاهدة سايكس بيكو بطلت لانحلال روسيا ، الا ان اتفاق الحكومة الانكليزية مع الملك حسين كان له شأن يذكر ، ونشاط الحركة الوطنية العربية في فلسطين ومقاومتهم الصهيونية ، كان لها أثر فقد أسمعت المراجع الايجابية صوتها وعاكست الخطط البريطانية المتحيزة للصهيونيين ، كما ان بعض المقامات الدينية المسيحية أظهرت استياءها مخافة ان يتمكن اليهود من السيادة في فلسطين ، أضف الى هذا ان اليهود اللاصهيونيين في اميركا واوربا كانوا يقاومون الصهيونية بشدة ، فمجموع هذه العوامل أخر سير القضية الصهيونية لكن العاملين الاولين (معاهدة الملك حسين ومقاومه العرب) كان لها الاثر الاكبر في ذلك .

كان العرب يستندون في سياستهم على الامير فيصل (ملك العراق) قائد الجيوش العربية وحليف دول الحلفاء الذي توّج ملكاً على سورية ولم يدم سوى بضعة شهور وكان هذا الامير في بحران سياسي يتنازعه عاملان متناقضان ، احدهما العرب الذين كانوا يطلبون اليه بشدة مقاومة الصهيونية ، والعامل الثاني بعد نظره الذي جعله يسعى باخلاص للتعاون مع قواد الصهيونيين ، فتحرج مركزه بين هذه المطالب المتناقضة ، وغلب عليه العرب فلم يرض عن تأسيس وطن قومي يهودي في فلسطين ، ثم عدل عن هذا الرأي وأرسل كتاباً الى الاستاذ فيلكس فرنك فرتر احد زعماء اليهود الاميركان ، هذه خلاصته : « اننا نشعر أن العرب واليهود هم ابناء عم في الجنس وانهم تحملوا اضطهادات متشابهة من الدول القوية ، وقد ساعدهم حسن الطالع بان يتمكنوا من الصعود معاً الى الدرجة الاولى من سلم آمالهم الوطنية ، ونحن العرب وخاصة المتعلمين ننظر برغبة شديدة الى النهضة الصهيونية ، وقد اطلع وفدنا في باريز الآن على الاقتراحات التي قدمتموها أمس الى مؤتمر السلام ونحن نعتبر ان

هذه الاقتراحات معتدلة ولائقة ، وسنعمل جهدنا وما في وسعنا لمساعدة اليهود ابداً ونتمنى لهم وطناً ينزلون فيه على الرحب والسعة . واني أتطلع وشعبي ايضاً الى مستقبل نستطيع فيه ان نتبادل التعاون لتصبح البلاد التي نشترك في الاهتمام بها ذات مركز بين الامم المتمدنة في العالم » .

لقد حدثني أحد أخصاء الملك فيصل ان الكولونيل لورنس قدم اليه كتاباً باللغة الانكليزية وطلب منه ان يوقعه ففعل دون ان يعرف ما فيه لانه كان موضع ثقته ... !! وعلى كل فالملك فيصل مسؤول سواء عرف ما تضمنه الكتاب او لم يعرف ولكن اذا نظرنا بحكمه نجد انه لم يفد الصهيونيين الا باتخاذه حجة على رضى العرب عن الصهيونية .

وقد مرت الايام واليهود يبذلون جهودهم لحل معضلة فلسطين المعقدة فلم يتوصلوا الى حل مرضي لان بعض الدول رفضت قبول مبادئ الرئيس ويلسون وبعضها ترددت مساومةً . وأخيراً اختلف اليهود والادارة العسكرية في فلسطين وتظاهروا ان البلاد بلادهم وما على العرب الا ان يرحلوا عنها ، فثارت ثائرة العرب وتمردت روحهم الوطنية ووقفوا بالمرصاد للصهيونيين فاتفق ان كانت جماهير جبل الخليل قادمة الى القدس للاشتراك في موسم النبي موسى سنة ١٩٢٠ فتحرش بهم اليهود تحرشاً اعتبره أهل الخليل اعتداءً فهاجموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وما كاد البرق يتناقل هذه الحادثة الى سان ريمو حيث كان وزراء بريطانيا وفرنسا وايطاليا مجتمعين لتقرير صورة المعاهدة التي ستقدم الى تركيا والتي لم يكن فيها نص على فلسطين سوى ان تسلم بها تركيا الى الحلفاء وهم يفعلون بها ما يرونه مناسباً . وقد كانوا ينوون تأجيل النظر في مسألتها وتعيين شكل حكومتها النهائي ولكن حوادث القدس التي ربما كانت مدبرة من اليهود او الحكومة غيرت هذا المنهج وأسرع الحلفاء في تصفية الخلاف بينهم وبحثوا في فلسطين واعترفوا بمطالب الصهيونيين وأضافوا فقرة الى المعاهدة المصدقة في سان ريمو والتي وقّع عليها الاتراك والحلفاء في سان ريمو بعد أشهر قليلة وهذه هي الفقرة :

توافق الدول الموقعة على هذه المعاهدة بموجب المادة ٢٢ من صك الانتداب

وتعهد بادارة فلسطين بالحدود التي ستقررها دول الحلفاء الى دولة وصية تختار من الدول المذكورة وتكون الدولة الوصية مسؤولة بتنفيذ التصريح الذي فاه به بلفور في ٢ شباط سنة ١٩١٧ بالنيابة عن الحكومة البريطانية والذي وافقت عليه دول الحلفاء والوارد فيه تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين على ان لا يمس حقوق العرب المدنية والدينية ولا المركز السياسي الذي يتمتع به اليهود خارج فلسطين ·

وقد تقرر ايضاً في سان ريمو بناءً على أماني الصهيونيين ان تكون الحكومة الانكليزية الحكومة الوصية على فلسطين · فأبدلت الحكومة الانكليزية الادارة العسكرية في فلسطين بادارة مدنية وعينت على رأس هذه الادارة السر هربرت صموئيل (الصهيوني الصميم) الذي كان زار فلسطين ليدرس المشاكل الاقتصادية والسياسية فيها ، فجاء صموئيل وتولى منصبه مندوباً سامياً في فلسطين في ١ حزيران سنة ١٩٢٠ فقاطعه الوطنيون وجافوه ولكنه باشر بتأسيس ادارة مدنية وجابهه مشكلتان صعبتان وهما : (١) الحدود (٢) مواد الانتداب ، وحلت هاتان المشكلتان بالتدريج وفي المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا ، اما الحدود التي اقترحها الصهيونيون أمام المجلس الاعلى فلم توافق عليها فرنسا لانها أصرت على الحدود المقررة في معاهدة سايكس بيكو وبعد مباحثات طويلة تنازل الفرنسيس عن مقاطعة المطلة وبانياس اما صور وصيدا والمجرى الاسفل لنهر الليطاني ومنابع نهر الأردن والشاطئ الشرقي لبحيرة طبريا والجولان واليرموك فقد أُخرجت منها خلا عدة أميال أُضيفت الى فلسطين من شاطئ اليرموك الغربي قبل ان يصب في الأردن ·

وقد قابل اليهود هذا الحل باستياء شديد لانهم رأوه يؤثر في استعمار البلاد ويضر بفلسطين وسورية · وأظهر الفرنساويون انهم لن يتنازلوا عن مطالبهم الا اذا توفقت انكلترا وفرنسا الى تعديل الاتفاق فيعطى الى فلسطين ما يزيد من مياه الأردن الشمالي واليرموك لتنتفع منها بتوليد قواها الكهربائية او استعمالها في ري الارض وغير ذلك · وهكذا قد أُضيف الى صك الانتداب بعض ما يتطلب اليهود وما يعود عليهم بالنفع ، وقد قدم صك الانتداب في كانون الاول سنة ١٩٢٠ الى عصبة جمعية الامم لاقراره فتأخروا لان معاهدة تركيا في سيفر لم يكن صدق عليها ·

كما ان الولايات المتحدة قد امتنعت ان تكون طرفاً في معاهدة السلم واقتصرت مطالبها من فلسطين على ان تكون حقوقها التجارية مضمونة ·

وكاد هذا التأخير يجعل مستقبل فلسطين السياسي غامضاً لان المفاوضات سارت ببطء ولم تنته حتى تموز سنة ١٩٢٢ حين بحث في الوصاية وصدقت عليها عصبة جمعية الامم ·

وفي صيف سنة ١٩٢١ كان عدل صك الانتداب بشأن شرقي الاردن بفقرة هذا نصها : ان للدولة الوصية الحق بتأجيل او عدم تنفيذ بعض المواد الواردة في صك الانتداب الذي يتعلق في شرقي الأردن ، وهكذا خرجت الصهيونية رابحة بعض الربح من الحرب ولكن أعمالها لم تصطدم بقوة عملية بعد ، وانها وان كانت الآن في دور المد فسيأتي عليها دور الجزر فلا يجد رجالها مأوى يعودون اليه و يندمون على ما فقدوه من تجانسهم باهالي البلاد الذين عاشوا واياهم دهراً طويلاً اه ·

* * *

الصهيونية بعد الحرب

وضعت الحرب أوزارها وكل أمة تنتظر ان يصيبها قسط وافر من حقوقها المسلوبة · فكان اليهود المشتتون في أقطار العالم يتلمسون بصيص تصريح بلفور و ينظرون اليه نظرهم الى صك هبة او بيع قطعي يخولهم امتلاك فلسطين ، فشمخت أنوفهم وأعلن قوادهم ان فلسطين يهودية كما ان انكلترا انكليزية ، وما على العرب الا ان يرجعوا الى جوف جزيرتهم ، ونشروا راياتهم بكثرة وفي كل مكان وانشدوا نشيدهم القومي ، وأخذت الحكومة تصطبغ بالصبغة اليهودية فتولى رئاستها صهيوني صميم ورئاسة النيابات صهيوني متطرف وتغلغل الصهيونيون في جميع الدوائر وسيطروا على الادارة العامة وصارت اللغة العبرية لغة رسمية ، وظنوا انهم سيأتي الى فلسطين الوف من اليهود بسرعة يؤلفون الاكثرية الساحقة ثم ينشئون دولة يهودية تتم بها النبوات القديمة ، ولم يعلموا ما يقابلهم من الصعوبات والعراقيل في تحقيق أمنيتهم ، وتجاهلوا ان البلاد يسكنها ثلاثة ارباع مليون عربي يملكون أرضها و يستغلون مواردها ، فعبثوا بالرأي العام الانكليزي وتهاونوا

في ايجاد عمل للمهاجرين وعجزوا عن إعداد سبيل المعيشة لهم فوقعت في أزمة اقتصادية وبقي قسم كبير من المهاجرين مدة طويلة بلا عمل ٠

اما الشعب العربي الجريء فانه كان ينتظر من الحلفاء انصافاً لا سيما بعد ان انشقوا عن حكومتهم التركية وشاركوهم في الحرب ٠ فكانت نفوسهم تصبو الى الاستقلال التام او على الاقل الداخلي تحت إشراف بعض الدول المخلصة ٠ ولما انقشع ظل الاتراك ظهر الحلفاء بمظهر الجشع وقسموا سورية الى حكومات وأجزاء فأدرك عرب فلسطين ان اليهود يسعون لتأسيس حكومة يهودية في مجرى تنفس جسم البلاد العربية ، فغضبوا وانشأوا الجمعيات الاسلامية المسيحية وألهبوا صدور الاهالي وأثاروا نفوسهم ، فاضطرمت الروح الوطنية بين جوانحهم وعقدوا المؤتمرات واشترك مندوبوهم في المؤتمر السوري في دمشق وأعلنوا ان فلسطين جزء من سورية وأرسلوا وفوداً الى اوربا والحجاز لاستصراخ العالمين الاسلامي والمسيحي فقابلتهم الحكومة الانكليزية بكل جفاء وعبثت بمطاليبهم وغالطت في التعابير الفنية والتفاسير السياسية ، وأصرت على اتباع سياستها القديمة التي ترمي الى فصل العالم الاسلامي والعربي بعضه عن بعض بوضع الصهيونيين حاجزاً بين الشام ومصر والحجاز والشام ٠

وارتاب العرب في الشق الثاني من وعد بلفور الذي يضمن حقوق سكان البلاد الحاليين لانهم رأوا تناقضاً بيناً بين شقي التصريح المذكور ، فلو آمنوا بالشق الثاني وسلموا بمبدإ مهاجرة اليهود الى البلاد وفقاً لنص الشق الاول فان اليهود يصبحون اصحاب الاكثرية المطلقة في مدة وجيزة ، فاذا انسحب البريطانيون عندئذ فكيف يمكن تطبيق الشق الثاني ٠

لا شك ان العرب يقعون هنالك امام مشكل خطير وتصبح الاماكن المقدسة التي بايديهم مهددة بخطر انتقالها الى أيدي أعدائهم لا سيما وانهم يعتبرون أنفسهم والعالم الاسلامي ينظر اليهم بانهم أوصياء يجب ان يحافظوا عليها ، فهاج هائج العرب وأبوا ان يذعنوا لحكم السياسة وتزعزعت ثقة اليهود في تصريح بلفور واحجموا عن الهجرة الى فلسطين فذهب المندوب السامي الى لندن وطلب بياناً من الوزارة بحجة إزالة مخاوف

العرب وقصد تأمين اليهود ليقبلوا على المهاجرة فأُجيب طلبه وصدر بيان في حزيران سنة ١٩٢٢ وهذا ملخصه :

« لم تكن الغاية من تصريح بلفور جعل فلسطين يهودية والقضاء على الشعب العربي ولغته وآدابه او الحط من شأنها ، ولكن الغاية تأسيس وطن لليهود في فلسطين ، وليس للجمعية الموجودة في فلسطين نصيب في إدارة البلاد العمومية كما ان الجنسية التي ستتمتع بها جميع سكان فلسطين تكون جنسية فلسطينية ليس لها علاقة باليهود او غيرهم . ان اليهود أعادوا في المدة الاخيرة بناء طائفة في فلسطين يبلغ عددها ٨٠٠٠٠ نفس يشتغل سدسهم في الزراعة ، ولهذه الطائفة هيئات سياسية خاصة فلها جمعية تنتخب لادارة شؤونها الداخلية ، ومجالس منتخبة في المدن ، وهيئة تشرف على مدارسها ولها رئيس حاخامين منتخب ومجلس رباني (محكمة شرعية) لادارة امورها الدينية ، وقد راجت لغتها العبرية وأصبحت لغة رسمية في دوائر الحكومة ، ولها صحافة عبرية تفي بحاجاتها . ويقصد من هذا العمل ن تتقدم الطائفة اليهودية الحالية بمساعدة اليهود المنتشرين في العالم ليجعلوا البلاد مركزاً يكون فيه للشعب اليهودي أجمع مميزات قومية . وليعلم العرب ان مجيء اليهود الى فلسطين هو حق ثابت لهم لا منة يمنّ بها عليهم وقد سمح لهم بزيادة أفرادهم بالمهاجرة بقدر تحمل البلاد الاقتصادي » .

وقد عرض هذا البيان قبل نشره على الجمعية الصهيونية فوافقت عليه ، ثم عرض على وفد العرب الفلسطيني في لندن فحاول تعديل بعض فقره فلم ينجح ، فزاد كره العرب لليهود واشتدت المعارضة للصهيونيين .

وكانت البلاد تمشي الى الانحطاط بمساعي المندوب السامي تطبيقاً للفقرة الواردة في صك الانتداب وهي وضع البلاد في حالة اقتصادية وسياسية لافقارها وانتزاع الاملاك من أهلها ، فمنع تصدير الشعير حتى هبط سعره وخسر الاهالي خسارات باهظة ، وعمل أعمالاً أخرى أدت الى استياء العرب الشديد الذي طورته السياسة الصهيونية وأحالته الى كوارث فظيعة قصدت استغلالها فحدثت الثورات الآتية .

✲ ✲ ✲

ثورتا القدس } لكل بلاد اعياد ، وفلسطين منبع هذه المواسم ، فقد اشتركت فيها جميع الاديان . وموسم النبي موسى هو اعظم المواسم اذ يصادف عيد الفصح عند الطائفتين المسيحية واليهودية ، فالبلاد العربية الاسلامية البعيدة لها مواسم مستقلة من عهد المؤسس صلاح الدين الايوبي والبلاد القريبة تأتي متتابعة الى القدس ، وبلاد جبل الخليل اعلق الناس بهذه العادة ، فانهم يأتون بكثرة وجموع متراصة ينشدون الاهازيج البدوية الثورية ، فلما قدموا الى القدس في يومهم المعروف تحرش بهم اليهود فهيجوهم واثاروا حفيظتهم فحصلت معركة قتل فيها عشرة اشخاص من الفريقين وكسرت ابواب دكاكين اليهود ونهبت بضائع ليست بقليلة واضطربت القدس واعلنت فيها الاحكام العرفية .

اما الثورة الثانية فسببها ان اليهود اتخذوا يوم تصريح بلفور الواقع في ٢ تشرين الثاني عيداً لهم يتظاهرون فيه ويعلنون فيه سرورهم ، فقرر العرب جعله ذكرى حزن وبؤس يقفلون فيه حوانيتهم ويحتجون الى الحلفاء على هذا الظلم ، وفتيانهم يطوفون الشوارع وينشدون اناشيد الرثاء الوطنية فمانعتهم الشرطة وضُرب بعضهم فاهاج كامن حقدهم واصطدموا باليهود وقتل بعض اشخاص ونهب المتاع .

* * *

ثورة يافا } يمكن ان نعد ثورة يافا ثورة سياسية تجلت فيها الروح العربية بكل مظاهرها . واسبابها ان فرع حزب بوعالي صهيون في يافا انضم الى حزب الاشتراكيين المتطرفين المعروفين (بالموبس) والذين من مبادئهم « ان القاء النزاع بين الطبقات اهم من التمسك بالوطنية والجنسية » . فحاول هذا الحزب الثوري استمالة هيئات العمال اليهود في فلسطين فرفض حزب (احادوت هاعابودا) طلبهم وابى الانضمام اليهم ، فغضبوا وقرروا اعداد تربة فلسطين للثورة الاجتماعية .

وفي خلال تشرين الاول والثاني سنة ١٩٢٠ حدثت قلاقل بين العمال واليهود في يافا حسمت على ايسر حال . وقد نشرت جمعية الموبس اعلانات في انحاء يافا وتل ابيب وطلبوا من جميع العمال الاشتراك في الثورة الاجتماعية ، وان يحتفلوا باليوم السابع من تشرين الثاني العيد السنوي لحكومة السوفيات في روسيا وهذا بعض ماورد

في الاعلانات « ليحيي اليوم السابع من تشرين الثاني يوم العمال الاشتراكيين ، لتسقط فرنسا وانكلترا ، لتحيي الجمهورية الروسية السوفيات ، ليحيي المؤتمر الاشتراكي الثالث لتحيي فلسطين الاشتراكية ، وحملوا راياتهم الحمر وساروا وفي مقدمتهم السيدة شارلوت روزنتال فحاولوا اكراه عمال اليهود على الاشتراك معهم فوافق بعضهم ورفض الآخرون فاعتدوا على المتعنتين وحصلت معركة بسيطة تدخل فيها الشرطة ثم اوقفت التعقيبات بناءً على امر من حكومة فلسطين فاحتج العرب ومدير الشرطة وحاكم المقاطعة على انتهاك حرمة القانون وطلبوا من الحكومة ان تستعمل الشدة لزج الثوار في السجن فرفضت طلبهم وقررت ان لا تتخذ تدابير أخرى ضدهم .

وفي ١ ايار سنة ١٩٢١ خرج حزب الموبس من ناديهم وعلى صدورهم شارات حمراء وفي ايديهم رايات كتب عليها بخط احمر جملٌ تحض الناس على الثورة وهذا نموذج منها : ليحيي المؤتمر الاشتراكي ، لتحيي النساء الحرة في الجمعية الاشتراكية ، ليحيي اليوم الاول من ايار لتسقط القوة الانكليزية القهرية .... الخ . فتعقبت الشرطة جموعهم المندفعة حتى سالت في شوارع تل ابيب وصادمت اليهود واطلقت عيارات نارية فظنها العرب مظاهرة مقصودة وجهت اليهم وتحسبوا من شرٍ مداهم فتجمهروا للدفاع عن انفسهم ، وسرعان ما اشتبكوا مع اليهود واهرقت الدماء وامتدت الثورة الى الضواحي حيث هوجمت بعض المستعمرات الصهيونية ودام القتال ثلاثة ايام فقتل من اليهود ٤٧ شخصاً وجرح ١٤٦ وقتل من العرب ٤٨ نفساً بما فيهم البدو والقرويون وجرح ٧٣ ، فاعلنت الاحكام العرفية ووضعت غرامات باهظة على الذين اشتركوا في هذه المعركة من العرب وحرق بيت الشيخ شاكر ابو كشك قائد الثورة خارج يافا ، وقد استفاد اليهود من ضباطهم المنخرطين في الجيش اذ ساعدوهم كثيراً ، والبسوا شبابهم ثياباً عسكرية وسلحوهم ببنادق الجند واوهموا العرب انهم جنود انكليزية .

* * *

المهاجرة كان عدد اليهود قبل احتلال الانكليز ٥٥ الف نفس فلما أُبيحت المهاجرة وطم سيلها وتدفقت جموع الصهيونيين واكثرهم من شرق اوربا أُنشئت الحكومة (دائرة المهاجرة والسفر) لتسهيل الهجرة الصهيونية ،

ثم تحولت هذه الدائرة الى فرع خصوصي في ديوان امين السر العام وارسلت الحكومة مأمورين من اليهود على نفقة الوطنيين لتشجيع الهجرة وترويجها فذهب احدهم الى تريستا ثم الى فارسوفيا وفعلوا ما استطاعوا ، وقد بلغ عدد اليهود في الاحصاء الرسمي سنة ١٩٢٢ (٨٤٦٠٠٠) نفس وقدر عددهم في آذار سنة ١٩٢٥ (١٠٨٦٠٠٠) شخص ·

وبعض هؤلاء المهاجرين متدين وبعضهم بولشفيكي وهم فئة قليلة وبعضهم جهلاء متشردون وبعضهم متعلمون ، وكلهم وضع نصب عينيه اخراج العرب من البلاد وامتلاكها وان اكثر من ثلاثة ارباع اليهود يسكنون في المدن والباقي في القرى · وقد بذل اليهود جهوداً كبيرة لمشترى الارض والاستعمار الزراعي في فلسطين بيد ان المهاجرين رغم ماليتهم الشخصية وما يتوارد عليهم من المساعدات الخارجية ومايتبع ذلك من التنظيم ، يألفون المدن ويتركون القرى كما يشاهد ذلك ، وقد دلت الاحصاءآت على ان قسماً قليلاً منهم يحترف الزراعة فالاربعون الف مهاجر الذين دخلوا فلسطين لم يشتغل منهم في الزراعة سوى ثمانيـة آلاف وتسلل الباقون الى المدن الكبيرة مثل القدس ويافا وحيفا ففتحوا الحوانيت المختلفة كالحلاقة وبيع السلع البسيطة واهملوا الزراعة · والذي يعلم ان فلسطين بلاد زراعية وان الزراعة هي المهنة المنتجة الرئيسة فيها يتأكد ان الصهيونيين لم ينجحوا من هذه الجهة كثيراً ·

تقدر مساحة فلسطين بعشرة آلاف ميل مربع تقريباً نصفها جبال قاحلة وارض رملية وصحراء بلقع والنصف الآخر كله قابل للزراعة · فاليهود كانوا يملكون قبـل الحرب نحو ١٧٧ ميلاً مربعاً من مجموع مساحة البلاد وكان لهم ٤٣ مستعمرة · اما اليوم فيملكون نحو ٣١٩ ميلاً مربعاً اي ستة في المائة من مجموع الارض الزراعية ومستعمراتهم بلغت نحو ١٠٠ قرية اكثرها في الساحل وبعضها اشتراكية · فالبيع والشراء والزراعة والاكل والمعيشة كلها مشتركة والعزّاب نساءً ورجالاً ينامون معاً اما المتزوجون فلهم غرف خصوصية ، ويؤخذ الاولاد من والديهم يجعلون تحت المراقبة ويعنى بامرهم لانهم ملك مشترك للمستعمرة · واكثر مستعمرات اليهود تعتمد على المساعدات الخارجية وعلى قروض المصارف ويملك البارون روتشلد ٤٠ ٪ مما يملكه اليهود في فلسطين ·

✲ ✲ ✲

ادارة المعارف } لليهود وفي فلسطين ادارة معارف تشرف على المدارس اليهودية من صهيونية وارثوذكسية وهي مستقلة عن ادارة الحكومة . وقد كان لليهود سنة ١٩١٩ — ١٩٢٠ مائة وعشر مدارس فيها ١١٢٢٠ تلميذاً و ٥٨٤ معلماً وفي سنة ١٩٢١ بلغت مدارسهم نحو ١٣٥ مدرسة فيها ٥٢٣ معلماً و ١٢٨٣٠ طالباً وهي موزعة كما يأتي : في القدس ٣٣ مدرسة وفي يافا ١٧ وفي حيفا ٦ وفي طبريا ٤ وفي صفد ٤ وفي المدن الاخرى ٧ و ٥٨ في مستعمراتهم و ٦ في سورية .

و يقدرون ان ٨٣ ٪ من ابناء اليهود في فلسطين يتعلمون في المدارس اليهودية ، و يندر ان يدخلوا المدارس الاجنبية . اما المدارس اليهودية في فلسطين فمتنوعة فبينما تجد المدرسة الدينية التي تشبه الكتاتيب المعروفة عند العرب ولا تعلم سوى التلمود والتوراة على الاصول القديمة ، تجد من جهة اخرى بساتين الاطفال الحديثة تسير على نظام منتسوري وفروبل . وهي انواع فمنها مدرستان ثانويتان اختلط فيهما الشبان والشابات احداهما في القدس والاخرى في يافا ، ولهم مدرسة صناعية في حيفا ، ولهم دار معلمات في يافا ، ودار معلمين في القدس ولهم مدرسة نيتر الزراعية التي أُسست منذ ٥٠ سنة تقريباً وفيها ١٠٠ طالب وقد كانت تابعة لجمعية الاتحاد الاسرائيلي (الاليانس) فأُلحقت مؤخراً بالجمعية الصهيونية . ولهم مدرسة تجارية في يافا وثلاث مدارس للموسيقى ومدرسة للفنون الجميلة في القدس تدعى هامو ليل . ولغة التعليم في جميع هذه المدارس العبرية و برامجها تشبه برامج مدارس اواسط اوربا مع تعديل طفيف . وهم يشددون الى حد الافراط في الاهتمام بتعليم جغرافية البلاد وتاريخها اليهودي .

ومجموع ما انفقته ادارة المعارف الصهيونية سنة ١٩٢٠ (١٢٠) الف جنيه اي ينفق على كل تلميذ تسعة جنيهات وهو معدل باهظ جداً . ولكن موازنتهم اخذت تتناقص الى ان بلغت ٨٠٠٠٠ جنيه رغم ازدياد الطلاب .

وفوق هذا فقد ساءت الحالة المالية وامتنعت ادارة المعارف الصهيونية عن دفع رواتب المعلمين فتذمروا وانذروها بالاقلاع عن العمل ان لم تجبهم الى مطاليبهم فلم تصغ اليهم وعجزت عن اداء عمالاتهم فأضربوا شهراً كاملاً ثم حل المشكل حلاً سياسياً .

اما الرسوم في المدارس اليهودية فهي عالية جداً فالطالب الخارجي في المدرسة الثانوية يدفع مايقارب العشرين جنيهاً سنوياً لقاء التعليم فقط « تأمل»

وقد أسس اليهود « او بيرا » اسرائيلية الا ان الاقبال عليها قليل لكون لغتها عبرانية و يُقدر ماانفقه اليهود من المال بعد الحرب بستة ملايين جنيه . مليون واحد اشتروا به ارضاً ومليون للصنائع ونصف مليون للمساعدات وثلاثة ملايين ونصف للاستعمار والتهذيب وللامور المختلفة من سياسية وادارية .

✡ ✡ ✡

المصارف والصحف

ان اعظم مصرف لليهود في فلسطين هو بنك انكلوفلسطين الذي كان رأس ماله سنة ١٩٢٠ (١٠٠) الف جنيه وفيه من الودائع ٧٠٠ الف جنيه اما الآن فقد زيد رأس ماله الى ٣٠٠ الف جنيه وقد احتفظ هذا المصرف بار باحه ولم يوزعها منذ سنة ١٩١٤ واسباب ذلك انه اضطر الى تسليف المستعمرين قروضاً لمدد طويلة . وادارة هذا المصرف العليا في لندن وله فروع في امهات المدن الفلسطينية والسورية ولهم غير هذا المصرف مصارف عقارية . وأخرى تسلفهم للبناء وكلها تفضل معاملة اليهود على غيرهم وتعطيهم بفائدة اقل مما تأخذه من العرب .

ولليهود بضع صحف في فلسطين يصدر بعضها باللغة الانكليزية مثل « فلسطين الاسبوعية » « النشرة الفلسطينية » وبعضها يصدر باللغة العبرانية ومنها دَوَار لسان حال العمال وها آرتس ، ودؤار هايوم . وكولي اسرائيل لسان حال الارثوذكس ومجلة هايشوف وغيرها من الصحف التي لاقيمة لها .

✡ ✡ ✡

مشروع روتنبرغ

في ٢١ ايلول سنة ١٩٢١ عقد اتفاق بين وكلاء التاج بالنيابة عن السرهربرت صموئيل المندوب السامي لفلسطين و بين بنيحاس روتنبرغ المهندس الروسي على ان يتمكن روتنبرغ المذكور خلال سنتين من جمع مليون جنيه لشركة تؤسس في فلسطين وان يتمكن من جمع ما لا يقل عن مائتي الف

جنيه نقداً ، فاذا قام بهذه الشروط فالمندوب السامي يمنحه امتيازاً مدة سبعين سنة للاستفادة من مياه الانهار الآتية :

(ا) مياه نهر الاردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافد نهر الاردن التي تقع في الارض التي يسيطر عليها المندوب السامي لفلسطين ٠

(ب) مياه نهر الاردن وحوضه ونهر اليرموك وجميع فروعه وروافد نهر الاردن الخارجة عن الارض الخاضعة للمندوب السامي والواقعة في منطقة الانتداب الافرنسي ٠

وذلك لتوليد القوى الكهربائية وغيرها ٠ ثم رخص له ان يبني على جسر المجامع محطة كهربائية بعد سنة وان يستعمل بحيرة طبريا خزاناً للمياه التي يريد الاستفادة منها وان يبني سداً عليها رفع المياه الى درجة معلومة ، وتنقل هذه المياه باقنية تشاد لهذه الغاية وسمح له ايضاً بان يبني غير تلك المحطات متى رآها ضرورية لتوليد القوى الكهربائية ٠ وان يغير مجرى نهر اليرموك وروافده ويسوقه الى بحيرة طبريا وان يستملك من الارض والابنية ما يراه ضرورياً لهذا المشروع ٠

ومنح ايضاً استثمار نهر العوجاء بالقرب من يافا ٠ وتعهدت الشركة بان تبدأ بالعمل بعد اثني عشر شهراً وان تنجز المشروع في مدة خمس سنوات ٠ لكن عدّل هذا الشرط الاخير ورخص للشركة بتمديد هذه المدة وتعهدت اذا هي تأخرت عن انجاز هذا العمل في الخمس سنوات اوفي المدة التي يعينها المندوب السامي ولم تقم بالعمل تدفع عن كل شهر الفي جنيه لحكومة فلسطين ويحق للمندوب السامي الغاء هذه الاتفاقية ٠

* * *

نظرة في نجاح الصهيونية { اصلاح شيء اصابه البلى اسهل من خلق شيء من العدم ، والصهيونية مهما تقدمت فانها فكرة خيالية لاحقيقة لها اوجدها هوى بعض اليهود المنتشرين في الارض لاستيطان بلاد اجتازوا بها وسكنوها ردحاً من الزمن ثم جلوا عنها كما فعل العرب في الاندلس ، والفرق بين الحادثتين كبير لان العرب غرسوا مدنية فأزهرت واينع ثمرها فانظروا بعدهم الى الحمراء ، اما اليهود فقد زالت آثارهم واندرست مدنيتهم الساذجة ٠ فمطالبتهم بالرجوع الى هذه البلاد من الصعوبة بمكان ٠ (١) لامحاء قوميتهم ٠ (٢) لتشتيت نزعاتهم وتقاليدهم

(٣ً) اليهود يجمعهم الدين وتفرقهم الامم فلهم دين واحد ولكنهم امم شتى . (٤ً) لايجتمعون تحت وحدة ولا يسيرون في منهج . (٥ً) البلاد يمتلكها اصحابها وهم جزء من محيط عربي عظيم .

فاليهود وان تقدموا قليلاً فلا إخال نجاحهم الاموقتاً ولوساعدتهم بريطانيا ودول الغرب لان كل حركة ليست طبيعية ودافعها غير عقيدة صادقة فعاقبتها الفشل . اما اعمال اليهود خارج فلسطين بعد الحرب فانهم انصرفوا لاقناع اور با بان العرب راضون عنهم وعقدوا بعض مؤتمرات وعدّلوا بعض خططهم وجمعوا اموالاً جمة وتوددوا الى البلاد المجاورة لهم وطاف دعاتهم على الاقطار التي يسكنها اليهود واكتفوا بحصر قواهم العملية داخل فلسطين ومراقبة الحركات السياسية الدولية العالمية[1] اه .

* * *

الخاتمة — في نيسان (١٩٢٥) خطب اللورد اللنبي المعتمد البريطاني في مصر في حفلة مقابر الحرب البريطانية في غزة خطبة ذكرفيها السامعين بان هذه البقعة جرت عليها معارك حربية قديمة وحديثة واثنى على الابطال البريطانيين الذين ضحوا نفوسهم فطردوا الاتراك في محاولاتهم الثلاث . وقد ذكر بعضهم ان قتلى البريطانيين في البقعة التي حارب بها شمشون في غزه خمسة آلاف جندي .

وفي هذا الشهر وقعت فتنة بين اهالي قرية العاليات من عمل حمص بعضهم مع بعض وبينهم وبين الحكومة انتهت بقتل اربعين نفساً وثمانية واربعين جريحاً ويقال ان خمس أسر فنيت على بكرة ابيها والسبب في ذلك ان رجلاً من العلويين اسمه شعبان من اهل وادي البرغل من عمل اللاذقيــة قام منذ السنة الماضية يدعو النصيرية الى ادخال الاصلاح على مذهبهم ، وتعاليمه تدور على روحانية الامام علي بن ابي طالب

(١) المصادر : المعلمة الانكليزية . المعلمة اليهودية . يقظة فلسطين « لشتين » . تاريخ الصهيونية (لسوكولوف) . تاريخ الصهيونيــة لروحي بك الخالدي مخطوط . تقرير مندوب فلسطين السامي . تقرير قاضي القضاة في فلسطين . مناشير الحكومة الرسمية . معلومات خصوصية من الدوائر الرسمية ، جرائد فلسطين .

في الالوهية ، وتخطئة من يزعم وجوده في الشمس كالشماليين او القمر كالكلازيين وقد اوجب على اتباعه صيام رمضان والصلوات الخمس وتعليم النساء خلافاً لما جرى عليه الاسلاف في المذهب العلوي من حظر التدين على النساء فانقاد الى رأيه كثيرون ولا سيما عشيرة المتاورة ولما كان قد بقيت بعض البيوت في قرية العاليات لم تتمذهب بمذهبه وقع بينها وبين من دانوا به خصام ادى الى القتل وتدخل الحكومة .

وفي سلخ ذي الحجة حدث اختلاف بين السلطة المنتدبة وزعماء جبل الدروز ادى الى نفي بعضهم الى اصقاع من بلاد الشام ونشبت فتنة بين الدروز والحامية ادت الى قتل بضع مئات من الفريقين ، وخربت السلطة بضع قرى بالقنابل التي قذفت بها من الطيارات والمدافع ، ودخلت السنة الجديدة ولم تعرف نتائج هذه الوقائع وسكان الجبل تزداد كل يوم رابطتهم . وقيل ان لليد الاجنبية يداً في اثارة هذه الفتنة و يؤكد العارفون ان منشئها من ضعف الادارة وعدم معرفة طبائع القوم .

* * *

يقف القلم عند هذا الحد من تدوين التاريخ السياسي في الشام الى سلخ ذي الحجة سنة ثلاث واربعين وثلاثمائة بعد الالف للهجرة الموافقة لسنة خمس وعشرين وتسعمائة والف للميلاد ، و يصعب الآن اصدار الحكم الاخير على حال الشام في هذا الدور ، دور الانتداب البريطاني في فلسطين وعبر الاردن ، والانتداب الافرنسي في سورية الداخلية وساحل الشام او لبنان وما اليه من بلاد العلويين لان الانتدابين مابرحا في طور التجربة في الادارة . وقد انفقت كل من بريطانيا وفرنسا على الانتداب وعلى الجيوش اللازمة لها في البلاد التي انتدبوا لتدربها على الحكم الذاتي عشرات الملايين من الليرات وما زال الشام يئن و يشكو من تفريقه وتمزيقه .

التقاسيم الادارية الحديثة

نقاسيم القدماء قبل الاسلام

كان الشام ينقسم في تقاسيمه الادارية بحسب مصلحة المتغلبين عليه وعمران البلاد ، ولما كان يطلق عليه اسم آرام كان يقسم الى عدة اقسام مثل ارام صوبا وارام معكة وارام بيت رحوب وارام دمشق وفدان دمشق وهي اقسام مملكة ارام ، وكانت دمشق قصبتها ، اي انهـا كانت منقسمة بين ملوك كثيرين كملوك دمشق ورحوب وصوبة وجشور على ما يفهم من رواية التوراة ٠ واراد الرومان اضـافة فلسطين الى ولاية سورية الرومانية سنة ٦٦ ب٠م ولما نظم اغسطس قيصر مملكته وصارت سورية ولاية امبراطورية عاصمتها انطاكية احتفظت بعض مقاطعاتها باستقلالها فكانت خلكيس (عين جر او عنجر) مملكة صغيرة ، وابيلينه (وادي بردى) رياسة ربع ، ودمشق مستقلة بعض الاستقلال الى ايام نيرون ٠ ووسد امر اليهودية لوالٍ كان له بعض الاستقلال في حدود ولايته تحت ادارة والي سورية ، وكانت تدمر مستقلة في سلطانها الى سنة ١١٤م واضاف الامبراطور تراجان الاصقاع الواقعة ما وراء الأُردن ، وقضى على مملكة النبطيين وجعلها حكومة ممتـازة سماها الولاية العربية وجعل بصرى عاصمتها ٠

وقسم ساويرس الروماني سورية الي قسمين وجعل القسم الاول الى الشمال ، وفيه سورية الكومجانية وسورية المجوفة اي السهول التي على ضفتي العاصي الى انطاكية والبحر وما بين اللكام ولبنان ، والقسم الثاني في الجنوب والشرق وفيه سورية الفينيقية والشطوط البحرية وشرقي لبنان الى وسط البرية وفيه بعلبك وحمص ودمشق وتدمر٠ وانقسمت مملكة الشام بعد مقتل ديمتريوس الى قسمين ملكت كلوبطرا في عكا وجنوب

المملكة وملك زينبا في انطاكية وشمالها وكانت الشام مقسومة الى قسمين سورية وفلسطين واطلق اسم سورية على الاثنين منذ اضافتها الى المملكة الرومانية قبل المسيح بمدة .

* * *

اجناد الشام وتقسيم العرب

وقسم الاوائل الشام خمسة اقسام الاول فلسطين ومن مدنها ايليا وهي بيت المقدس وعسقلان ولد ونابلس وحبرون اي الخليل والثاني حوران ومدينتها العظمى طبرية ، والثالث الغوطة ومدينتها العظمى دمشق ، والرابع حمص ، والخامس قنسرين ومدينتها العظمى حلب وهو اشبه بتقسيم العرب للبلاد الى خمسة اجناد اي خمسة فيالق ، وهي جند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند دمشق ، وجند حمص ، وجند قنسرين .

قال بعضهم: سمى المسلمون فلسطين جنداً لانه جمع كوراً وكذلك دمشق وكذلك الأردن وكذلك حمص مع قنسرين . وقال بعضهم: سميت كل ناحية لها جند يقبضون اطماعهم بها جنداً وذكروا ان الجزيرة كانت الى قنسرين فجندها عبدالملك بن مروان اي افرادها ، فصار جندها يأخذون اطماعهم بها من خراجها ، وان محمد بن مروان كان سأل عبد الملك تجنيدها ففعل ، ولم تزل قنسرين وكورها مضمومة الى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وانطاكية ومنبج وذواتها جنداً . وافرد الرشيد قنسرين اي كورة حلب بكورها فصيرها جنداً واحداً .

ومعلوم ان العرب اطلقوا اسم الشام على سورية وفلسطين معاً وهذه القسمة اي قسمة الشام الى قطرين لاتوافق عليهما الطبيعة كما قال العارفون من علماء الجغرافيا المحدثين لانهما شيء واحد وما هي الا اعتبارات سياسية صرفة وهو تقسيم موضوع على التعارف كما قال المقدسي ، وقد قسم الشام الى ست كور وقال : فان قال قائل لِمَ جعلت قصبة الكورة حلب (اي لم تجعلها قنسرين كما كان مصطلح العرب الى القرن الثالث) وههنا مدينة على اسمها قيل له قد قلنا ان مثل القصبات كالقواد والمدن كالجند ولا يجوز ان نجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بهـا وجمع الدواوين اليها وانطاكية ونفاستها و بالس وعمارتها اجناداً لمدينة صغيرة اي قنسرين التي وصفهـا بانها مدينة خف اهلها .

التقسيم في عصر الصليبيين والمماليك

وما زال تقسيم الشام الى اجناد مدة الأمويين وطرف صالح من عهد العباسيين ، ويفرق العمال الذين ينصبونهم على البلاد بحسب ما يرون فيه المصلحة ، دام ذلك الى القرن الخامس فكانوا يقطعون بعض الاعمال ويدعونها ممالك فكانت صرخد مملكة والزبداني مملكة وحمص مملكة وحماة مملكة وحلب مملكة . وهذا التقسيم مختل بالطبع لاختلال احوال البلاد بالحروب الصليبية قال القلقشندي: قواعد الشام ست كل قاعدة منها تعد مملكة بل كانت كل قاعدة منها مملكة مستقلة بسلطان في زمن بني ايوب وهذه القواعد الست العظام هي دمشق وحلب وحماة وطرابلس وصفد والكرك . بل كانت الغوطة والمرج من عمل دمشق ولاية رأسها كما كان الجبل ووادي بردى وبيوس ولاية وكما كانت بيت لهيا في الغوطة ولاية على عهد الامويين .

ولما جاء دور المماليك اصبحت الشام تقسم الى قسمين جنوبي وشمالي ويعين لكل منهما كافل اي والٍ يقيم كافل القسم الاول في دمشق ويقال له كافل الممالك الشامية وينزل عامل القسم الثاني في حلب ويقال له كافل الممالك الحلبية . وفي سنة ٧٦٨ جعل الملك الاشرف من ملوك الترك حلب اكبر من دمشق كما كانت على القاعدة القديمة وعد الظاهري سبع ممالك في الشام في القرن التاسع وهي المملكة الشامية والمملكة الكركية والمملكة الحلبية والمملكة الطرابلسية والمملكة الحماوية والمملكة الصفدية والمملكة الغزاوية .

وكان لدمشق اربع صفقات غربية وهي الساحلية والقبلية والشمالية والشرقية ففي الصفقة الاولى وهي الغربية عشر نيابات وخمس ولايات . فاما النيابات فمنها غزة والقدس والولايات فمنها ولاية الرملة واللد وقاقون وبلد الخليل ونابلس . واما الصفقة القبلية وهي الثانية ففيها نيابات وثمان ولايات ، فاما النيابات فالاولى منهما نيابة قلعة صرخد ونيابة عجلون . واما الولايات فالاولى ولاية بيسان وولاية بانياس وولاية قلعة الصبيبة وولاية الشعراء واذرعات وحسبان والصلت وبصرى . والصفقة الشمالية وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات . فاما النيابة فبعلبك واما الولايات فالاولى ولاية البقاع البعلبكي والثانية ولاية بيروت والثالثة ولاية صيدا ، والصفقة الرابعة الشرقية وبها ثلاث

نيابات واربع ولايات . وهناك نيابات حلب ونيابة طرابلس ونيابة صفد وولاية تبنين وهونين وولاية الشقيف الى غير ذلك من مصطلح القرن الثامن للهجرة .

* * *

على عهد العثمانيين } ولما جاء العثمانيون قسموا الشام ثلاث نيابات او ايالات وهي دمشق وحلب وطرابلس وظلّ هـذا التقسيم الى مابعد عهد السلطان احمد فكانت دمشق وهي أعظمها عبارة عن عشرة الوية واهمها القدس وغزة ونابلس وتدمر وبيروت وصيدا وولاية طرابلس خمسة الوية وهي طرابلس وحماة وحمص وسلمية وجبلة . وقسمت حلب تسعة الوية تتناول سورية الشمالية برمتها ما عدا عينتاب التي كانت تابعة لولاية مرعش وفي سنة ١٦٦٠ م احدثت الدولة ولاية جديدة وهي صيدا لمراقبة الجبـل . وقد امتدح الجنرال دي تورسي من طرز الادارة التي منحها سليم الاول للشام وهي التي كان عليها العمل في الاكثر الى خروج الاتراك من هذا القطر ، وذكر بعضهم ان الشام كانت على عهد اوائل الحكم العثماني اربع ايالات كبرى وهي دمشق وحلب وصيدا والقدس وان تقسيمها الى ثلاث ايالات كما مر حدث بعد زمن .

وفي سنة ١٢٧٢ هـ كانت الشام تقسم ايالتين ايالة دمشق وايالة صيدا ولما نظمت الولايات على اسلوبها المتعارف اخذ لواء الرها (اورفة) من الجزيرة ولواء مرعش من الاناضول والحقا بحلب فجعلت ولاية وجعلت بقية الشام ولاية جسيمة حاضرتها دمشق . وأُنشئت القدس لواء مستقلاً سنة ١٨٧٠ تفاوض الباب العالي في الاستانة مباشرة وكانت بعد خروج المصريين (١٨٤٠) تُجعل القدس تابعة لايالة صيدا تارة وطوراً تابعة للباب العالي واصبح لبنان مؤلفاً من اقضية الكورة والبترون وكسروان والمتن والشوف وزحلة وجزين وظلت بيروت وطرابلس ونابلس واللاذقية وعكا واعمالها تابعة لولاية دمشق ، وبقي مركز الجيش دمشق على ما كان عليه قبيل دخول ابراهيم باشا . وفي سنة ١٨٨٧ جعلت القدس متصرفية مستقلة وجعلت الكرك اي ما وراء الاردن متصرفية برأسها وجعلت بيروت سنة ١٨٨٨ ولاية مستقلة عن دمشق لموقعها الاقتصادي واضيفت اليهـا عكا ونابلس واللاذقية وطرابلس وصور وصيدا

ومرجعيون • وكان لبنـان جعل منذ سنة ١٨٦٠ مستقلاً استقلالاً ادارياً يتولاه متصرف من الباب العالي برتبة وزير وتصادق على تعيينه الدول الست العظمى •

ويوم جلا الاتراك عن الشام كان يقسم الى ثلاث ولايات وهي دمشق وحلب وبيروت وثلاثة الوية مستقلة اي ولايات صغيرة مستقلة تفاوض الباب العالي مباشرة وهي القدس ولبنان ودير الزور • واصطلح في فلسطين اولاً على جعلها اربعة الوية وهي لواء القدس ويافا ولواء الجليل ولواء السامرة واللواء الشمالي • وجعلت المدن الاربع دمشق وحلب وحماة وحمص وما يتبعها دولة قسمت الى عدة الوية وهي الكرك وحوران ودمشق وحمص وحماة ودير الزور وحلب والاسكندرونة واستقل لواء اللاذقية •

* * *

تقاسيم فلسطين

وبحسب التقاسيم الادارية الاخيرة تقسم حكومة فلسطين الى ثلاثة الوية وهي (١) لواء القـدس ويافا ومركزه القدس (٢) اللواء الجنوبي ومركزه غزة (٣) اللواء الشمالي ومركزه حيفا • ويقسم لواء القدس ويافا الى سبعة اقضية وهي قضاء القدس ورام الله واريحا وبيت لحم ويافا والرملة • وليافا امتياز شبيه باستقلال اداري • ويقسم اللواء الجنوبي الى اربعة اقضية وهي قضاء غزة والمجدل وبئر السبع والخليل • ويقسم اللواء الشمالي الى عشرة اقضية وهي قضاء حيفا وعكا وزمارين والنـاصرة وطبرية وصفد ونابلس وطولكرم وجنين وبيسان •

* * *

تقاسيم الشرق العربي

ونقسم حكومة الشرق العربي الى اربعة الوية وهي (١) اي شرقي الاردن لواء عمان ويتبعه قضاء مادبا وناحية الزيزة ومركزه عمان • (٢) لواء الصلت ومركزه الصلت • (٣) لواء اربد ومن عمله اقضية جبل عجلون وجرش وأم قيس ومركزه اربد ، ويتبع المركز رأساً ثلاث نواح وهي الرمثا والكورة والغور ، ومن عمله قضاء جرش ناحية الزرقاء (٤) لواء الكرك ويتألف من قضاءي الكرك والطفيلة ويتبع الكرك مباشرة ثلاث نواح : المزار ، السماكية ، الغور وقد اضيفت العقبة ومعان الى الشرق العربي حديثاً •

دولة سورية } وتقسم دولة سورية الى سبعة الوية وهي لواء (١) دمشق و (٢) حوران و (٣) حمص و (٤) حماة و (٥) حلب و(٦) دير الزور و(٧) الاسكندرون · و يقسم لواء دمشق الى ستة اقضية وهي (١) قضاء دوما وفيه ناحيتان « تل منين » و « دير سلمان » (٢) قضاء جيرود وفيه ناحية القطيفة و (٣) قضاء النبك وفيه ناحية يبرود و (٤) قضـاء الزبداني و (٥) وادي العجم وفيه ثلاث نواح وهي الطيبة ومركزها زاكية و« بيت جن » و « الديرعلي » (٦) القنيطرة وفيه ناحية مجدل شمس ·

ولواء حوران وبالمحق بمركزه ناحيتا بصري وطفس و يتبعه قضاءآن ازرع والزوية وفي قضـاء ازرع خمس نواح وهي نوى ، المسمية ، الصنمين ، اللجاه الجنوبيـة ، اللجاه الشمالية ·

ولواء حمص ومن عمله خمس نواح وهي حسية ، الرستن ، عين ظاظ ، القصير ، جب الجراح · و يتبع حمص قضاء واحد وهو « القريتين » وفيه ناحية تدمر و يتبع لواء حماة ثلاث نواح وقضاء واحد فيه ثلاث نواح ايضاً فنواحي اللواء طار العلا ، الحميرة بارين والقضاء سلمية وفيه ثلاث نواح ، عين كاسون ، عقيربات ، معرشحور ·

لواء حلب و بالمحق به عشرة اقضية (١) جرابلس ولها ناحيتان ناحية قلقوم وناحية جسرين و (٢) جبل سمعان وفيه ثلاث نواح عذان الزربة ، ابو الظهور و(٣) الباب وفيه ناحيتا دير صافر ، صوسنباط و(٤) المعرة ولها ناحيتان الاندرين ،خوين الكبير و (٥) اعزاز وفيه ناحية نبين و(٦) منبج وفيه ناحيتان ابو قلقل ، مسكنة و (٧) كرد طاغ وله اربع نواحٍ ناحية فاطمة ، الجوم ، راجو ، بلبل و(٨) حارم وفيها اربع نواحٍ كفر تخاريم ، باريشا ، سلقين ، ترمانين و(٩) جسرالشغور وفيها ناحيتان درکوش، المضيق و(١٠) ادلب وفيها ثلاث نواحٍ أريحا ، سرمين ، معرة مصرين وأُطلق على لواء حلب اسم ولاية حلب ·

ويقسم لواء دير الزور الى ستة اقضية جعلت مراكزها الآن (١ً) دير الزور · (٢ً) الرقة · (٣ً) الميادين · (٤ً) البوكمال ·(٥ً) حسنجة · (٦ً) كرو · و يقسم قضاء دير الزور الى اربع نواح مراكزها في دير الزور و كسره ومراط وسوار · وقضاء

الرقة الى خمس نواح مراكزها الرقة وخربة الرز ومرابط وابو هريرة وسبخه . وقضاء الميادين الى ناحيتين مركز احداهما ميادين والثانية عشارة . وقضاء البوكمال الى ناحيتين مركز احداهما البوكمال والثانية الصلاحية . وقضاء حسنجة الى اربع نواح مراكزها في شدادي وحسنجة ورأس العين وعاموده . وقضاء كرو الى ثلاث نواح مراكزها كرو وعزنور وديرون اغا .

* * *

دولة جبل الدروز } وتقسم دولة جبل الدروز الى ثلاث عشرة ناحية وهي عري ، القرية صرخد ، ملح ، سالة ، المجدل ، نجران عاهرة ، وادي اللوى ، الهيت ، شهبة ، سليم ، نمرة . ومركز الدولة قرية السويداء .

* * *

دولة لبنان الكبير } يقسم لبنان الكبير الى احدى عشرة محافظة وتقسم كل محافظة الى مديريات وهي (١) محافظة صيدا ومركزها مدينة صيدا ومن عملها مديرية النبطية ومديرية عدلون ومديرية جزين (٢) ومحافظة صور مركزها في مدينة صور ويتبعها مديرية تبنين ومديرية علما ومركز المحافظة مدينة صور (٣) محافظة مرجعيون مركزها الجديدة ومن عملها مديرية حاصبيا (٤) محافظة بيروت مركزها مدينة بيروت (٥) محافظة الشوف مركزها بعقلين ويتبعها مديريات المختارة وشحيم وعين زحلته ورشميا والشويفات وعاليه ومديرية دير القمر المستقلة (٦) محافظة طرابلس ومركزها مدينة طرابلس ويتبعها مديريات حلبا وقبيات وسير (٧) محافظة المتن ومركزها بخنس ومن توابعها مديرية بكفيا وبرمانا وبسكنتا وحمانا (٨) محافظة بعلبك ومركزها مدينة بعلبك ويتبعها مديريات ظليا ودير الاحمر والهرمل ورأس بعلبك (٩) محافظة زحلة ومركزها مدينة زحلة ويتبعها مديريات قب الياس وسغبين وراشيا (١٠) محافظة كسروان ومركزها غادير وبيت خشبو ومن عملها مديريات جبيل وزيفون والكفور وقرطبا (١١) محافظة البترون ومركزها مدينة البترون ومن عملها مديريات تنورين وبشرى وأميون .

* * *

دولة العلويين { تقسم حكومة العلويين الى لوائين (١ً) لواء اللاذقية ومركزها مدينة اللاذقية وتنقسم الى خمسة أقضية وهي اللاذقية وجبلة وصهيون وقضاء المرقب مركز حكومته بانياس وقضاء العمرانية ومركز حكومته مصياف (٢ً) لواء طرطوس ويقسم الى ثلاثة أقضية وهي طرطوس وصافيتا وقصبته دريكيش والحصن وقصبته تل كلخ . اما جزيرة ارواد فمستقلة وتعد من دولة العلويين .

العقود والعهود الاخيرة (١)

صورة الرسائل الرسمية التي تبودلت بين الحكومة الفرنسوية والحكومة البريطانية لاجل تثبيت اتفاقية سايكس بيكو بواسطة السر ادوار غراي و م . كامبون في ايار سنة ١٩١٦

الرسالة الاولى { من مسيو ا . كامبون الى السر ا . غراي ٩ ايار ١٩١٦
١ً — تميل فرنسا و بريطانيا العظمى الى الاعتراف بدولة عربية مستقلة او حلف من الدول العربية المستقلة في منطقتي الالف والباء كما هو مبين في المصور (الخريطة) بامارة زعيم عربي وتقدمان لها الحماية . و يكون لفرنسا في منطقة الالف ولبريطانيا العظمى في منطقة الباء الحق الاول في عقد القروض وفي التزام المشاريع المحلية . وتقدم فرنسا في منطقة الالف و بريطانيا العظمى في منطقة الباء المستشارين الفنيين والاداريين حينما ترى الدولة العربية او الحلف العربي ضرورة ذلك .

٢ً — تفوض فرنسا في المنطقة الزرقاء و بريطانيا العظمى في المنطقة الحمراء ان تعملا فيها على ماترغبان فيه اي ان تديراهما مباشرة اوغيرمباشرة بالاشتراك مع العرب وتأسيس دولة عربية او حلف من الدول العربية .

---

(١) رأينا اثبات هذه الوثائق التاريخية بنصوصها وان كنا اشرنا اليها في متن التاريخ السياسي وذلك ليسهل الرجوع اليها .

٣ً — تدار المنطقة السمراء بادارة دولية و يترك امر البت في تعيين شكلها الى ان تتم المفاوضة مع روسيا وسائر الحلفاء ومندوبي شريف مكة

٤ً — تعطى بريطانيا العظمى : (اولاً) مرفأي حيفا وعكة . (ثانيًا) كمية معينة من ماء نهري دجلة والفرات تؤخذ من منطقة الالف وتعطى لمنطقة الباء . وعلى حكومة جلالة الملك مقابل ذلك ان لا تفاوض في وقت من الاوقات دولة من الدول بشأن تسليمها قبرص قبل ان توافق فرنسا على ذلك .

٥ً — تكون الاسكندرونة مرفأ حراً للتجارة البريطانية ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الجمركية ، ولا ترفض التسهيلات الخاصة التي من شأنها الاسراع بنقل البضائع البريطانية وشحنها بالبحر او بالخطوط الحديدية التي تمر بالمنطقة الزرقاء . لافرق في ان تكون هذه البضائع واردة من المنطقة الحمراء او صادرة اليها او خاصة لمنطقة الالف او الباء .

تكون حيفا مرفأ حراً للتجارة الفرنسوية وتجارة مستعمراتها وتجارة البلاد المشمولة بحمايتها ، ولا يكون فيها تفاوت في المعاملات او اختلاف في الرسوم الجمركية ، و يكون شحن البضائع منها واليها مباحاً بالسكة الحديدية التي تمر بالمنطقة السمراء . لا فرق في ان تكون هذه البضائع واردة او صادرة من المنطقة الزرقاء او من منطقة الالف او الباء .

٦ً — لا تمد سكة حديد بغداد بمنطقة الالف جنوبًا الى ما وراء الموصل ولا بمنطقة الباء شمالاً الى ماوراء سامرا قبل ان يتم انشاء السكة الحديدية بين حلب و بغداد عن طريق وادي الفرات وقبل ان يوافق الفريقان على ذلك التمديد .

٧ً — يحق لبريطانيا العظمى وحدها ان تنشئ وتدير وتمتلك خطًا حديديًا يبتدئ من حيفا و ينتهي بمنطقة الباء ، ولها الحق ايضًا ان تنقل الجنود والمواد الحربية على هذا الخط الحديدي متى شاءت ، ومن المعلوم عند الحكومتين ان هذا الخط هو لتسهيل ارتباط بغداد بحيفا فاذا تعذر مده فنيًا في المنطقة السمراء واقتضى الامر لمروره بغيرها تسمح فرنسا بذلك .

٨ً — تبقى تعرفة المكوس العثمانية كما كانت عليه سابقًا لمدة عشرين سنة في

المنطقة الحمراء والزرقاء والالف والباء ولا يصير فيها تغيير او تبديل الا بمعرفة الفريقين وموافقتهما ·

لا توضع رسوم جمركية داخلية بين المناطق المذكورة اعلاه ، بل تحصل تلك الرسوم بحسب الاصول في المرفإ الذي ترد اليه البضائع وتسلم بعد ذلك الى الادارة الداخلية التي تخصها تلك البضائع ·

٩ً — من البديهي ان فرنسا لا تفاوض دولة ثالثة في وقت من الاوقات بشأن التنازل عن مالها من الحقوق في المنطقة الزرقاء ولا تتخلى عن هذه الحقوق الا الى الحكومة العربية او الحكومات العربية المتحدة قبل ان توافق حكومة جلالة الملك على ذلك · وعلى حكومة جلالته ان تعمل بموجب هذه الشروط بالمنطقة الحمراء ·

١٠ً — يوافق الفريقان المتعاقدان الحكومة الفرنسية والحكومة البريطانية الحاميتين للدولة العربية ان لا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك ملكاً ما في اراضي شبه جزيرة العرب ولا تتخذ قاعدة بحرية في الجزر الواقعة الى شرق ساحل البحر الاحمر ، وهذا لا يمنع ان تعدل الحكومة البريطانية جبهة عدن بمقتضى الاصول الفنية والاحوال الخاصة بعد ان ثبتت ضرورة ذلك على اثر التعدي التركي ·

١١ً — تجري المفاوضة مع العرب بخصوص تخوم الدولة العربية اوالدول العربية المتحدة كما في السابق باسم الدولتين

١٢ً — من المعلوم ان مراقبة توريد الاسلحة الى البلاد العربية منوط بالدولتين ·

* * *

الرسالة الثانية } من مسيو ا · كامبون الى السر ا · غراي في ١٥ ايار سنة ١٩١٦ قبل ان تجاوب فخامتكم على رسالتنا في تاريخ ٩ ايار سنة ١٩١٦ بخصوص تأليف دولة عربية أبديتم رغبتكم في اضافة بعض التأكيدات للمحافظة على حقوق الملاحة والامتيازات الدينية وامتيازات المدارس والبعثات الطبية في المناطق التي ستصبح فرنسوية وفي المناطق التي ستسود فيها الادارة الفرنسية ، فغب الموافقة عليها من قبل فرنسا على حكومة جلالة الملك ان توافق ايضاً على نفس الشروط في المناطق الداخلة في دائرتها ·

ولي الشرف ان اعلم فخامتكم ان الحكومة الفرنسية مستعدة ان تصادق على جميع الامتيازات البريطانية التي كانت تتمتع بها قبل الحرب في المناطق التي ستعطى لها (اي لفرنسا) او المناطق التي ستشمل بعنايتها ، اما الامتيازات الدينية والمدرسية والطبية والفنية فستبقى كما في الماضي ، ومن المعلوم ان هذه الامتيازات لا تعني بقاء الامتيازات الاجنبية والامتيازات القضائية .

☆ ☆ ☆

الرسالة الثالثة } من السر ا . غراي الى المسيو ا . كامبون في ١٦ ايار سنة ١٩١٦ يوافق على نص المعاهدة كما جاءت في كتاب المسيو ا . كامبون في تاريخ ٩ ايار سنة ١٩١٦

نسخة مختصرة
عن دستور فلسطين الرسمي

ينص هذا النظام على تعيين رجل صالح لادارة حكومة فلسطين يعرف بالمندوب السامي والقائد العام ، و يخوله السلطة اللازمة لتنفيذ جميع الواجبات المقترنة بوظيفته، وتطبيق شروط الانتداب الذي منحته دول الحلفاء السامية الى بريطانيا العظمى ، وتأسيس وطن قومي لليهود ·

ومنح المندوب السامي السلطة لتقسيم البلاد بموافقة الوزير الى مقاطعات او اجزاء ادارية على اسلوب ملائم لاعمال الادارة ، وخول جميع الحقوق للتصرف بالاراضي العامة او بما له علاقة فيها ، و بجميع الحقوق لاستثمار المناجم والمعادن على اختلاف انواعها واعطاء امتيازات شرعية لاي كان لاستخراجها ، وله الحق أن يهب الاراضي العامة والمعادن والمناجم ، ويؤجرها او يسمح باستثمارها موقتاً بالشروط التي يرتئيها ، وله الحق في تعيين موظفي الحكومة بعد مراعاة اوامر الوزير بالاحوال التي يراها مناسبة ، وان يعين واجباتهم و يبقى هؤلاء الموظفون في مراكزهم ما دام المندوب السامي راضياً عن اعمالهم ·

و يؤلف مجلس تنفيذي لمساعدة المندوب السامي على الطريقة التي تشير بها حكومة جلالة الملك ·

و يؤلف اعتباراً من التاريخ الذي يعينه المندوب السامي مجلساً تشريعياً لفلسطين يستعاض به عن المجلس الاستشاري ويكون له السلطة التامة لسن القوانين الضرورية للمحافظة على الامن والسلام ، وانتظام الحكومة بشرط ان لايخالف التعليمات المعطاة من حكومة جلالة الملك ، وان لايسن قانوناً يمس الحرية الشخصية او يقيد الحرية الدينية او يميز بين سكان فلسطين بسبب الجنسية او الديانة او اللغة او يخالف نظام الانتداب الموضوع لفلسطين ·

لاتنفذ القوانين التي يسنها هذا المجلس قبل ان يصادق عليها المندوب السامي ونقرها حكومة جلالة الملك ·

يحتفظ المندوب السامي بالقوانين التي اجازها المجلس التشريعي لموافقة جلالته عليها و يحتفظ ايضاً بالامور التي لها مساس بنظام الانتداب ·

و يحتفظ جلالة الملك لنفسه بحق رفض اي قانون قديكون المندوب السامى وافق عليه في خلال سنة واحدة من تاريخ الموافقة عليه و يعلن رفضه اياه بواسطة كاتم السر العام ·

يؤلف المجلس التشريعي من ٢٢ عضواً عدا المندوب السامي منهم عشرة اعضاء من الموظفين واثنا عشر من غير الموظفين ، وينتخب الغير موظفين بموجب الاوامر التي تصدر من مجلس الملك الخاص ، او بموجب ما يوضع من القوانين والانظمة من حين الى آخر بشأن هذه الانتخابات ، و يكون الاعضاء الموظفون الاشخاص الذين يشغلون وظائف كاتم السر العام والنائب العام ومدير المالية ومفتش الشرطة والسجون ومدير الصحة ومدير الاشغال العامة ومدير المعارف ومدير الزراعة ومدير الكمارك ومدير التجارة والصناعة ·

المحاكم الملكية والشرعية

تؤلف محاكم صلح في كل قضاء وناحية و يكون لها السلطة الخاصة بقانون حكام الصلح العثماني كما هو معدّل بموجب القوانين والانظمة السارية الفعل الآن ·

وتؤلف محاكم مركزية في الاقضية التي يعينها المندوب السامي ولها الحق في رؤية جميع القضايا الحقوقية الخارجة عن اختصاص محاكم الصلح في ذلك القضاء والحق في رؤية جميع القضايا الجنائية الخارجة عن وظيفة محكمة الجنايات ·

وتؤلف محكمة جنايات لها السلطة التامة في رؤية الجرائم المعاقب عليها بالقتل والجرائم الاخرى التي ينص عليها القانون الخاص ·

وللمندوب السامي ان يؤلف بامر منه محاكم اراض كلما دعت الحاجة الى ذلك للنظر في المسائل المتعلقة بملكية الاموال الغير المنقولة ·

وتؤسس محكمة تعرف بالمحكمة العليا وتعين صورة تأليفها بقانون خاص و يكون لها صفة المحاكم الاستئنافية ·

وللمحاكم الشرعية الاسلامية وحدها الحق في رؤية الدعاوي المتعلقة في الاحوال

الشخصية الخاصة بالمسلمين كالزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية الخ . ولمحاكم الطائفة اليهودية الدينية وحدها ان تنظر في استماع الدعاوي المتعلقة بالاحوال الشخصية

ولمحاكم الطوائف المسيحية المختلفة وحدها ان ترى مسائل الزواج والطلاق والنفقة وتصديق الوصاية وتنظر فيما يتعلق بالاوقاف الخ .

اذا شملت قضية تتعلق بالاحوال الشخصية اشخاصاً من طوائف دينية مختلفة يجوز لاي خصم ان يقدم طلباً الى قاضي القضاة وهذا يعين بمساعدة مستشارين من الطوائف المختلفة المحكمة التي لها السلطة في استماع تلك القضية .

واذا قامت شبهة حول قضية من القضايا الشخصية الداخلة في اختصاص محكمة دينية تحال القضية الى محكمة خاصة يعين شكلها بقانون خاص .

بعض مواد عامة

يجب ان تنشر باللغة الانكليزية و بالعربية و بالعبرية جميع القوانين والاعلانات الرسمية والنماذج التي تصدرها الحكومة وجميع الاعلانات الرسمية التي تعلنها السلطات المحلية والبلديات في المناطق التي يعينها المندوب السامي بامر منه . ويجوز استعمال اللغات الثلاث في المباحثات والمناقشات التي تدور في المجلس التشريعي وفي دوائر الحكومة ومحاكمها مع مراعاة الانظمة التي تسن من وقت الى آخر .

يحق لجميع سكان فلسطين ان يتمتعوا بالحرية الشخصية التامة والحرية الدينية المطلقة مع مراعاة حفظ النظام العام والآداب العامة ويحق لكل طائفة دينية معترف بها من الحكومة ان تتمتع بالاستقلال الذاتي لادارة شؤونها الداخلية بعد مراعاة نصوص كل قانون وامر يصدره المندوب السامي .

اذا رأت طائفة دينية او فريق كبير من اهالي فلسطين ان شروط الانتداب لا تنفذها حكومة فلسطين كما يجب ، فلها الحق في رفع مذكرة بواسطة عضو في المجلس التشريعي الى المندوب السامي فينظر في هذه المذكرة على الطريقة التي يعينها جلالة الملك وفقاً للاصول التي وضعها مجلس عصبة الامم .

المعاهدة البريطانية الفرنسوية

المنعقدة في ٢٣ كانون الاول سنة (١٩٢٠) التي تبحث في بعض الشؤون المهمة مما له علاقة بالانتداب على سورية ولبنان وفلسطين والعراق

انابت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسية الوزيرين المفوضين الواضعين اسميهما ادناه ليجلا جميع الامور التي لها علاقة بالانتداب الذي منح لبريطانيا العظمى على فلسطين والعراق ولفرنسا على سورية ولبنان في المجلس الاعلى الذي اجتمع في سان ريمو وقد اتفقتا على الشروط الآتية :

١ً — تعينت حدود المناطق التي شملها الانتداب الافرنسي اي سورية ولبنان وحدود المناطق التي شملها الانتداب البريطاني اي فلسطين والعراق كما يلي :

من الشرق نهر الفرات وجزيرة ابن عمر الى حدود ولايتي ديار بكر والموصل القديمة ومن الجنوب الشرقي حدود هاتين الولايتين القديمة الى غاية رومالين كوي ومن هنا خط يمتد من المنطقة التي يشملها الانتداب الفرنسوي فيترك فيها جميع الاراضي الواقعة في حوض نهر الخابور الغربي ويمر باستقامة نحو الفرات فيجتازه بألبوكمال ويمتد باستقامة الى امتار فجنوب جبل الدروز ومن هنا يمتد الى جنوب نصيب الواقعة على خط حديد الحجاز فسمخ الواقعة على بحيرة طبرية سائراً الى جنوب خط السكة الحديدية وموازياً له . وتبقى درعا وما حولها في المنطقة التي يشملها الانتداب الافرنسي ويبقى ذلك الخط في وادي اليرموك ضمن المنطقة الافرنسية ويسير بصورة ملاصقة وموازية لخط السكة الحديدية كي يصبح في الامكان ان تُمد في وادي اليرموك سكة حديدية واقعة في الاراضي المشمولة بالانتداب البريطاني وستوضع التخوم في سمخ بصورة يمكن معها للفريقين المتعاقدين الساميين ان يبنيا مرفأ ومحطة للسكة الحديدية ليتمكنا من استعمال بحيرة طبرية بحرّية ومن الغرب يسير الخط من سمخ ماراً داخل بحيرة طبرية فاول وادي المسعدية حيث يسير مع مجرى هذا النهر في وادي جرابا ، الى نبعه ومن هنا يتصل بطريق القنيطرة و بانياس بالمكان المعروف بالسكيك فيسير مع الطريق التي تبقى في المنطقة الافرنسية لغاية بانياس ومن هنا يسير نحو الغرب حتى يصل الى المطلة وتبقى المطلة في المنطقة البريطانية ، وسيوضع لهذا الجزء من الحدود تفصيلات دقيقة

يمكن معها تسهيل المواصلات بين جميع اطراف البلاد المشمولة بالانتـداب الافرنسي كصور وصيدا والمناطق الواقعة الى الغرب والى الشرق من بانياس ·

وتفصل التخوم بالمطلة بمفرق المياه في وادي الاردن وحوض نهر الليطاني وتسير جنوباً مع وادي الاردن فوادي فرعم ووادي كركرة اللذين يبقيان في المنطقة البريطانية فوادي اليلاونة ووادي العيون والزرقاء التي تبقى في المنطقة الافرنسية ويصل الحد الى شاطئ البحر المتوسط في ميناء رأس الناقورة التي تظل في المنطقة الافرنسية ·

٢ً — تؤلف بعد التوقيع على هذه المعاهدة بثلاثة اشهر بعثة لتدرس الحدود بين المناطق المشمولة بالانتداب الافرنسي والمناطق المشمولة بالانتداب البريطاني التي بيناها في المادة الاولى وتتألف هذه البعثة من اربعة اعضاء تعين الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية اثنين منهم وتعين الاثنين الآخرين الحكومة المحلية المشمولة بالانتـداب الفرنسوي والحكومة المحلية المشمولة بالانتداب البريطاني بعد مشورة الحكومتين المنتدبتين ·

اذا وقع خلاف بين اعضاء هذه البعثة يعرض على مجلس جمعية الامم ويكون قرارها فيه قطعياً ·

تقدم بتقارير البعثة النهائية الحدود الثابتة التي عينت اخيراً وتربط معها المصورات الضرورية الموقع عليهـا من قبل اعضاء البعثة ، ويعمل ثلاث نسخ من هذه التقارير والمصورات تحفظ النسخة الواحدة بين سجلات مجلس جمعية الامم وتحفظ النسختين الاخر بين الحكومتان المنتدبتان ·

٣ً — توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية على ترشيح لجنة خاصة مهمتها درس الخطط التمهيدية التي تعينها الحكومة الافرنسية المنتدبة لاجل مصلحة الري في البلاد المشمولة بانتدابها لئلا يقلل ابرازها لحيز الفعل مياه دجلة والفرات في الموضع الذي يدخلان به المنطقة العراقية المشمولة بالانتداب البريطاني ·

٤ً — توافق الحكومة البريطانية بالنظر الى مكانة جزيرة قبرص من الوجهة الجغرافية والعسكرية بالنسبة الى خليج الاسكندرونة على ان لا تفاوض احداً بخصوص التنازل عنها او تسليمه اياها قبلما توافق فرنسا على ذلك ·

٥ً — ا : توافق الحكومة الافرنسية على وضع ترتيب حرّ ببين كيفية استعمال خط السكة الحديدية الواقع بين طبرية ونصيب استعمالاً مشتركاً .

تضمن سير هذا الترتيب وانتظامه ادارتا السكة الحديدية المؤلفتان في منطقتي الانتداب البريطاني والفرنسوي باسرع ما يمكن اي بعد تنفيذ الانتداب على سورية وفلسطين وتسمح هذه الاتفاقية بصورة خاصة لادارة السكة الحديدية البريطانية ان تسير قطاراتها ذهاباً واياباً بين هاتين المنطقتين وفقًا لمصالحها ، وتنقل البضائع التجارية الى المنطقة المشمولة بالانتداب الافرنسي بواسطتها ، وتعين هذه الاتفاقية الشروط المالية والادارية والفنية اللازمة لسير القطارات البريطانية ، اما اذا لم يتم الاتفاق خلال ثلاثة اشهر من تنفيذ الانتداب بين الادارتين المذكورتين اعلاه فستعين جمعية الامم حكماً يفصل الخلاف وعندئذ تنفذ شروط هذه الاتفاقية التي حازت رضى الطرفين .

يعمل بموجب هذه الاتفاقية الى اجل غير مسمى وتصحح احيانًا بمقتضى الاحوال .

ب : يمكن للحكومة البريطانية ان تمد خطاً من الانانيب الحديدية بجانب السكة الحديدية ولها الحق في نقل جنودها على هذه السكة الحديدية دائمًا .

ت : توافق الحكومة الافرنسية على تعيين بعثة خاصة تدرس الاراضي ، و بعد درسها اياها تعين الحدود في وادي اليرموك حتى نصيب بطريقة فنية يمكن معها بناء الخط الحديدي البريطاني وخط الانانيب التي توصل بين فلسطين و بين سكة الحجاز ووادي الفرات في المنطقة المشمولة بالانتداب البريطاني ، وتبقى السكة الحديدية الحالية المارة بوادي اليرموك داخل الاراضي المشمولة بالانتداب الفرنسوي ، ويجب على بريطانيا العظمى احقاق حقها هذا ببرهة لا تتجاوز عشر سنوات .

تتألف البعثة التي ذكرناها اعلاه من عضو بريطاني وعضو افرنسي يضاف اليهما نواب عن الحكومات المحلية بصفة مستشارين فنيين هذا ان رأت الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية لزوماً لذلك .

ج : اذا اقتضى الامر لاسباب فنية ان يمر خط السكة الحديدية البريطانية ببعض الاماكن المشمولة بالانتداب الفرنسوي توافق الحكومة الفرنسوية على مرور هذا الخط بتلك المناطق وتقدم للحكومة البريطانية او لعملائها المساعدات اللازمة .

د : اذا شاءت الحكومة البريطانية العمل بموجب الحق الممنوح لها بالفقرة الثالثة من هذه المادة ان تمد سكة حديدية في وادي اليرموك تنفذ الحكومة الفرنسوية الشروط التي اشترطتها على نفسها بالفقرة الاولى والثانية من هذه المادة غب مرور ثلاثة اشهر من انشاء السكة ٠

ه : توافق الحكومة الفرنسوية على اتخاذ التدابير الفعالة لحمل الحكومات المحلية المشمولة بالانتداب الفرنسوي ان تصادق على هذه الحقوق الممنوحة للحكومة البريطانية ٠

٦ً — تم الاتفاق على هذه الشروط التي تسهل اعمال الحكومة البريطانية مقابل عقد الاتفاقية الفرنسوية البريطانية بخصوص الزيت في سان ريمو ٠

٧ً — لاتضع الحكومة البريطانية ولا الحكومة الفرنسوية موانع في منطقتي انتدابهما لجميع الموظفين اللازمين لادارة خط السكة الحجازية او لاستخدامهم ٠

تمنح جميع التسهيلات الضرورية لمرور جميع المستخدمين في الخط الحديدي الحجازي بمنطقة الانتداب البريطاني والافرنسي لئلا تتأخر اعمال هذا الخط ٠

توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية عند اللزوم على ان تعقدا اتفاقية مع الحكومات المحلية خلاصتها استثناء جميع مهمات هذا الخط ومعداته من الرسوم الجمركية عندما تمر باحدى مناطق الانتداب ٠

٨ً — يعين خبراء واختصاصيون من قبل حكومة سورية وفلسطين غب مرور ستة اشهر من امضاء هذه المعاهدة مهمتهم فحص احوال مياه نهر الاردن الاعلى ونهر اليرموك وتوابعهما لاستخدامها لاجل الري ولاجل توليد الكهرباء وتعيين المقدار اللازم للاراضي الواقعة تحت الانتداب الافرنسي ٠

تزود الحكومة الافرنسية الاخصائيين الذين تعينهم لدرس هذا المشروع بالتعليمات اللازمة لمنح فلسطين المياه الزائدة خدمة لمنافعها العامة اذا لم يحصل الاتفاق المطلوب بنهاية هذا الدرس وتعرض المسألة على الحكومة البريطانية والحكومة الفرنسوية لتدرساها وتقررا فيها قراراً نهائياً ٠

تشترك ادارة فلسطين بقدر انتفاعها من هذه الاعمال في دفع نفقات بناء الترع والخلجان والسدود والخزانات والاحواض والاقنية وخطوط الانابيب الحديدية الخ

وتشترك في جميع الاعمال التي من شأنها انبات الحراج وتنشيط تربيتها ·

٩ً — توافق الحكومة البريطانية والحكومة الافرنسية عملاً بنص المادة ١٥ والمادة ١٦ من نظام الانتداب الفلسطيني وعملاً بنص المادة الثامنة والمادة العاشرة من نظام الانتداب العراقي وعملاً بنص المادة الثامنه من نظام الانتداب اللبناني السوري وعملاً ايضاً بموجب الحق العام المعطى من قبل الحكومات الوطنية لمدارس المحلية بخصوص التربية والتعليم على السماح للمدارس التي تخص اناساً من التبعة الفرنسوية او من التبعة البريطانية على المثابرة في ادارة هذه المدارس في منطقتي انتدابهما ؛ ويسمح بتعليم اللغة الافرنسية واللغة الانكليزية في هذه المدارس ·

لا تعني هذه المادة بحال من الاحوال منح رعايا احدى الدولتين المشار اليهما حق فتح مدارس جديدة في الوقت الحاضر في منطقة انتداب الدولة الاخرى ·

صك الانتداب الافرنسي

« على سورية ولبنان »

ان مجلس جمعية الامم :

لما كانت دول الحلفاء العظمى متفقة على ان اراضي سورية ولبنان التي كانت فيما مضى جزءاً من السلطنة العثمانية يعهد بها ضمن حدود تعينها الدول المشار اليها الى دولة منتدبة موكول اليها نصح الاهالي ومعاونتهم وارشادهم في ادارتهم وفقاً لنص الفقرة الرابعة من المادة الثانية والعشرين من عهد عصبة الأمم ٠

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد قررت ان الانتداب على البلاد الآنفة الذكر يعطى لحكومة الجمهورية الفرنسوية التي قبلته ٠

ولما كان نص هذا الانتداب المبين في المواد المذكورة فيما بعد قد وافقت عليه حكومة الجمهورية الفرنسوية وعرض للتصديق على مجلس جمعية الأمم ٠

ولما كانت حكومة الجمهورية الفرنسوية تتعهد باجراء هذا الانتداب باسم عصبة الأمم طبقاً للمواد المذكورة ٠

ولما كانت نصوص المادة الثانية والعشرين الآنفة الذكر (الفقرة الثامنة) تقضي بانه اذا كانت درجة السلطة والمراقبة والادارة التي تجريها الدولة المنتدبة لم يتفق عليها سابقاً بين اعضاء جمعية الامم فالمجلس هو الذي ينظم ذلك ٠

يوضع نصوص الانتداب كما يلي موافقاً عليه :

١ — تضع الحكومة المنتدبة في برهة ثلاث سنوات اعتباراً من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب دستوراً نظامياً لسورية ولبنان ٠

يصاغ هذا الدستور بالاتفاق مع السلطات الوطنية وتراعى فيه حقوق عموم السكان القاطنة في هذه البلاد ومصالحهم ٠ وستشرع الحكومة المنتدبة في ايجاد الوسائل التي من شأنها ان تسهل تقدم سورية ولبنان ورقيهما حكومتين مستقلتين وتسيرهما بموجب روح هذا الصك الى ان يتم الشروع في تنفيذ ذلك الدستور ٠

ويجب على الدولة المنتدبة ان تنشط الاستقلال المحلي قدر ما تسمح به الاحوال ٠

٢ً — يمكن للحكومة المنتدبة ان تبقي جنودها في البلاد للدفاع عنها . وقد خُولت حق تنظيم جند من المليس المحلي قصد المحافظة على الامن والدفاع عن البلاد كما تقتضيه الاحوال وذلك لحين تنفيذ الدستور واعادة الامن الى نصابه ، وتنظم جنود المليس المحلي من سكان البلاد فقط .

ترتبط هذه الجنود فيما بعد بالادارات المحلية تحت اشراف الدولة المنتدبة ولا يجوز استخدامها لاغراض أخرى سوى الاغراض المعينة فيما تقدم الا بعد موافقة الدولة المنتدبة .

لامانع يمنع سورية ولبنان من الاشتراك في نفقات القوات التي تضعها الدولة المنتدبة في البلاد .

يحق للدولة المنتدبة في كل حين ان تستعمل المواني والخطوط الحديديه ووسائل النقل الموجودة في سوريه ولبنان لسوق جنودها ونقل جميع المواد والمهمات والوقود اللازمة لها .

٣ً — يعهد الى الدولة المنتدبة بالسيطرة على جميع علاقات سورية ولبنان الخارجية ولها حق اصدار البراآت الى القناصل الذين يعينون من قبل الدول الاجنبية ، وتشمل الدول المنتدبة بحمايتها السياسية والقنصلية الرعايا السوريين واللبنانيين الذين يعيشون خارج هذه البلاد .

٤ً — الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن اي جزء من اجزاء سورية ولبنان وعن عدم تأجيره او وضعه تحت تسلط دولة اجنبية .

٥ً — ان اعفاء الاجانب من الامور الواجبة وتمتعهم بالامتيازات الاجنبية وبقضاء القنصلاتو والحماية التي كانوا يتمتعون بها ايام الدولة العثمانية لاتطبق في سورية ولبنان غير ان المحاكم الاجنبية تداوم على القيام بوظيفتها الى ان يتم تنفيذ النظام الجديد المنصوص عنه بالمادة السادسة .

ان الدول التي كان اتباعها يتمتعون بالامتيازات الاجنبية المبينة اعلاه اول آب سنة ١٩١٤ والتي لم تتنازل عن هذه الامتيازات او توافق على عدم تطبيقها لاجل محدود ، ستمنح ثانية جميع هذه الامتيازات او بعضها بعد انقضاء امد الانتداب بالصورة التي يتم عليها الاتفاق بين الدول ذات الشأن .

٦ً — تضع الحكومة المنتدبة في سورية ولبنان نظاماً قضائياً يصون حقوق الوطنيين والاجانب على السواء ·

يحافظ على احوال الناس الشخصية وعلى مصالحهم الدينية وخصوصاً ادارة الاوقاف التي تدار وفقاً للشريعة ولارادة الواقف ·

٧ً — تكون معاهدات تسليم الرعايا الاجانب المبرمة بين الدولة المنتدبة وبين سائر الدول الاجنبية مرعية في سورية ولبنان الى ان يتم عقد اتفاقات خاصة بهذا الشأن ·

٨ً — تضمن الدولة المنتدبة للجميع حرية الضمير وحرية القيام بجميع شعائر العبادة التي لا تخل بالامن ولا بالآداب العامة ولا يكون تمييز من اي نوع بين سكان سورية ولبنان بسبب الجنس او الدين او اللغة ·

تنشط الحكومة المنتدبة التعليم العام ويكون هذا التعليم بلغة البلاد المحلية · لاتحرم جميع الطوائف حق المحافظة على مدارسها وتعليم ابنائها بلغتها متى كان ذلك مطابقاً لقانون التعليم العام الذي تعينه الحكومة ·

٩ً — تتجنب الحكومة المنتدبة التدخل في اعمال المجالس الادارية وفي ادارة الطوائف الدينية وفي ادارة المعابد المقدسة التي تخص احدى الطوائف وقد تكفلت بالمحافظة على هذه المعابد ·

١٠ً — تحدد سلطة الدولة المنتدبة في مراقبة البعثات الدينية في سورية ولبنان لاجل محافظتهم على الامن وعلى الحكم بطريقة مرضية · ولا تحصر الدولة المنتدبة مساعي هذه البعثات بصورة من الصور ولا تقيد اعضاءها بقيود بسبب قوميتهم ما لم تخرج اعمالهم عن اصول الدين ·

يمكن لهذه البعثات الدينية ان تشتغل بامور الاسعاف والتعليم تحت مراقبة الدولة المنتدبة او الحكومة المحلية ·

١١ً — يجب على الحكومة المنتدبة ان لا تميز بالمعاملة في سورية ولبنان بين اتباعها وبين اتباع غيرها من الدول الداخلة في عضوية جمعية الامم ، وتشمل هذه المعاملة الجمعيات والشركات الاجنبية على اختلافها ، وان لا تميز ايضاً بين اتباع اي دولة اجنبية وبين اتباعها في الامور التي لها مساس بالضرائب والتجارة والملاحة وتعاطي الحرف

والمهن او في معاملة السفن البحرية او الوسائط الهوائيـة وكذلك يجب ان لا يكون تمييز في سورية ولبنان بين البضـائع التي يكون مصدرها او محط رحالها بلاد تلك الدول المذكورة ويجب اطلاق حرية المرور التجارية في عبر المنطقة المشار اليها بشروط عادلة ·

يمكن للحكومة المنتدبة بعد مراعاة ما ذكر اعلاه ان تفرض الضرائب والرسوم الجمركية التي تراها ضرورية او ان توعز للحكومات المحلية ان تفرضها ، و يمكن للدولة المنتدبة او للدول المحلية التابعة لمشورتها ان تعقد لاسباب جوارية اتفاقاً جمركياً خاصاً مع البلاد المتاخمة لها ·

و يمكن للحكومة المنتدبة عملاً بشروط البند الاول من هذه المادة ان تتخذ الوسائل الفعالة التي تعتقد صلاحها لترقية مواردالبلاد الطبيعية مع المحافظة على مصالح السكان ·

تمنح الامتيازات لترقية هذه الموارد الطبيعية لمن شاء دون تمييز في تابعية الاشخاص الداخلة دولهم في عداد اعضاء جمعية الامم بشرط ان لا تمس هذه الامتيـازات بسلطة الحكومة المحلية ، ولا تمنح الامتيازات بصفة احتكار عام · لا تمس هذه الفقرة بتحديد سلطة الدولة المنتدبة في ايجاد الاحتكارات المالية التي من شأنها ان ترقي مصالح سورية ولبنان وتحفظ مواردهما المالية والمحلية ، و يمكن للحكومة ان تسعى لترقيـة هذه الموارد الطبيعية مباشرة او بواسطة شركة خاصة تعمل تحت اشرافهـا بشرط ان لا يوجد هذا العمل لا عمداً ولا بالواسطة احتكاراً خاصاً بالدولة المنتدبة او برعاياها ، او يمنحها ميزة في الامور الاقتصادية والتجارية والصناعية التي تقرر فيها المساواة بين الجميع ·

١٢ً — تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن سورية ولبنان على كل اتفاق دولي عام عقد حتى الآن او ربما يعقد فيما بعد بموافقة جمعية الامم بخصوص الاتجار بالرقيق ، و بالعقاقير ، و بالسلاح ، والمعدات الحربية ، و بالمساواة التجـارية ، وحرية العبور ، والملاحة ، والطيران ، والمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية ، و باتخاذ الوسائط اللازمة لحماية الصنائع والآداب والفنون ·

١٣ً — تصون الدولة المنتدبة بقدر ما تسمح لها الاحوال الاجتماعية والدينية اتحاد

سورية ولبنان في الامور ذات الفوائد العامة التي تقرها جمعية الامم لمنع الامراض ومقاومتها وفي جملتها امراض الحيوان والنبات ٠

١٤ً — تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الاولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات ينطبق على الاحكام الآتية و يكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعيـة الامم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الاثرية ٠ (١ً) يجب ان يفهم من لفظة «العاديات» كل مانتج عن عمل البشر او وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ (٢ً) ان التشريع لحماية العاديات يجب ان يكون اجدر بالتشجيع منه بالتهديد و يجب على كل شخص يكتشف اثراً بدون حصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة ان يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه و ينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه (٣ً) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات الا لمصلحة السلطة ذات الشأن مالم تعدل هذه السلطة عن استحواذه ٠ ولا يمكن اخراج شيء من العاديات من البلاد الا باذن تلك السلطة (٤ً) كل شخص يتلف أو يثلم قطعة من العاديات تعمداً أو اهمالاً يجب أن يجازى جزاء معيناً ٠ (٥ً) ممنوع كل حفر أو تنقيب لايجاد العاديات الا بأذن من السلطة ذات الشأن والا غرم المخالف غرامة مالية ٠ (٦ً) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية موقتًا او دائماً في الاراضي التي تحتوي فائدة تاريخية اوأثرية ٠ (٧ً) لا تعطى الرخصة باجراء الحفريات الا لأشخاص يقدمون ادلة كافية على اختبارهم الاثري ٠ وعلى الدولة المنتدبة عند اعطاء هذه الرخص ان لا تستثني علماء أمة ما ٠ (٨ً) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الاشخاص الذين أجروه والسلطة ذات الشأن بالنسبة التي تعينها هي ٠ فاذا تعذر الاقتسام لاسباب علمية يعطي للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل ٠

١٥ً — عندما يتم تنفيذ الدستور المنصوص عنه في المادة الاولى يوضع ترتيب بين الحكومة المنتدبة والحكومات المحلية تدفع بموجبه هذه الحكومات جميع النفقات التي انفقتها الحكومة المنتدبة لاجل تنظيم الادارة وترقيـة الموارد المحلية والقيام بالمشاريع العـامة التي افادت البلاد افادة خاصة وترسل نسخة عن هذه التراتيب الى مجلس جمعية الامم ٠

١٦ً — تكون اللغة الافرنسية واللغة العربيـة اللغتين الرسميتين المستعملتين في سورية ولبنان ٠

١٧ً — تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً حسب طلبه تبين فيه التدابير التي اتخذتهـا اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب ويرسل مع هذا التقرير نسخ عن جميع القوانين والانظمة التي تسن سنوياً ٠

١٨ً — يجب ان يوافق مجلس جمعية الامم على كل تعديل يحصل في شروط هذا الصك ٠

١٩ً — يستعمل مجلس جمعية الامم نفوذه عندما تنتهي مدة الانتداب لتحـافظ حكومة سورية ولبنان في المستقبل على علاقاتها المالية ومنها الرواتب القانونية التي منحتها ادارة سورية ولبنان ايام الانتداب ٠

٢٠ — توافق الدولة المنتدبة اذا حصل نزاع بينها وبين دولة ثانية داخلة في عضوية جمعية الامم بخصوص تفسير شروط صك الانتداب او تطبيقها على عرض هذا النزاع على محكمة العدل الدولي الدائمة المنصوص عنها في المادة الرابعة عشرة من مواد عهد جمعية الامم هذا اذا لم يمكن حل النزاع بين الدولتين بواسطة المفاوضات ٠

صك الانتداب

« على فلسطين »

لما كانت دول الحلفاء الرئيسة قد اتفقت — تنفيذاً لنصوص المادة ٢٢ من عهد جمعية الامم — على ان تعهد الى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة في ادارة شؤون فلسطين التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية ضمن الحدود التي تعينها الدول المذكورة ٠

ولما كانت دول الحلفاء الرئيسة قدوافقت ايضاً على ان تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ التصريح الذي صرحت به حكومة جلالة ملك بريطانيا في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩١٧ وصادقت عليه الدول المذكورة بان ينشأ في فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي مع البيان الجلي بان لا يفعل شيء يضير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين الآن ولا الحقوق والمركز السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الاخرى ٠

ولما كان ذلك اعترافاً بالصلة التاريخية التي تصل الشعب اليهودي بفلسطين والبواعث التي تبعث على اعادة انشاء وطنهم القومي في تلك البلاد ٠

ولما كانت دول الحلفاء اختارت الحكومة البريطانية لتكون الدولة المنتدبة لفلسطين ٠

ولما كان الانتداب لفلسطين قد صيغ في النصوص التالية وعرض على مجلس جمعية الامم لموافقته عليه ٠

ولما كانت الحكومة البريطانية قد قبلت الانتداب لفلسطين وتعهدت بتنفيذه بالنيابة عن جمعية الامم طبقاً للنصوص والشروط التالية ٠

ولما كانت المادة ٢٢ المتقدمة الذكر (في الفقرة ٨) تنص على ان درجة السلطة والسيطرة او الادارة التي تكون للدولة المنتدبة اذا لم يتم الاتفاق عليها بين اعضاء جمعية الامم فان مجلس جمعية الامم ينص على ذلك نصاً صريحاً ٠ فالمجلس بعد تأييد الانتداب المذكور يحدد شروطه ونصوصه بما يأتي :

١ً — يكون للدولة المنتدبة السلطة التامة في التشريع والادارة الاحيث أقيمت لها حدود في نصوص صك الانتداب هذا ٠

٢ً — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في ديباجة هذا الصك وترقية أنظمة الحكم الذاتي وضمان الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين بقطع النظر عن الاجناس والاديان ٠

٣ً —يجب على الدولة المنتدبة ان تنشط الاستقلال المحلي على قدر ما تسمح به الاحوال

٤ً — يعترف «بهيئة» يهودية صالحة (لائقة) كهيئة عمومية لتشير وتعاون في ادارة فلسطين في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر في انشاء الوطن القومي اليهودي ومصالح السكان اليهود في فلسطين وتساعد وتشترك في ترقية البلاد تحت سيطرة حكومتها دائماً ٠

ويعترف بان الجمعية الصهيونية هي هذه الهيئة المنصوص عليها في ماتقدم مادامت الدولة المنتدبة ترى ان نظامها وتأليفها يجعلانها صالحة ولائقة لهذا الغرض ٠ وعلى الجمعية الصهيونية ان تتخذ ما يلزم من التدابير بعد استشارة الحكومة البريطانية للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة في انشاء الوطن القومي اليهودي ٠

٥ً — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن عدم التنازل عن شيء من اراضي فلسطين أو تأجيره او وضعه تحت حكومة دولة اجنبية ٠

٦ً — على حكومة فلسطين مع كفالة عدم الحاق الضرر بحقوق جميع طوائف الاهالي ان تسهل هجرة اليهود (الى فلسطين) في أحوال مناسبة وتنشط بالاتفاق مع الهيئة اليهودية المشار اليها في المادة ٤ استقرار اليهود في الاراضي الزراعية وفي جملتها الاراضي المدورة والاراضي البور (الموات) غير المطلوبة للاعمال العمومية ٠

٧ً — يتعين على حكومة فلسطين ان تسن قانوناً للجنسية يتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعوية الفلسطينية

٨ً — ان امتيازات الاجانب وفي جملتها المحاكم القنصلية وحماية القنصليات ورعاياها وهي التي كان الاجانب يتمتعون بها بحكم الامتيازات او العرف في السلطنة العثمانية

لاتكون نافذة في فلسطين ولكن متى انتهى اجل الانتداب فان هذه الامتيازات تعاد برمتها او مع التعديل الذي يكون قد تم عليه الاتفاق بين الدول صاحبة الشأن الااذا كانت الدول التي ظل رعاياها يتمتعون بالامتيازات المذكورة في اول آب ١٩١٤ قدسبقت فتنازلت عن حق رد تلك الامتيازات او وافقت على عدم تطبيقها الاجل مسمى ٠

٩ً — الدولة المنتدبة مسؤولة عن ان يكفل النظام القضائي الذي ينشأ في فلسطين الحقوق القضائية للاجانب والوطنيين ويضمن تمام الضمان احترام الاحوال الشخصية والمصالح الدينية لجميع الشعوب والطوائف ولاسيما ادارة الاوقاف طبقاً للشريعة الدينية وشروط الواقفين ٠

١٠ً — تكون المعاهدة المبرمة بين الدولة المنتدبة وسائر الدول الاجنبية عن تسليم الرعايا الاجانب المطلوبين من فلسطين مرعية الى ان تعقد اتفاقات خاصة بذلك على فلسطين ٠

١١ً — تتخذ حكومة فلسطين جميع التدابير اللازمة لصون مصالح الجمهور في ماله علاقة بترقية البلاد ويكون لها السلطة التامة لتدبير ما يلزم لوضع يد الحكومة او سيطرتها على مورد ما من موارد البلاد الطبيعية او الاعمال والمصالح والمنافع العمومية الموجودة او التي ستوجد فيما بعد فيها بشرط مراعاة العهود الدولية التي قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها ٠ وعليها ايضاً ان توجد نظاماً للاراضي يلائم حاجات البلاد مع مراعاة امور أُخرى منها المنافع التي تنجم عن تشجيع اكثار المهاجرة واستغلال اعظم ما يستطاع من الارض ٠

ويجوز لادارة البلاد ان تتفق مع الهيئة اليهودية المذكورة في المادة الرابعة على ان تجري او تستثمر بشروط الانصاف والعدل الاعمال والمصالح والمنافع العمومية وترقي مرافق البلاد الطبيعية حيث لاتتولى الحكومة هذه الامور مباشرة بنفسها ٠ وانما يشترط في هذه الاتفاقات ان الارباح التي توزعها الهيئة القائمة بالعمل لاتتجاوز مباشرة اوغير مباشرة فائدة معتدلة لرأس المال ٠ وكل ما يزيد على هذه الفائدة يستخدم لما فيه نفع البلاد على الوجه الذي توافق عليه حكومتها ٠

١٢ً — يعهد الى الدولة المنتدبة في السيطرة على علاقات فلسطين الخارجية وحق

اصدار البراءآت الى القناصل الذين تعينهم الدول الاجنبية وللدولة المنتدبة الحق ايضاً في ان تشمل رعايا فلسطين وهم في خارج بلادهم بحماية سفرائها وقناصلها ٠

١٣ — تتقلد الدولة المنتدبة كل التبعة المختصة بالاماكن المقدسة والمباني والمواقع الدينية في فلسطين وهذا يشمل المحافظة على الحقوق الموجودة وضمان الوصول الى المواضع المقدسة والمواقع الدينية وحرية العبادة مع المحافظة على مقتضيات الامن العام والآداب وتكون الدولة المنتدبة مسؤولة امام جمعية الامم دون سواها عن كل ما يتعلق بذلك بشرط ان لا تحول نصوص هذه المادة دون اتفاق الدولة المنتدبة مع حكومة البلاد على ما تراه الدولة المنتدبة لازماً لتنفيذ نصوص هذه المادة و بشرط ان لا يفسر شيء في هذا الانتداب تفسيراً يخول الدولة المنتدبة سلطة التعرض للاملاك الاسلامية او التدخل في ادارة المشاهد الاسلامية المقدسة المحفوظة الامتيازات ٠

١٤ — تؤلف الدولة المنتدبة لجنة خاصة لدرس وتعيين الحقوق والدعاوي المتعلقة بالاماكن المقدسة والحقوق والدعاوي التي تختص بالطوائف الدينية المختلفة في فلسطين ويعرض الاسلوب الذي يتبع في تعيين هذه اللجنة وتأليفها ووظائفها على مجلس جمعية الامم ليوافق عليها ولا تعين اللجنة ولا تقوم بوظائفها من غير موافقة المجلس ٠

١٥ — يجب على الدولة المنتدبة ان تتحقق ان الحرية الدينية التامة وحرية القيام بجميع شعائر العبادة مكفولتان للجميع بشرط المحافظة على النظام العام والآداب فقط و يجب ان لا يكون هناك تمييز من اي نوع كان بين سكان فلسطين بسبب الجنس او الدين او اللغة وان لا يحرم شخص ما من دخول فلسطين بسبب اعتقاده الديني فقط ٠

يجب ان لا تحرم اي طائفة كانت من حق المحافظة على مدارسها لتعليم ابنائها بلغتهم اذا كان ذلك مطابقاً لشروط التعليم العمومية التي قد تفرضها الادارة (الحكومة) ٠

١٦ — تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن القيام بما تقتضيه المحافظة على النظام العام والحكم المنتظم من الاشراف على الهيئات الدينية والخيرية التي لجميع المذاهب في فلسطين فاذا روعي هذا الشرط لا يجوز ان تتخذ تدابير في فلسطين لاعاقة أعمال مثل هذه الهيئات أو التعرض لها أو الاجحاف باي ممثل لها أو عضو فيها بسبب دينه وجنسيته ٠

١٧ — يجوز لادارة (حكومة) فلسطين أن تنظم على قاعدة اختيارية القوات

اللازمة للمحافظة على السلم والنظام وللدفاع عن البلاد ايضاً بشرط ان تكون تحت اشراف الدولة المنتدبة ولكن لا يجوز لادارة فلسطين استخدام هذه القوات لاغراض اخرى غير الاغراض المعينة في ما تقدم الا بموافقة الدولة المنتدبة وفي ماعدا هذه الاغراض لا يجوز لادارة فلسطين ان تجمع قوات عسكرية او بحرية او جوية ولا ان تبقيها عندها .

وليس في هذه المادة ماىمنع ادارة فلسطين من الاشتراك في نفقات القوات التي تكون للدولة المنتدبة في فلسطين . ويحق للدولة المنتدبة في كل وقت ان تستخدم طرق فلسطين وسككها الحديدية وموانيها لحركات القوات المسلحة ونقل الوقود والمهمات .

١٨ً — يجب على الدولة المنتدبة ان تكفل عدم التحيز في فلسطين على رعايا اية دولة تكون عضواً في جمعية الامم (وفي جملة ذلك الشركات المؤلفة بحسب قوانين تلك الدولة) اذا قيسوا برعايا الدولة المنتدبة او اية دولة اجنبية كانت في الامور المتعلقة بالضرائب او التجارة او الملاحة او تعاطي الصنائع او المهن او في معاملة السفن التجارية او الطيارات الاهلية . وكذلك يجب ان لا يكون هناك تحيز في فلسطين ضد عروض يكون منشأوها في بلاد من بلدان الدول المذكورة اوتكون مرسلة اليها . وتطلق حرية مرور المتاجر (الترانسيت) عبر البلاد المشمولة بالانتداب بشروط عادلة .

ومع مراعاة ماتقدم وسائر شروط صك الانتداب هذا يجوز لادارة فلسطين ان تفرض باشارة الدولة المنتدبة من الضرائب والرسوم الجمركية ماتراه ضرورياً وتتخذ من التدابير ماتظنه صالحاً لزيادة ترقية الموارد الطبيعية في البلاد وصون مصالح السكان و يجوز لها ان تعقد باشارة الدولة المنتدبة اتفاقاً جمركياً خاصاً مع اي دولة كانت املاكها كلها داخلة في تركيا الاسيوية او شبه جزيرة العرب في سنة ١٩١٤

١٩ً — تحافظ الدولة المنتدبة بالنيابة عن الادارة (ادارة فلسطين) على كل اتفاق من الاتفاقات الدولية العامة المعقودة حتى الآن او التي قد تعقد بموافقة جمعية الامم في ما بعد من جهة الاتجار بالرقيق والاتجار بالسلاح والذخيرة او الاتجار بالمخدرات او تتعلق بالمساواة التجارية وحرية المرور (الترانسيت) والملاحة والطيران و بالمواصلات البريدية والبرقية واللاسلكية بالممتلكات الادبية والفنية والصناعية .

٢٠ — تعاون الحكومة المنتدبة بالنيابة عن ادارة فلسطين في تنفيذ كل سياسه مشتركة تقررها جمعية الامم لمنع انتشار الامراض وفي جملتها امراض النباتات والحيوانات ومكافحتها بقدر ماتسمح به الاحوال الدينية والاجتماعية وسواها من الاحوال ·

٢١— تضع الدولة المنتدبة وتنفذ في السنة الاولى من تاريخ تنفيذ هذا الانتداب قانوناً خاصاً بالآثار والعاديات ينطبق على الاحكام الآتية ويكون هذا القانون ضامناً لرعايا كل الدول الداخلة في جمعية الامم المساواة في المعاملة فيما يتعلق بالحفريات والتنقيبات الاثرية :

(١ً) يجب ان يفهم من لفظة « العاديات » كل ما نتج عن عمل البشر أو وضعهم قبل سنة ١٧٠٠ ·

(٢ً) ان التشريع لحماية العاديات يجب ان يكون اجدر بالتشجيع منه بالتهديد ويجب على كل شخص يكتشف أثراً بدون حصول على الاذن المذكور في الفقرة الخامسة ان يعلم السلطة ذات الشأن باكتشافه وينال مكافأة متناسبة مع قيمة ما اكتشفه ·

(٣ً) لا يمكن نقل ملكية شيء من العاديات الا لمصلحة السلطة ذات الشأن ما لم تعدل هذه السلطة عن استحواذه · ولا يمكن اخراج شيء من العاديات من البلاد الا باذن تلك السلطه ·

(٤ً) كل شخص يتلف او يثلم قطعة من العاديات تعمداً او اهمالاً يجب ان يجازى جزاءاً معيناً ·

(٥ً) ممنوع كل حفر او تنقيب لايجاد العاديات الا باذن من السلطة ذات الشأن والا غرم المخالف غرامة مالية ·

(٦ً) توضع شروط عادلة للسماح بنزع الملكية موقتاً أو دائماً في الاراضي التي تحتوي فائدة تاريخية أو أثرية ·

(٧ً) لا تعطى الرخصة باجراء الحفريات الا لاشخاص يقدمون ادلة كافية على اختبارهم الاثري · وعلى الدولة المنتدبة عند اعطاء هذه الرخص ان لا تستثني علماء امة ما ·

(٨ً) يمكن اقتسام محصول التنقيب بين الاشخاص الذين اجروه والسلطة ذات

الشأن بالنسبة التي تعينها هي . فاذا تعذر الاقتسام لاسباب علمية يعطى للمكتشف تعويض عادل بدل قسم من محصول التعديل .

٢٢ — تكون الانكليزية والعربية والعبرانية اللغات الرسمية في فلسطين فكل عبارة او كتابة بالعربية على طوابع او عملة في فلسطين تكرر بالعبرانية وكل عبارة او كتابة بالعبرانية تكرر بالعربية .

٢٣ — تعترف ادارة فلسطين بالايام المقدسة (الاعياد) عند كل طائفة من طوائف فلسطين ايام راحة مشروعة لافراد تلك الطائفة .

٢٤ — تقدم الدولة المنتدبة لمجلس جمعية الامم تقريراً سنوياً يرتاح اليه المجلس عن التدابير التي اتخذت في اثناء السنة لتنفيذ شروط صك الانتداب وترسل نسخ من جميع الانظمة والقوانين التي تسن او تصدر في اثناء السنة مع التقرير .

٢٥ — يحق للدولة المنتدبة بسماح مجلس جمعية الامم ان تؤجل او توقف تطبيق ما تراه من هذه الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة في الاملاك الواقعة بين نهر الاردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الامر وان تضع من التدابير لادارة هذه الاملاك ما تراه ملائماً لتلك الاحوال بشرط ان لا يعمل عمل يكون مخالفاً لشروط المواد ١٥ و ١٦ و ١٨ .

٢٦ — توافق الدولة المنتدبة على انه اذا وقع نزاع مابينها (الدولة المنتدبة) وبين عضو آخر في جمعية الامم يتعلق بتفسير شروط صك الانتداب او تطبيقها يعرض هذا النزاع على المحكمة الدائمة للعدل الدولي المنصوص عليها في المادة الرابعة عشرة من عهد جمعية الامم اذا لم يمكن حله بالمفاوضات .

٢٧ — يلزم موافقة مجلس جمعية الامم على كل تعديل في شروط صك الانتداب هذا .

٢٨ — يتخذ مجلس جمعية الامم من التدابير في حالة انتهاء الانتداب المخول بموجب هذا الصك للدولة المنتدبة مايراه ضرورياً لصون استمرار الحقوق المكتسبة في المادتين ١٣ و ١٤ على الدوام بضمان الجمعية ويستخدم نفوذه لان يكفل بضمان الجمعية احترام

حكومة فلسطين الاحترام التام للعهود المالية التي اخذتها ادارة فلسطين على عاتقها في عهد الانتداب وفي جملة ذلك حقوق الموظفين في المعاش والمكافأة ·

تودع الصورة الاصلية من هذا الصك في محفوظات جمعية الامم وترسل صور مصدق عليها بواسطة السكرتير العام لجمعية الامم الى جميع اعضاء الجمعية ·

صك الانتداب

« على شرقي الاردن »

لامين سر جمعية الامم العام بخصوص تطبيق الانتداب الفلسطيني في شرق الاردن في ٢٣ ايلول سنة ١٩٢٢

يحصل لامين سر جمعية الامم العام الشرف بعرض مذكرة الى اعضاء الجمعية قدمتها الحكومة البريطانية في ١٦ ايلول سنة ١٩٢٢ بخصوص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني ·

وقد صادق المجلس على هذه المذكرة بموجب قرار قرره اثناء انعقاده في لندن في ٢٤ تموز سنة ١٩٢٢ بمناسبة تطبيق الانتداب على فلسطين وسورية ·

« مذكرة العضو البريطاني »

١ً — تنص المادة ٢٥ من نظام الانتداب الفلسطيني على ما يأتي :

يحق للدولة المنتدبة بسماح جمعية الامم ان تؤجل او توقف تطبيق ماتراه من هذه الشروط غير مطابق للاحوال المحلية الحاضرة في الاملاك الواقعة بين نهر الاردن والحد الشرقي لفلسطين كما سيعين في آخر الامر وان تضع من التدابير لادارة هذه الاملاك ماتراه ملائماً لتلك الاحوال بشرط ان لايعمل عمل يكون مخالفاً لشروط المواد ١٥ و١٦ و١٨ ·

٢ً — تطلب حكومة جلالة الملك من المجلس وفقاً لشروط هذه المادة ان يقرر القرار الآتي :

لاتطبق الشروط الآتية على نظام الانتداب الفلسطيني في القطر المعروف بشرق الاردن الذي يشمل جميع المقاطعات الواقعة الى شرق خط يمتد من نقطة واقعة على خليج العقبة على بعد ميلين الى غرب مدينة العقبة ماراً بمنتصف وادي عربة وبحر الميت ونهر الاردن حتى النقطة التي يلتقي بها هذا النهر بنهر اليرموك فمنتصف هذا النهر حتى الحدود السورية ·

وتلك الشروط الملغاة هي :

الشرح الثاني والثالث من الديباجة

المادة الثانية — في جعل البلاد في احوال سياسية وادارية واقتصادية تكفل انشاء الوطن القومي اليهودي كما جاء في الديباجة ٠

المادتان — الرابعة والسادسة

المادة السابعة — بتضمن نصوصاً بتسهيل حصول اليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً دائماً لهم على الرعوية الفلسطينية ٠

المادة الحادية عشرة — الجملة الثانية من الفقرة الاولى والفقرة الثانية ٠ والمواد ١٣ و ١٤ و ٢٢ و ٢٣

وفي تطبيق نظام الانتداب على شرق الاردن تقوم حكومته بالاعمال التي تقوم بها حكومة فلسطين في فلسطين بمراقبة الدولة المنتدبة ٠

٣ً — تقبل حكومة جلالة الملك التبعة التي تقع على عاتقها في تطبيق نظام الانتداب على شرق الاردن وتتكفل بان الشروط التي توضع لادارة ذلك القطر وفقاً للمادة ٢٥ من نظام الانتداب لا تكون باية وسيلة غير مطابقة لبقية شروط نظام الانتداب التي لم تشر إلى عدم تطبيقها في هذا القرار ٠

عهد انقرة

الذي وقع عليه يوم ٢٠ تشرين الاول سنة ١٩٢١

المادة الاولى — يعلن الفريقان الساميان المتعاقدان انه بعد التوقيع على هذا الوفاق تنتهي حالة الحرب بينهما و يتبلغ ذلك في الحال الى الجيوش والسلطات الملكية والسكان ٠

المادة الثانية — بعد التوقيع على هذا الوفاق يطلق سراح اسرى الحرب من الطرفين و يعاد جميع الفرنساويين والاتراك المأسورين والمسجونين على نفقة الفريق الذي أسرهم الى اقرب مدينة تعين لذلك ٠ وتتناول الاستفادة من هذه المادة جميع الاسرى والسجناء من الفريقين مهما كان وقت او محل سجنهم وتوقيفهم او اسرهم ٠

المادة الثالثة — بعد شهرين من التوقيع على هذا العهد على الاكثر تتراجع الجيوش التركية الى الشمال والجيوش الافرنسية الى جنوب الخط المعين في المادة الثامنة ٠

المادة الرابعة — يجري الاخلاء والاستيلاء اللذان يتمان خلال المدة المذكورة في المادة الثالثة على الكيفية التي تعين بالاتفاق المشترك وذلك بواسطة لجنة مختلطة يعينها قواد الجند من الفريقين ٠

المادة الخامسة — يمنح الفريقان المتعاقدان العفو العام في الاصقاع التي تم الجلاء عنها وذلك بمجرد وضع اليد عليها ٠

المادة السادسة — تصرح حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا ان حقوق الاقليات التي جرى الاعتراف بها جهاراً في الميثاق الوطني سيوافق هو عليها على نفس الاساس الذي عقد في الوفاق المتعلق بهذا الشأن بين دول التحالف خصومهم و بعض احلافهم ٠

المادة السابعة — تدار شؤون صقع الاسكندرونة ادارة خصوصية و يتمتع السكان الاتراك في تلك الارجاء بجميع التسهيلات لترقية تهذيبهم وتكون للغة التركية صفة لغة رسمية ٠

المادة الثامنة — يعين الخط المذكور في المادة الثالثة و يحدد كما يلي :

يمتد خط التخوم من نقطة يجري اختيارها في خليج الاسكندرونة في جنوب ناحية بياس مباشرة و يتجه الى ميدان اكبس (تبقى محطة السكة الحديدية والناحية منضمتين الى سورية) ٠

ومن هنا ينحني نحو الجنوب الشرقي بحيث يترك لسورية مديرية مرسوى ولتركيا بلدة قارصايه مع مدينة كليس ثم يسير مع السكة الحديدية حتى محطة جوبان بك و يسير مع خط بغداد و يبقى سطحه للاملاك التركية حتى نصيبين ومن هناك يتبع الطريق القديم بين نصيبين وجزيرة ابن عمر حتى يبلغ نهر دجلة وتبقى لتركيا نصيبين وجزيرة ابن عمر والطريق بينهما و يكون للبلادين نفس الحقوق في الانتفاع من هذا الطريق ٠

وتكون المحطات في شعبة جوبان بك ونصيبين ملكاً لتركيا كأنها جزء من سطح السكة الحديدية ٠

وتتألف لجنة من مندوبي الفريقين في برهة شهر بعد التوقيع على هذا الوفاق لتحديد الخط المذكور وتبدأ هذه اللجنة بعملها في تلك البرهة ٠

المادة التاسعة — يبقى قبر سليمان شاه جد السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية (وهو القبر المعروف باسم ترك مزاري) الواقع في قلعة جعبر مع كل مايتعلق به ملكاً لتركيا تستطيع ان تضع فيه حراساً وترفع العلم التركي ٠

المادة العاشرة — تقبل حكومة المجلس الوطني الكبير في تركيا بنقل امتياز فرع السكة الحديدية البغدادية الواقع بين بوزانتي ونصيبين مع سائر الشعب الممتدة في ولاية اذنة الى شركة افرنسية تعينها الحكومة مع جميع الحقوق والفوائد والمنافع المتعلقة بالامتيازات ولا سيما فيما له علاقة بالاستثمار والاتجار ٠

يحق لتركيا ان تنقل نقلياتها العسكرية بالسكة الحديدية من ميدان اكبس الى جوبان بك في ارض سورية و يحق لسورية ان تنقل مهماتها الحربية بالسكة الحديدية من جوبان بك الى نصيبين في الارض التركية ٠ ولا تضاف زيادة عن اجور السكة في هذه الشعبة او الفرع وتحتفظ الحكومتان بحقها في درس ما تقضي به الضرورة من الحياد هذه القاعدة اذا اقتضت الحال وذلك باتفاق الفريقين ٠

واذا لم يتسن الاتفاق يكون كل فريق حراً في عمل ما يراه ·

المادة الحادية عشرة — تؤلف لجنة مختلطة بعد التصديق على هذا العهد لتعقد اتفاقًا جمركيًا بين تركيا وسورية وتحدد اللجنة شروط هذا الاتفاق ومدته ويكون للبلادين حق التمتع بحرية العمل ريثما يعقد هذا الوفاق ·

المادة الثانية عشرة — تقسم مياه نهر قويق بين مدينة حلب والصقع الواقع الى الشمال الباقي لتركيا قسمة عادلة يرتضي بها الفريقان ·

ويتأتى لمدينة حلب ان تأخذ على حسابها من نهر الفرات شطراً من المياه من الارض التركية لتستعملها في ارجائها ·

المادة الثالثة عشرة — يظل كما في السابق سكان القرى او نصف الرحالة من اهلها ممتعين بحقوقهم في المراعي اذا كان لهم املاك في احدى الجهتين من الخط المعين في المادة الاولى ويتيسر لهم لضرورة استثمار اراضيهم ان يعملوا احراراً ولا يؤدون رسمًا جمركيًا ولا ثمن المراعي ولا اي رسم كان ويتنقلون من جهة الى أُخرى من هذا الخط مع مواشيهم ومايولد لها وادواتهم وآلاتهم وبذارهم وحاصلاتهم الزراعية لانهم مكلفون بان يؤدوا الحقوق والرسوم عليها في البلاد التي يسكنون فيها ·

انتهى الجزء الثالث وبه انتهى التاريخ السياسي في القطر الشامي ويليه الجزء الرابع وبه يبتدئ تاريخه المدني

فهرس الجزء الثالث

« من خطط الشام »

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة